

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

نور الله

(الجزء الثاني)

The Divine Light

Part II

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا







الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
تليفاكس: 20242106060+
Email:daralsahoh@gmail.com

عالم المعرفة
الجزائر
تليفاكس : 021.20.56.62
حي باحة 02 فيلا 07 تاماريس - المحمدية - الجزائر
Email : alemelmaarifa@yahoo.fr

روايات إسلامية
[٨]



نور الله

[الجزء الثانى]

نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٣٨٢

الترقيم الدولي:

978-977-255-428-7



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب- السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٢
daralsahoh@gmail.com

شخصيات الرواية

- عبد الله بن أبيّ، شيخ المنافقين بالمدينة.
- أبوسفيان، زعيم مكّة.
- أبوالعاصى بن الربيع، زوج زينب بنت الرسول.
- صفية ابنة حيى بن أخطب زعيم اليهود، زوجة الرسول فيما بعد.
- سلام بن مشكم، زعيم يهودى بخيبر.
- زينب بنت الحارث، زوجة سلام.
- كنانة بن الربيع، زعيم يهودى بخيبر، وزوج صفية فى البداية.
- أبو بصير، مولى من الموالى الثائرين ضد مكة.
- الحويرث، أحد أئمة العناد فى مكة والمعتدى على زينب بنت الرسول.

- عكرمة بن أبى جهل ، من قادة الشرك وأسلم بعدها .

- وحشى ، قاتل حمزة عم الرسول .

- الحجاج بن علاط ، تاجر يهودى بخيبر .

- العباس ، عم الرسول ﷺ .

- لؤلؤة ، إحدى غوانى مكة .

- خالد بن الوليد ، قائد فرسان مكة .

- فهد ، عبد من عبيد سلام بن مشكم بخيبر .

- أم حكيم ، زوج عكرمة .

- أم الفضل ، زوج العباس .

- هند ، زوج أبى سفيان .

- عمرو بن سالم ، رجل من خزاعة (حلفاء الرسول ﷺ) .

الفصل [١]

كانت زينب بنت الرسول ﷺ مضطجعة على حصير مهترئة، وسمات الألم ترتسم على وجهها النحيل الشاحب، وعيناها المبللتان تعبران عن الحزن الدفين، ومن آن لآخر تصدر عنها تأوهات خفيضة مبتورة، وتحاول جاهدة أن تلتقط أنفاسها اللاهثة، ولا تستطيع أن تتحرك على فراشها في حرية، إذ إن أقل حركة تثير الألم الساكن في أحشائها، فيموج وكأن عشرات المدى تمزق في بطنها، إن ضوء النهار قد ولى، والظلام يزحف إلى حجرتها الضيقة القليلة الأثاث، لشد ما تكره الظلام، وتنوء بحمله، إنه يثقل على روحها وقلبها، ويزيد من أحزانها وآلامها، لكنها غير قادرة على أن تتحامل على نفسها وتذهب إلى حيث يوضع مصباحها الزيتي. . وأطفالها قد انصرفوا عنها. . وزوجها «أبو العاصي بن الربيع» لم يعد بعد من مسجد الرسول ﷺ. . فما عليها إلا أن تنتظر على مضض. . وبعد وقت قصير عاد زوجها، ثم ألقى السلام

عليها فردت التحية بأحسن منها وهى تشعر بقليل من الراحة .

- «أراك صامتة يا زوجتى الطيبة» .

- «الله أعلم بحالى . . لكم يعز علىّ أن أرتمى هكذا على فراشى»، كلما رأيتك يا أبا العاصى تقوم على خدمتى، وتشغل نفسك بأمر البيت وأمر الأولاد يتتابنى غم شديد» .

وأراد أن يهون عليها فقال : «لسنا مجرد أزواج . . بل أنت بنت الخالة، رحم الله أمك خديجة ! ! وحفظ الله أباك رسول الله ﷺ . . ما أعظم الأشياء التى تربط بين قلبينا يا زينب ! !» .

تشبعت نظراتها بالدموع وهى تقول : «لكنها إرادة الله، وليس علينا إلا الصبر والتسليم» .

وأدرك أبو العاصى ما يعتمل فى ذهنها، إنها الآن تستعيد ذكرى أيامها الغابرة، وهل تستطيع زينب بنت الرسول أن تنسى ما حدث : لقد رفض زوجها فى البداية أن يؤمن برسالة أبيها محمد، لكنه فى الوقت نفسه رفض أن يطلق زينب، على الرغم من أن أساطين الكفر فى قريش أثروا على زوجىّ أختيها رقية وأم كلثوم فطلقتا من ابنى أبى لهب . . كان أبو العاصى يحب زينب . . لم يكن يتصور الحياة بدونها . وكان يحب أباها على الرغم من عدم إيمانه بدعوته . . أجل . . كانت زينب تحمل له فى قلبها عاطفة غلابة، ويؤلمها أشد

الألم أن تسلم هى ويبقى هو على كفره، لكنها بقيت معه لأن الوحى لم يكن قد أمر بالتفريق بين الزوجة المسلمة والزوج المشرك. . وظلت على ولائها لزوجها برغم اختلاف العقيدة. . والأنكى من ذلك أن قريشًا أصرت على أن يخرج أبو العاصى معهم لحرب محمد يوم «بدر الكبرى»، وطلبوا منه أن يخرج دفاعًا عن نصيبه من التجارة الآتية من الشام إن لم يخرج دفاعًا عن دينه الذى سفهه محمد. . إنه يوم عصيب تتذكره زينب جيدًا. . إن زوجها يخرج لمحاربة أبيها، زوجها ولا أحد غيره. . يا لها من ليلة ليلاء!! ظل أبو العاصى يتقلب على فراشه، وهى الزوجة المخلصة المحبة تدرك ما يعتمل فى قلب زوجها آنذاك، وأبو العاصى لم يرَ منها إلا بر الزوجة، وحنان الأنثى. . وطيب العشرة، وجمال التضحية، ورأت زوجها أبا العاصى يخرج فى ذلك اليوم شارد النظرات، مضطرب القلب، يتحرك كالتمثال، ويمضى أصم الأذنين عن هتاف قريش وصراخها واستعدائها. . كان كالمخدر يؤدى الدور المنوط به بلا قلب. . كان قلبه هناك عند الزوجة الوفية الأبيّة التى فاضت روحها بالإيمان والصبر. . الزوجة التى تقف بين عبث الكفر وصدق الإيمان، والتى تقف بين الزوج المشرك والأب الذى يدعو إلى وحدانية الله. وحقائق العقيدة السمحاء.

وظلت زينب تنتظر عودة زوجها من المعركة التى يخوضها ضد أبيها . . وأخيراً عادت فلول المشركين من قريش هاربة مهزومة . . وهتفت زينب آنذاك : «أين زوجى؟؟ هل قتل؟؟» .

وجاءها صوت أحد المنهزمين الحاقدين : «لقد قتل أبوك ورجاله قمم الرجال من قريش ، وساق عشرات الأسرى . . » .

أتفرح زينب؟؟ أتحزن؟؟ لقد حقق الله النصر الذى وعد به أباها ، وأذل الكفر ورفع راية الإيمان ، كان من العدل أن يحدث ما حدث ، لكنها تهتف مرة أخرى :

- «وزوجى؟! ما مصيره؟؟» .

- «وقع أسيراً فى يد أبيك . . » .

وتدحرجت الدموع على خديها ، أكانت دموع الفرح؟ ماذا يكون الأمر لو سقط الرجل الذى تحبه قتيلاً بسيوف رجال أبيها؟؟وأبوها رجل بر رحيم ، إن زوجها إذن فى مأمن من كل شر ، وهى تعرف أن زوجها خاض المعركة شارداً لم يكن يؤمن بما يفعل ،لكن سيل الشرك الجارف قد اكتسحه ، خاف أن يرمى فى كبريائه وشرفه وانتقاصه لدين الآباء والأجداد ، ونظام بلده . . لا شك أن ذلك مرحلة دون الإيمان الصادق ، ودون الاعتراف بالحق المجرد . . لكن أبا العاصى لم يكن بقادرعلى

أن يعلن إيمانه، ربما كان الإيمان بالدين الجديد فى تلك الفترة يعنى التخاذل، ويعنى التنكر للنظام والماضى وتراث الآباء . . ثم إن أبا العاصى كان مدينًا بكثير من المال لرجالات قريش أيهاجر ليتهم فى أخلاقه؟؟ كانت زينب تدرك ذلك بما تلاحظه وما تسمعه، وزينب لم تجعل من قضية إيمان زوجها محلاً للجدل العقيم الكثير، كانت تعلم أن عقله يستطيع أن يستوعب القضية، ويصدر فيها حكمًا بينه وبين نفسه . . وكانت ترى فى نظراته وكلماته أمارات تنبى عن مستقبل كريم مستقر لها وله، فى ظل القيم الجديدة التى يدعو إليها أبوها . . وخيل إليها أن زوجها لن يعود من الأسر إلا وقد أعلن إسلامه، وكم كانت دهشتها عندما علمت أن زوجها قد أرسل يطلب الفداء كى يطلق محمد سراحه، إذن فأبو العاصى لم يعلن إسلامه . . آه هذا موقف من الصعب على أبى العاصى فيه أن يثوب إلى الرشد، أيعود إلى الحق فى ظل الأسر والهزيمة؟ لا . . إنه لن يعتنق الدين الجديد فى مثل هذه الظروف، هى تعرفه، يرفض الإذعان للظروف التى تبدو سيئة قاهرة، فما كان من زينب إلا أن أرسلت الفداء ومعه قلادة كانت أمها خديجة قد أهدتها لها عند زواجها، وعندما رأى الرسول القلادة رق لها رقة شديدة وقال للمسلمين من حوله: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا . . ».

لكن الرسول اتفق فيما بينه وبين أبي العاصي على أن يفارق زينب، وقد فرق الإسلام بينهما . . وعاد أبو العاصي إلى زوجه زينب فأشرق وجهها بالسعادة الغامرة، وهمست: «كيف حالك يا أبا العاصي؟؟».

قال وقد أطرق برأسه في أسى: «كان أبوك برآبي، كريمًا معي أقصى الكرم . . ».

- «هذا يسعد قلبي . . ».

- «لكن لا مفر . . ».

- «ماذا تقصد؟؟».

- «لابد أن ترحلي إليه . . هذا أمر الله . . لقد وعدته بذلك، لم يعد في الإمكان أن تصبح المسلمة زوجًا للمشرك . . ».

وسادت فترة صمت، قال أبو العاصي بعدها: «وقد حضر معي رسولان ليأخذاك إلى المدينة . . إن أبا العاصي لا يخلف وعده، ولا ينكص عن عهده . . ».

وقالت زينب وقلبها يدق مسرعًا : «أما آن لك أن تؤمن برسالة الله؟».

وقال وقد احتقن وجهه: «إنني على استعداد لأن أقدم

أغلى ما أملك للحفاظ عليك، والبقاء إلى جوارك يا زينب . . لكن أمر الله فوق كل أمر . . إننى أدرك ذلك، إننى فى موقف اختيار عصيب عنيف . . لكن لعل الله يجعل من ذلك الموقف الصعب مخرجًا . . ».

- «ولم الانتظار؟؟» .

فانصرف إلى الداخل ليدارى دمعة أفلتت من بين أهدابه، وأعدت زينب نفسها للرحيل . . وخرجت مع رسولى الرسول قاصدة المدينة، وقلبها ينزف أسى، لم يكن لها خيار، إن أمر الله فوق كل اعتبار، فلتضحِّ زينب بأعز ما تملك، فلتضحٍّ بحياتها وسعادتها الدنيوية فى سبيل الله . . وحاولت جاهدة أن تنسى ما عدا ذلك . . وعلى مشارف مكة تعرض لها ذلك الكافر الحاقد المدعو «الحويرث»، وأغرى بها بعض الأوباش فاعتدوا عليها حتى أجهضوها . . أجل . . كان يومًا عصيبًا مشئومًا . . ومنذ ذلك اليوم وهى مريضة تتألم وتنزف، وبلغت المدينة وهى فى حالة من الحزن والألم الجسدى والنفسى لا يعلم إلا الله مداها، لشد ما تأثر الرسول!! وأعلن حكمه فى «الحويرث» القتل . . حتى ولو وجد متعلقًا بأستار الكعبة .

تذكرت زينب كل ذلك، وهى ترقد على حصيرتها المهترئة، فى تلك الحجرة الضيقة الخافتة الضوء، وأدرك

زوجها ما تفكر فيه، فاقترب منها فى حنان، ونظر إلى وجهها الشاحب، فرأى الدموع فى عينيها برغم الضوء الخافت وقال فى رقة: «ماذا جرى لك يا زينب؟؟».

- «إن جريمة «الحويرث» هى سبب ما أعانيه من آلام طوال هذه السنوات..».

ضغط على أسنانه فى غيظ، وهدر: «لسوف يأتى اليوم الذى أثأر منه..».

وأجهشت باكية وهى تقول: «أنت السبب.. لو انصعت إلى الحق منذ البداية لوفرت علينا ما عانيناه من عذاب..» هدأ أبو العاصى من روعها، وأخذ يقول محاولاً التخفيف عنها: «كان لابد أن أرد على قريش أموالها.. الثمرة لابد أن تنضج حتى يحلو مذاقها.. وهذا ما حدث، فقد خرجت إلى الشام فى تجارة بعد ذلك، ثم عدت ومعى الربح الوفير عازمًا على أن أرد إلى قريش حقوقها أولاً، ثم أعلن إسلامى.. لكن سرية للمسلمين اعترضت طريقى وأخذتنى أسيراً إلى المدينة.. أنت تذكرين ذلك جيداً يا زينب.. لقد جريت إليك مستجيراً بك.. فأجرتنى.. لقد أتيت إليك ليلتها مستجيراً وعازمًا على الإسلام.. رأيتك فى البيت كالوردة النديّة -برغم مرضك- وقد أشرق وجهك بنور الإيمان.. صدقينى يا زينب.. لم

أكن أنوى الرحيل بعد العفو الثانى الذى صدر من أبيك بسببك . . لكنى أخذت تجارتى وأموالى ورحلت إلى مكة، وأنت فى غاية من الدهشة والاستغراب لأمرى . . وعندما بلغت «مكة» ورددت إلى الناس حقوقهم، وقفت بين حشد كبير من رجالات قريش وصحت بأعلى صوتى : «يا معشر قريش ! ! هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟؟ قالوا : «لا . . جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيًا وكريمًا» .

قلت لهم : «فإنى أشهد أن لا إله الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت» . . ثم تركتهم يا زينب وسط دهشتهم وذهولهم، وعدت إلى المدينة، كنت أخترق الصحراء، تحت لهيب الشمس المشرقة، لكن وجهك المشرق بنور الإيمان والحب يتبدى فى خيالى، فأحث الخطى، وأواصل السير بالليل والنهار . . لكنى كنت خائفًا . . » .

قالت زينب وقد تطلق وجهها : «ممِ تخاف؟» .

- «كنت أوجس خيفة ألا يجمعنا بيت واحد مرة ثانية . . » .

قالت بصوت خفيض ترويه المشاعر الندية : «إن صفح أبى يتسع للسماء والأرض . . » .

فقال وهو يحرك سبابته فى إصرار: «إلا الحويرث» . . حتى ولو كان متعلقًا بأستار الكعبة . . » .

هزت رأسها وقد أظلت وجهها سحابة أسى: «أجل . . » .

ثم تمتمت: «ألا تشعل المصباح؟» .

- «إن وجهك يضىء لى حياتى كلها يا زينب . . يا بنت خير خلق الله . . » .

واحتضنت يداه يدها الصغيرة فى حنان بالغ . .

❑❑❑

الفصل [٢]

رفض عبد الله بن أبى أن يتناول غذاءه، وظل قابعًا فى مكانه، يخترمه الأسى، وتتكدس فوق رأسه الهموم، وكيف يحلو له طعام، أو يستسيغ أى شراب؟! وما قيمة الحياة إذا تحولت ساعاتها إلى مشاهد للفشل المروع والهزائم المتتالية؟؟ وهل هناك لذة أو متعة إذا تحطمت الآمال، وأطل القدر من عليائه ساخرًا شامتًا ؟؟ إنه التحدى والمغامرة ولا شىء غيرهما يستطيع «ابن أبىّ» أن يشهرهما فى وجه القدر والفشل والهوان، بالأمس توافدت قبائل العرب من قريش وغطفان وأسد وأشجع وفزارة واليهود، وأحاطت بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم، مؤكدة تصميمها على سحق محمد ورجاله، وتعاهدت عهدًا مقدسًا ألا ترجع إلا وقد مزقت شمله، وبددت آماله وآمال المسلمين، آه. . وخفق قلبى خفقات حلوة النغم. . ودعوت إلهى من كل قلبى أن ينصر أبا سفيان، وزعيم اليهود حيى بن أخطب، وشعرت بلذة عارمة وأنا أرى

محمداً يسرع إلى هنا وهناك ويمتزج عرقه بالغبار، وهو يشارك فى حفر الخندق، وبدا لى المسلمون كفئران سقطوا على مصيدة قاتلة لا نجاة منها . . وكدت أرقص من الفرح وأنا أرى نيران الأحزاب تتوهج فى ظلام الليل وتنذر محمداً ورجاله بالويل والثبور . . يا لها من أيام رائعة؟ المسلمون يتحركون زائغى النظرات . . وابن الخطاب يضرب الأرض بمعوله وهويحفر الخندق فى ثورة عارمة . . لكأنه كان يحطم رأس الفتنة والهزيمة المتوقعة . . كان المسلمون مجموعة من العراة الجياع، يقفون على شفا هاوية سحيقة القرار . . وكان الفناء محتمًا . . والخطر يأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم . . وبنو قريظة يعدون شفراتهم الحادة . . يا لها من ذكريات!! عندئذ برقت فى خيالى صورة التاج والخرز . . آه ذلك التاج الذى كانت تعده يثرب لتضعه فوق رأسى كى أصير ملكًا، وخيل إلىّ آنذاك أننى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق الأمل الذى أصبو إليه، وهو أمل ذو شقين: أولهما اندحار محمد ورجاله، وثانيهما أن يدخل الغزاة من الأحزاب واليهود ويرفعوا التاج، ثم يضعوه على رأسى الأشيب . . كنت صامتًا أرقب الأحداث . . أتلذذ بالمشهد التاريخى الرائع الذى ستدور به الركبان، وتردده المسامر، وتخيلت سقوط محمد ووقوفى على رأسه قائلاً: «لو كنت نبيًا حقًا لما اكتويت بنار الهزيمة . .

أين الله الذى تدعو إليه ليأخذ بيدك؟» لكن الشىء الذى لا أنساه أن هؤلاء الرجال من أتباع محمد -كانوا يناضلون فى استماتة . . لم يتطرق اليأس إلى نفوسهم برغم الجوع والبرد والهزات النفسية العنيفة، وبرغم انسلاخ بعض المسلمين عنهم . . هؤلاء الذين يسمونهم بالمنافقين، وبرغم غدر بنى قريظة . . لو كنت مكان محمد لاستسلمت على الفور، لأن النجاة من ذلك المأزق الرهيب -كما تبدو لى- كانت شبه مستحيلة . . اليهود والأحزاب وغدر بنى قريظة . . وضيق المسلمين بما هم فيه من قلة فى العدد، وجوع وبرد، وانصراف البعض عنهم . . ماذا بعد ذلك؟؟ لم يكن أحد يتوقع إلا الهزيمة . . كان المسلمون يستميتون فى معركة خاسرة . . أى إيمان هذا الذى جعلهم يصمدون حتى النهاية؟؟ إن هذا الإيمان يبلغ فى قوته درجة البلاهة . . هذا ما أتصوره . . لكن للأسف ! ! فى يوم مشئوم فتحت عينى على مأساة . . عصفت الريح . . وجدّت أحداث . . ورفعت عينى إلى الشاطئ الآخر من الخندق، فماذا وجدت؟؟ الأحزاب رحلت . . ولم يعد هناك سوى رماد النيران التى كانت تتوهج بالأمس . . الرماد وحده بقى يحكى قصة الخيبة المفاجئة الغريبة التى حلت بالأحزاب . . أين قريش وغطفان؟ وأين أبو سفيان وعكرمة والحارث؟ يا للهول الأكبر اليهود من بنى قريظة، يفرون إلى حصونهم يتوزعهم الرعب القاتل، ويؤرقهم المستقبل

المخـيب . . وحـيى بن أخطب يجـتـر آمـاله الخـائبـة . .
والمسلمون؟؟ هنا الكارثة وعلى رأسهم محمد بن عبد الله . .
يرفعون رءوسهم . . ويسمون بجباههـم صوب شمس الشتاء
الدافئة المشرقة . . وينطلقون خفافًا وثقالاً يترنمون بالنصر . .
كيف أتى النصر؟؟ إنه أشبه ما يكون بالمعجزة . . المعجزة؟؟
إنها من حق الأنبياء وحدهـم . . وهل محمد نبى؟؟ فلأدع هذا
الأمر . . إن ما يسيطر على أفكارى صباح مساء هو ذلك المشهد
المثـيـر . . المقـاتلون من بنى قـريظة ينزلون من حـصـونهم،
ويسلمـون رقابهم لسيوف محمد . . وانتهت بنو قـريظة . .
وسقط حيى بن أخطب . . سقط بطلاً يأبى أن يطأطئ رأسه . .
سقط وهو مصر على عداته لمحمد . . هكذا يكون الرجال
ويكون العداء . . يا للكارثة لقد فقدت -بفقدك ياحيى بن
أخطب ركنًا من أقوى الأركان المكافحة ضد سيطرة محمد . .
إن كل يوم يمر يتناقص فيه أعداء محمد . . ليكن . . أما أنا
فسأبقى- لن أستسلم . . سأظل أنخر فى عظام التجمع
الإسلامى . . سأضرب فى الظلام . . وأسدد طعناتى . .
وسأظل ابتسم فى وجهك يا محمد برغم علمك بحقدى . .
وستنطلق الكلمات المعسولة تندثر من فمى . . أتسمى ذلك
نفاقًا يا محمد؟؟ إنه أسلوب من أساليب الحرب . . إننى أدافع
عن ملكى الذى اغتصبته منى فى آخر لحظة نزعت التاج الذى

كان على وشك أن يوضع فوق رأسى . . مزقت حلفائى من اليهود . وقضيت على كبرائهم . . كعب بن الأشرف . . عمرو ابن جحاش . . كعب بن أسد . . وسفكت دم الرجال من قريش فى بدر . . أتتهمنى بعد ذلك بالنفاق؟؟ أنت صاحب حق وحامل رسالة يا محمد . . وأنا كذلك صاحب حق، ولكنى لا أحمل رسالة جديدة . . إننى أمين على تراث الآباء والأجداد . . كلانا يعتقد أن الحق فى جانبه، ربما لا أستطيع أن أزعم النبوة . . ومن حسن الحظ أن النبوة أمر نختلف عليه، فلنتركها جانبًا . . ولنلتقِ وجهًا لوجه، ورجلاً لرجل . . دع أمر السماء إذا سميت انتصارك فى معركة الأحزاب معجزة، فبماذا تسمى هزيمتك يوم «أحد»؟؟

وأفاق عبد الله بن أبى من هواجسه وأحلامه المضطربة الصاخبة على صوت زوجه : «ألا تأكل؟؟» .

نظر إليها فى شرود : «ماذا؟؟» .

- «ألا تسمعنى؟» أنت لا تأكل . . أنت لا تخرج إلى الناس . . أنت لا تنام . . إنك تقتل نفسك بذلك، وتحمل على كاهلك فوق ما تطيق من هموم . . » .

قال وهو يتنهد فى أسى : «إنه العذاب يا امرأة» .

- «أنت الذى تعذب نفسك . . » .

- «أتعتقدين ذلك؟؟ هكذا يكون كبار النفوس. . ».

- «وهل من الضرورى يا عبدالله أن يصاب كبار النفوس بالتحول والشحوب وفقدان الشهية. . ».

- «لأن أفكارهم وآمالهم فوق طبيعة البشر. . ».

قالت دون أن تدرك خطورة ما تتلفظ به: «إن محمداً يحارب ويتعرض للأخطار، ويقتحم الأهوال، لكنه يأكل ويشرب وينام. . ويبتسم يا عبد الله. . ».

صرخ فى حدة: «لا تذكرى اسمه أمامى؟؟».

- «ألست مسلمًا؟؟».

قال وقد تفصد جبينه عرقًا: «رمانى برذيلة النفاق، وحقر من شأنى وجعلنى سخرية الساخرين. . ».

- «لقد بسط لك من صفحه ومجاملاته ما تعرف. . ».

قال محتداً: «صفحه؟؟ ماذا تقصدين؟؟ الصفح عمن يقترفون الآثام. . أنا صاحب حق، وصاحب رأى يا امرأة. . ».

- «لكنه نبى. . ».

- «وأنا صاحب هذه الأرض والمرشح الأوحد لتولى عرشها. . لو كان نبيًا حقًا، لترك شئون الدنيا لى، واهتم هو بأمر الآخرة. . إنه من العدل أن يكون الأمر قسمة بيننا، ولن ينقص ذلك من نبوته شيئًا. . ».

- «ولماذا لم تفاتحه فى الأمر؟؟».

قهقه فى سخرية: «إنه يعلم كل شىء، وهل تعتقدين أنه يتنازل عن سلطة وضعتها الأقدار فى يديه، ويهتف بى كى آتى إليه ليسلمها لى؟؟ كيف؟؟ إن ابنى نفسه يبذل دمه وروحه فى سبيل محمد، وقومى من الخزرج يفدون محمداً بالأرواح والأموال.. فكيف أقف فى وجه هذا الطوفان الكاسح؟؟ إن محمداً جعلهم يؤمنون بأنه قيم على شئون الدنيا والدين، والحزب والحكومة، والمدرك الوحيد لأسرار الموت والحياة، وعالم الغيب والشهادة.. لقد استطاع محمد بذكائه الخارق، أن يمزج ذلك كله فى عجينة واحدة لذيذة المذاق، فتهافت عليها الحمقى والبلهاء..».

قالت فى دهشة: «لكأنك يا عبد الله تريد أن تتحدى إرادة الله، وتتصدى لنواميس الكون، وتزحزح جبل «أحد» عن مكانه.. إنك تخوض معركة بائسة..».

رفع سبابته وصاح: آه..

ثم استطرد: «ألا تذكرين؟؟ لقد كنت أقول نفس هذه الكلمات عندما كان محمد ورجاله محصورين جائعين.. عراة.. والأحزاب يحيطون بهم من كل جانب.. لم يكن أحد يتصور أنه سيخرج من هذه الورطة، ثم ماذا؟؟ انتصر..

تصـدى لنواميس الكون . . وزحزح ما هو أخطر من جبل أحد . . هل نواميس الكون تقول إن بضعة مئات من الجياع العراة المفزعين يهزمون اثنى عشر ألفًا؟؟ إنه الصمود والإصرار يا امرأة . . ليكون محمد نبيًا، وأنا على استعداد أن أظل مؤمنًا به لكن على شرط ألا يتعرض لحقى فى الحكم . . فى الملك».

قالت الزوجة: «أهو إسلام مشروط؟؟».

- «ولم لا؟».

- «إن المسلم الحق -كما أفهم- لابد وأن يسلم أمره ونفسه لله . . وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

سدد إليها نظرات قاسية وهتف فى غيظ: «ارفعى من أمامى هذا الطعام . . اذهبى عنى . . ».

ثم تمتم مبهور الأنفاس: «إن حلفائى ليسوا هنا . . ابنى يعارضنى، وأنت كذلك . . والغالبية العظمى من الخزرج كلكم تفسدون علىّ مخططاتى . . بل أنتم جواسيس حقراء لمحمد . . أما حلفائى الصادقون فهم هناك . . سيفدون من خلف الجبال . . ويقطعون الفيافى القاحلة . . وتسيل بهم الوديان فى جمع لن تروا له مثيلاً . . ».

تطلعت إليه فى استغراب، إن الرجل يهذى، يبدو أن طول السهر، وقلة إقباله على الطعام، وإدمانه التفكير، كل ذلك قد

أثر على قواه العقلية. فاضطربت أفكاره، واختلطت أوهامه بنزواته، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الجنون، إنه أجدر بالعطف والتسرية، فأقبلت نحوه، وجلست إلى جواره، وقالت فى حنان: «أى زوجى العزيز إنك فى الذؤابة من قومك، ولك من حسبك ونسبك ما يجعلك سيداً مطاعاً..».

فقاطعها قائلاً: «أتعتقدين ذلك حقًا؟؟».

- «هذه هى الحقيقة.. وأنت تعلم يا عبد الله أنه لم يبقَ من العمر أكثر مما مضى، فلم تقضى أيامك نهبًا للأحزان والآلام؟؟» ما كان التاج يومًا مصدر سعادة وهناء، ورب أشعث أغبر، لا يجد سوى قوت يومه، يسكن فى خيمة بالية، تعتورها الرياح والأمطار.. رب رجل هذا شأنه. أهنأ بالاً، وأسعد حالاً من ملك على رأسه تاج..».

أطرق عبد الله قائلاً: «هذا عزاء عظيم: ورثاء مؤثر..».

- «إننى أتكلم عن إيمان.. وأنت تعرف أن الرجل على حق، وأنه رسول من عند الله وأنه يبغى الخير للناس جميعًا، وأنه لا يشهر سيفه إلا فى وجه المعتدين، وأن الأيام أثبتت صدقه، وأن القلوب لتعشق كلماته، وأن الرجال يضحون فى سبيلها بالمهج والأرواح، وأن قرآنه يرطب القلوب، ويحيى الأرواح، ويدعو إلى التى هى أقوم، ويبشر الذين يعملون

الصالحات بالنعيم المقيم . . فلماذا لا تطرد هواجس نفسك، وتقهر وسوسات الشيطان . وتنطلق فى ركبه نحو الله مؤمنًا قوى الإيمان؟؟».

انسابت دموعه فجأة، وأخذ يحاول أن يكتم نشيجه، وهو يقول بنبرات باكية مؤثرة: «لا أستطيع . . لاأستطيع . . إننى مغلوب على أمرى . . ».

ولم تتمالك هى الأخرى نفسها، فأخذت تبكى وتنشج وتربت على ظهره فى حنان وتقول: «ولماذا لا تحاول . . إن الدنيا بكل ما فيها لا تساوى عند الله جناح بعوضة، وليست بدار مقام، هبك ملكًا على رأسه تاج . . ما هى النهاية؟؟

هناك فى الصحراء المترامية لكل إنسان حفرة ضيقة . . ».

أشاح بيده فى رعب وقال: «لا تنطقى بهذه الكلمات . . لا أريد أن أسمعها . . دعينى وشأنى الآن . . ارحمينى يا امرأة . . إننى أشعر بقيود ثقيلة مرهقة تشدنى إلى الأرض، لا أعرف كيف أتخلص منها . . ».

قالت وهى تجفف دموعها: «عندما تريد فستستطيع . . ».

رفع رأسه كشيطان شرس، وكأنما أفاق من حلم عجيب، وهتف: «إن ما أريده هو حقى فى الحياة . . أما الآخرة . . أما الحفرة التى تتحدثين عنها فلنرجئ ذلك إلى حينه . . ».

الفصل [٣]

هتف كنانة بن الربيع بزوجه صفية بنت حيى بن أخطب قائلاً: «صفية.. أين أنت؟؟».

وقدمت صفية شاحبة الوجه، حزينة العينين، لا يبدو على ثيابها أدنى أثر للأناقة أو الاهتمام، وخصلات شعرها تنفر من تحت شالها الأسود، معبرة عن الإهمال الزائد، ومع ذلك فإن هذا كله لم يستطع أن يطمس مسحة الجمال الرائق الجذاب التى تنطق بها ملامحها المتناسقة، بل لعلها بدت فى هذا الإطار المهمل، وكأنها أكثر جمالاً ووقاراً، ووقفت صفية مطأطئة الرأس، وهمست: «معذرة، كنت مشغولة ببعض شئون البيت..».

انفجرت فى غيظ: «ماذا جرى لك».

«.. أننى لا أطيق هذه المعاملة فلأكن جزءاً من شئون المنزل، إنك تتجاهلين أمرى وتكبدينني من الضيق والكدر، إننى أرفض هذه المعاملة وأنحى باللائمة على هذا السلوك الشائن».

تمتمت فى نبرة احتجاج: «الشائن؟؟».

- «أجل.. إنك لا تراعين حقوق الزوجية، ولا تعطيننى حقى من الرعاية والاهتمام، إن نسوة «خيبر» كلهن يتحدثن عن انطوائك المريب، وصمتك الزائد..».

قالت وقد تندت عيناها بالدموع: «انطوائى المريب؟؟ كيف تقول هذا الكلام، الجميع يعرفون مأساة أبى، فهل علىَّ لوم إن أنا انشغلت -على الرغم منى- بالحزن عليه؟؟».

صاح فى حدة: «وأنا؟؟».

- «أنت زوجى..».

- «هذا لا يكفى.. إن كأس المنايا دوار على كل الشفاه، كل ما فى الأمر أن أباك سبق إليه، ولم يكن وحده. كان معه المئات..».

- «ما كان أبى مثل كل الرجال..».

- «أعرف ذلك.. كان تفكيره يفوق الآلاف إخلاصًا وإصرارًا. وكان أول المناضلين عن مستقبل اليهود فى هذه الأرض، لقد حاز شرفًا لا يدانيه شرف، ولسوف نسير على هديه حتى الموت أو النصر.».

لم ترق لها هذه الوجهة من الحديث، ومع ذلك فقد قالت:

- «كفى ما كان».

- «ماذا تعنين؟؟» .

- «لم يعد هناك مسوغ لمزيد من الدماء» .

- «إنك تنطقين بكلمات خطيرة يا صفية ، أهو ما تعنينه أن أباك لم يكن على حق ، وأن مستقبل اليهود لم يعد يؤرقك . . » .

- «لكل وقت ملابساته . . » .

- «إنك تشردين بى إلى قضايا خطيرة ، إلى متاهات مرعبة ، لندع أمر محمد والحرب واليهود . . إنك فى هذه الأيام تهربين منى ، وتتحاشين اللقاء بى . . وتنامين وحدك . . إننى بدأت أشك فيما يربط بيننا من رباط مقدس . . مستحيل أن يكون السبب هو ما يعتمل فى قلبك من أحزان ، إننى لا أقل عنك حزنًا على ما أصابنا نحن اليهود من مصرع أبيك العظيم . إن هول الكارثة لم يأخذ بيدى إلى ظلام اليأس ، بل أشعل فى قلبى الجذوة الملتهبة . . جذوة الحقد ضد محمد والمسلمين من ورائه . . الحزن ليس معناه أن أتجاهل نداء الحياة والواجب» .

قالت فى ضراعة : «صدقنى يا «كنانة» لا حيلة لى فيما أفعل ، ولا سيطرة فىّ على مشاعرى ، إننى لا أستطيع أن أضع للحزن مواصفات ومعايير أو موازين دقيقة ، إن حزنى لا يعرف التعقل أو الدقة . . إنه طوفان عارم يشل إرادتى ،

ويغرقنى فى أمواجه الصاخبة، ويقذف بى هنا وهناك. إننى أتخبط يمنة ويسرة، لا أعرف لى قرارًا، ولا أرى شاطئًا للنجاة. . نحن فى أيام شقاء مريع. . إننى أستغرق فى النكبة وأتمثلها بكل أبعادها، ارحمنى يا «كنانة». . إننى عاجزة عن الثبات. . أبحث عن الصبر فلا أجده، وأتلمس اليقين فى مظانه، لكنى حائرة ممزقة، إننى أضرع إلى الله. . أتراه لا يستمع لندائى؟؟ أنا صادقة الرغبة فى النهوض والتماسك لكن قواى منهارة تمامًا. . ».

هب واقفًا واقترب منها، وأمسك بيدها الباردة، وقال وهو يرمق أهدابها المبللة بالدموع: «بالله عليك لا تقولى هذه الكلمات يا صفية. . إنها قاسية. . إنها أقسى علىّ من ضربات السيوف. . لم يزل فى الحياة بقية من أمل، ونحن لا نستطيع أن نسحق ما تبقى من أيامنا تحت معول الأحزان الهدام المدمر. . لو ولج الناس فى أحزانهم لانطفأ كل نور فى الحياة، ولتلطخ جبينها بالسواد الصافى. . هيا انفضى عن كاهلك ما يثقلها من هموم. . إن ميتة أبيك ميتة بطل لم يدخر وسعًا فى سبيل الحفاظ على شرفه ومبادئه، وهذه الميتة تبعث علىّ الفخر والسعادة. . ».

ثم تلعثم وطأطأ برأسه فى أسى وقال: «وأنا أحبك يا صفية. . أحبك لدرجة العبادة، ولا أستطيع أن أتحمل غيبتك عنى ساعات معدودة. . أنت حياتى وهنائى ووجودى فلا

تعذبينى بالصد، ولا تمزقى قلبى بتجاهلك لى. . ارحمى فؤادى المعذب. . ».

وشردت صفية إلى بعيد. . ذلك القمر الذى يدنو صوبها رويداً رويداً. . ثم يهبط إلى حجرها. .

- «فيم تفكرين يا صفية؟».

تداركت أمرها، وأفاقت من شرودها، وقلبها يدق فى عنف، وقالت متلعثمة: «وما قيمة الحياة التى يتهددها الفناء، وتحدق بها الأخطار من كل جانب؟؟».

- «لا تحملى همًا يا حبيبتى. . لدينا من الذهب ما يكفينا مئات السنين، هل نسيت يا صفية؟ إننى أمتلك كنز بنى النضير. . كمية ضخمة من الذهب. . أخفيها عن العيون. . لا يعرف أحد أين هى، إنها تكفل لنا العيش الرغد طوال حياتنا. . فإذا ما تأزم الموقف، وأطبق علينا الخطر استطعنا أن نحمل كنزنا ونهرب إلى أى مكان. . إن كل ما أفكر فيه هو أنت يا حبيبتى. إننى لا أفكر فى حرب محمد إلا من أجلك أنت. . ومن أجل أبيك. . إننى أحاول جاهداً أن أحفظ عليك كرامتك ودينك ومستقبل. . ».

وأخذ كنانة يسكب فى سمعها كميات الحب والغزل، ويغمرها بآيات صدقه ووفائه، ويعتذر لها عما بدر منه من

عنف أو قسوة فى ماضى الأيام، ويؤكد لها أن كل ما كان يقدم عليه، إنما كان انفجاراً عما يشعر به من تجاهلها له، وبرود عاطفتها نحوه، وهل هناك ما هو أشد حدبًا عليها، وتشبثًا بها، وحبًا لها من زوجها؟؟ والغريب أن هذا التوسل المتزايد، وهذه الاعترافات الذليلة لم تكن تزيدها إلا نفوراً منه، واستثقالاً لظله، وتبرمًا بحديثه.

- «لو كنت تحبنى حقًا يا «كنانة» لاحترمت أحزانى».

- «إننى أشفق عليك، وأريد أن أنسيك بعض ما تعانين من آلام، والحزن لا يمنع الناس من أن تأكل وتشرب وتنام وتمارس حياتها الزوجية.. الناس يموتون.. والأطفال يولدون.. والحروب تشتعل، والسلام ينشر ظلاله.. والحياة تمضى ياحبيبتى..».

وأفلتت منها كلمات خطيرة، قد يكون لها وقع الصاعقة لو أدرك معناها.. قالت: «ليست هذه هى القضية..».

رفع حاجبيه فى دهشة وقال: «ما هى القضية إذن؟».

إذا لم تكن مشاعره الطيبة نحوها ونحو أبيها، هى القضية، وإذا لم تكن أنشودة الحب التى يترنم بها، ومواساته الرقيقة التى يبذلها فى رفق هى القضية، فماذا تكون إذن؟؟

ورفع «كنانة» حاجبيه فى دهشة، وتنبهت حواسه، وأعطاها أذنًا صاغية، وأدركت هى ما تورطت فيه من تعليق فأسرعت قائلة: «القضية هى عجزى الشنيع عن مقاومة الضعف والحزن..».

قال وقد انجاب عن قلبه ما اعتوره من هواجس مخيفة: «طيبى نفسًا يا حبيبتى.. لسوف أبقى إلى جوارك محاولاً - بكل ما أوتيت من قوة- أن أخفف عنك، وأن أمسح دموعك الغالية، وأذهب عنك الأرق والوجوم..».

وصمت برهة، وهتف وقد أخذته العزّة: «ولسوف يأتى يوم أقدم إليك فيه أروع هدية تحلمين بها..».

قالت دون اكتراث: «كنزك المخبوء..؟؟».

قهقه فى مرح وقال: «لا.. إن كنزى ملك يمينك منذ الآن».

فشد انتباهًا إليه، فقالت: «أية هدية تقصد إذن؟؟».

قال وقد تصلبت ملامح وجهه: «رأس محمد».

خفق قلبها فى رعب، وصرخت وهى ترفع يديها: «ماذا؟؟».

قال وقطرات من عرق تلمع فوق جبينه: «إن ضربتنا هذه

المرة ستكون قوية حاسمة، ولن تكون هذه أول مرة يقتل فيها اليهود نبيًا لا يروق لهم . . وعندما يتحطم البناء الشامخ الذى حاول محمد أن يقيمه على مدار السنين . . فلسوف يسقط فى أيدينا . . عندئذ أجتر رأس محمد دون رحمة، أخذًا بثأر أبيك . . وسأحمل إليك هذا الرأس الغالى، وألقى به فى حجرك على حين غرة . . وستصرخين فى البداية مذعورة . . ثم نضحك . . ونملأ الآفاق مرحًا ونشيداً . . ونغنى على أشلاء المسلمين . . ».

ثم ابتلع ريقه، وأفاق من أحلامه الدامية الحمراء وقال: «أليست هذه أروع هدية تحلمين بها؟؟ ستكون العلاج الناجح لكل آلامك وأحزانك . . فماذا تقولين؟؟».

ألقت بجسدها المتعب على وسادة قريبة وهى تقول: «إن رأسى يدور، وعيناى لا تكادان تريان شيئًا . . إننى خائرة القوى متعبة . . وأبغض شىء إلى نفسى حديث الدماء . . ».

سدد إليها نظرات حائرة مستغربة، وبقى فى مكانه صامتًا.

الفصل [٤]

جلس نعيم بن مسعود -رجل غطفان الذى أسلم إبان أزمة الأحزاب، ومعه عمر بن الخطاب وسلمان الفارسى وأبو العاصى بن الربيع زوج زينب بنت الرسول، وأخذ الجميع يتجاذبون أطراف الحديث، ويتذاكرون ما كان من أمر اليهودى اللعين حيى بن أخطب الذى أخزاه الله، وكتب عليه العقاب الرادع، ويتحدثون عن دهاء نعيم بن مسعود، وما أقدم عليه من حيلة بارعة فى تفريق صفوف المعتدين، وإثارة الشكوك بينهم، وما أفاء الله على المسلمين يوم «قريظة» المشهود، وأخذوا ينظرون إلى المستقبل من خلال الأحداث العنيفة التى مرت، وما ينتظر أن تقدم عليه قريش أو يهود «خيبر»، وهم القوة الوحيدة التى ما فتئ يكمن فيها الخطر، وتهب من ناحيتها ريح الفتن والمؤامرات، وكلما جاء ذكر مكة اشتد انفعال عمر بن الخطاب، وهدرت مشاعره، ومع ذلك فقد كان عمر يكظم تلك الانفعالات والمشاعر، إنه يعتقد أن «المدينة» كانت خير

بديل «المكة» وفى المدينة وجد الرسول الحلفاء والأنصار، وأتيحت الفرصة لكلمات الله أن تعلو، ويتردد صداها القوى فى الآفاق، ألا وإن الوطن ليس مجرد أرض، ولكنه مبادئ تتحرك فوق هذه الأرض، وتنتصر وتتحول إلى واقع، وأهل المدينة بذلوا النفس والنفيس، والمال والولد، والدم والأرواح فى سبيل دعوة الله ومناصرة رسوله الكريم. . فإن كان ولابد للدين الجديد أن يعتز بأرض فليعتز بهذه البقعة الطيبة -المدينة- التى شهدت توافد المهاجرين ومعارك النصر فى «بدر» وعظمة الصبر والنهوض من الكبوة «فى أحد» ومنازلة المنافقين واليهود فى السر والعلن والصعود أمام زحف الأحزاب المخيف. . أية أحداث كبرى جرت على ثرى هذه المدينة العظيمة!! ومع كل ذلك فإن عمر بن الخطاب يشعر بحنين جارف إلى مكة، وعندما قال عمر: «ما أشد شوقى إلى ذلك البلد الطيب مكة!!».

قال سلمان الفارسى فى دهشة: «أتقول مكة. . إننى لا أكاد أصدق؟؟».

هتف عمر فى انفعال: «ميمونة تلك القرية التى بارك الله حولها، وجعل فيها البيت الحرام. .».

قال سلمان: «لكنك تعلم يا عمر أن أهلها آذوا رسول الله، ونكلوا بالمؤمنين الأوائل، ودبروا قتل محمد، وما برحوا

يحشدون الجيوش، وينفثون الحقد، ويفتحون صدورهم وبيوتهم للمتآمرين من اليهود والمنافقين والمشركين.

أردف عمر دون أن يزايله انفعاله: «إنها أرض الذكريات والأهل والأمل..».

- «الأمل يا عمر؟؟».

- «أجل يا سليمان.. الأمل العظيم، عندما يأذن الله بأن يفتح قلوب أهلها للخير، وترتفع فى سمائها راية الإسلام الخفاقة.. ألم يثنِ عليها القرآن ويشيد بذكرها، ويمجد بيتها الحرام.. إننى كثيراً ما أتخيل يا سليمان هذه البلدة فتحت أبوابها على مصراعيها وهتفت بنا: ادخلوها بسلام آمنين. هنالك الكعبة.. وهناك ستقام شعائر الحج الذى فرضه الله علينا، وهناك يلتقى المسلمون -بإذن الله- من شتى أنحاء الأرض يكبرون ويهللون ويترنمون بكلمات الله الخالدة.. ذلك هو الأمل.. ولهذا فأنا أحب تلك الأرض كما أحب المدينة.. قال أبو العاصى بن الربيع -وقد كان اللقاء فى بيته:

- «إن قلبى يميل لتأييد عمر بن الخطاب فيما يقول، ولقد سمعت رسول الله يتحدث عن شىء من هذا القبيل.. والحقيقة التى لا مراء فيها أن المهاجرين هنا يتحرقون شوقًا إلى أهليهم

وديارهم ومراتع صباهم فى مكة . . لعلهم كانوا يرون من العبث التفكير على هذا النحو من قبل، لكنهم الآن وقد منّ الله عليهم بالنصر، وخذل الأحزاب، وأخزى بنى قريظة، ورد المنافقين إلى جحورهم . . بعد كل ذلك أخذوا يفكرون بشجاعة . .

وانطلق نعيم بن مسعود قائلاً : «إن أبا سفيان ومن على شاكلته تصوروا أنهم أصحاب البيت الحرام . . ونسوا أنه بيت الله . . لا يستطيع واحد منهم مهما كان شأنه أن يدعى ملكيته . . » .

وهتف أبو العاصى ملوحًا : «الحقيقة أيها الرجال أن الناس فى مكة يرفضون منطق أبى سفيان وشيعته، ويرون أن من حق أى عربى أن يأتى البيت الحرام ويؤدى شعائره الدينية حسبما يروق له، وعباد بيت الله من قديم يختلفون فى معبوداتهم وشعائرهم، وكل يؤدى شعائره وبطريقته الخاصة . . علق عمر ابن الخطاب قائلاً فى سخرية : «لكن أبا سفيان وشيعته يعترفون بجميع أديان العرب ما عدا الإسلام . . ومن ثم فهو يرى أنه لا حق للمسلمين فى زيارة البيت . . » .

قال نعيم بن مسعود : «يجب أن تدركوا أيها الرجال أمرًا ذا بال، لقد كنت وثيق الصلة برجالات قريش وبأبى سفيان بالذات قبيل معركة الأحزاب، وكنت آتى مكة وأرى بعينى ما

يجرى فى دروبها وأتسمع لما يجول فى ندواتها . . إن لهم بينكم هنا إخوة وأبناء وآباء يحنون إليهم، ويشفقون عليهم، ويشتاقون للقائهم، لقد درجت مكة من قبل على حرية العقيدة . . كان فيها أتباع عيسى وموسى وعباد الأصنام . . ولم تخرج مكة من تقليدها العريق إلا عندما جاء محمد برسالته . . لقد مل الناس هناك الحقد والحرب وتحكم طبقة السادة الحاقدين فى مصائرهم . . إننى أرى فى نواحى مكة وبيوتها تمردًا على أبى سفيان . . بل هناك الكثيرون ممن يخفون إسلامهم . . قال عمر بن الخطاب: «لقد أصبت كبد الحقيقة يا نعيم . . ولست عندنا بمتهم . . » .

وضج الجميع بالضحك عند سماعهم لعبارة: «لست عندنا بمتهم» فهى نفس العبارة التى قالها اليهود، وقالتها قريش وغطفان لنعيم عندما ذهب إليهم ليوقع بهم فى تيه الخذلان والشك . . وابتسم نعيم وهو يقول: «الحرب خدعة . . وماذا كنت فاعلاً؟؟ أأترك الأحزاب ينكلون بالمسلمين، ويسمون على الناس بعقيدتهم الخاوية الفاسدة؟؟» .

وسادت فترة صمت قال أبو العاصى بعدها: «إن شعب مكة ينذر بالتمرد، والثورة . . وتصرفات سادتهم لا تعبر إلا عن مصالحهم الخاصة، ونفوذهم المهدد . . السادة فى مكة لم يقدموا لبلدهم مبدأ واضحًا مقنعًا . . لم يستطيعوا أن يعطوا جوابًا شافيًا

لتساؤلات الناس الحائرة عن قضايا حياتهم ودينهم الشائكة . . النظام فى مكة قد فشل . . الحرب لا يحشدون لها الحشود إلا لحماية قافلة تجارية ، أو أخذًا بثأر ، أو شفاء لحقد . . ومحمد ﷺ استطاع أن يؤدى الرسالة ويقدم الزاد الفكرى والروحى . . وأن ينهض دفاعًا عن المبادئ الواضحة العادلة . . » .

فهز نعيم بن مسعود رأسه قائلاً : «صدقت يا أبا العاصى . . لقد حاربت عدة معارك ضد الإسلام . . وجالست اليهود وزعماء قريش . . لم أكن مقتنعًا بشىء مما يقولون . . » .

وعلق سلمان الفارسى فى مرح : «ولست عندنا بمتهم . . » .

فضحك الجميع ثانية : وشاركهم نعيم ، الذى عاد يقول : «كنا جميعًا نفتقد الحافز . . نفتقد المبدأ القوى الذى يملأ القلب والروح والفكر . . صدقونى . . كان مثلى كمثل الذى يقبل على طعام . . أى طعام دون رغبة أو شهية . . يحرك فمه . . ويبتلع اللقمة . . ويملأ المعدة وكأنه يؤدى مهمة ثقيلة على نفسه . . » .

قال سلمان الفارسى فى احتجاج ملحوظ : «ولماذا لم تلقِ عن كاهلك وروحك هذه الحياة المقيتة . . » .

تفحص نعيم بن مسعود الحاضرين بنظرات حادة وقال : «أجيبوا أنتم عنى . . أجب يا عمر . . يا أبا العاصى . . » .

قال عمر : «كنت فى الجاهلية أقف صامتًا بعض الوقت أمام الأمور المصيرية الحاسمة، وخاصة تلك الأمور التى تتعلق بكيان الوطن وحكومته».

قال سلمان : «أنت لم تقف صامتًا . . بل شاركت فى إيذاء بعض من أسلم . . ».

أشاح عمر بيده قائلاً، وقد بدا الضيق على وجهه : «بالله لا تذكر هذه الأيام السيئة . . لقد كنت فى حيرة قاتلة ترهق أعصابى، وتسلبنى النوم والراحة . . الجديد دائمًا مثير ومحير ومربك . . ومع ذلك فأنا لم أتأخر عن اللحاق بركب القافلة المؤمنة . . ولله فى خلقه شئون . . ».

واستدار سلمان إلى أبى العاصى قائلاً : «وأنت؟؟».

- «كان غباء منى . . تلك هى الحقيقة . . كنت أشعر أن هناك حاجزًا من الكبرياء الكاذبة يسد طريقى . . لم أمارس قلقًا فكريًا حقيقيًا فى البداية . . وعندما رغبت فى الإسلام لم أشأ أن أقدم على هذه الخطوة قبل سداد ديونى حتى لا يقال لقد هرب صهر رسول الله وأكل أموال الناس . . ».

وابتلع ريقه، ثم قال : «الحقيقة . . إنها كانت فرصة رائعة لأرى زوجتى تقدم لى المثل الأعلى فى الوفاء، والإخلاص والصبر . . ».

قال سلمان: «لقد كان فى بيتك قبس من نور النبوة وتغشى عنه..».

فاستدرك أبو العاصى قائلاً: «الإسلام يجبُّ ما قبله، ويمسح الخطايا التى سبقته..».

واستدار سلمان إليهم، وأشرق وجهه بالنور والحب، وانجلت أهدابه عن نظرة فياضة بالشوق والحنين والإيمان، وأخذ يقول فى شفافية بهية: «أما أنا فقد أنزل الله فى قلبى توقًا إلى الحقيقة فى وقت مبكر.. فتركت فارس وسرت من بلد إلى بلد أبحث عن نور الله.. لقد قيل لى: إن نبيًا على وشك أن يأتى إلى الناس فى هذا الزمان.. تحدثوا عنه وعن أطراف من رسالته، وعن الأرض التى يخرج منها.. وظللت أضرب فى فجاج الأرض بحثًا وتنقيبًا.. يا لها من لذة رائعة؟! أسأل الناس عن أخباره.. أيها السقاة.. أبعدوا كئوسكم إنها لا تروى ظمئى.. أيها الندمان وفروا أحاديثكم فما بى شوق إليها يا من تقدمون لى أطايب الزاد إننى زاهد فى طعامكم.. يا من تنطقون بالحكمة إن حكمتكم -وكذلك حكمة فارس والهند والرهبان- لم تشبع روحى أو تملأ قلبى.. أيها الشعراء لقد مللت أنغامكم وموسيقاكم.. يا أبطال الحرب.. أنتم تضربون وتسفكون الدم دونما غاية أصيلة، يا حملة الكتب والأقلام يا فلاسفة هذا الزمان. يا هؤلاء جميعًا. ليس

لديكم ما أبحث عنه . . إننى سأستأنف المسير بحثًا عن نور الله . . عن نبى هذا الزمان . . وهكذا أيها الإخوة عندما قابلت محمدًا حدثت لأول وهلة أمور عجيبة . . نظرت إلى وجهه فاستراحت روحى . . وشعرت باطمئنان غريب . . وسمعت كلماته فطفت على كل ما عداها من أوهام الحكماء والشعراء والكهان والفلاسفة . . معذرة أيها الإخوة . . لم يقف فى طريقى نظام قائم عتيد، ولم تحجب الضوء عن كبرياء كاذبة . . لقد حطمت هذه الأصنام جميعًا قبل أن آتى محمدًا . . أتيته بعد أن نظفت قلبى من الأوهام والأحكام المسبقة . . وعندما سمعت كلماته امتلأت بها روحى، وعمر بها فكرى . . ومن كلماته استلهمت العزة والنظام . . استلهمت المبدأ الذى أعطى لحياتى نسقًا فريدًا، ومعنى جديدًا».

اغرورقت عينا عمر بالدموع، وقال فى انبهار: «صدق رسول الله حين قال: سلمان منا أهل البيت».

كان الحاضرون يستعمون إليه فى شغف: ويهيمون معه فى الآفاق الجميلة التى توحى بها كلماته المؤمنة المخلصة، تلك الكلمات التى أسرعت بخفقات قلوبهم، ما أعظم أن يطهر الإنسان قلبه من الهواجس والأوهام، وينطلق باحثًا عن الحقيقة الحية . . إنه لأمر جد عسير يحتاج إلى طاقة غير عادية قد تفوق طاقة البشر، هذا ما كان عمر يحدث به نفسه وهو

يستمع إلى كلمات سلمان الفارسى «ما أوسع البون بين رجل يقدم إليه النور والهداية فيرفضهما ويشرع سيفه فى وجهيهما، ورجل يجرى ويلهث بحثًا عن النور. ويضحى فى سبيله، ويتكبد المشاق، ويترك حياة الدعة والرغد والمتعة!!».

وتمتم نعيم بن مسعود: «أليس عجيبًا أن يأتى رجل من فارس ليعتنق الإسلام على يدى نبى لم يكن لديه سابق معرفة به، بينما عم رسول الله يكيد لابن أخيه ويحاول قتله، وهو يعلم جيدًا أن محمدًا صادق الوعد أمين، وأنه طاهر حصيف نظيف فى طفولته وشبابه وكهولته؟؟ قال أبو العاصى:

- «والله يعلم وأنتم لا تعلمون..».

وأدرك نعيم بن مسعود ما ران عليهم من انفعال وإثارة، فمال على عمر قائلاً: «علام تبكى؟؟».

قال عمر وهو يجفف دموعه: «على ما مضى من جهالة وحماقة..».

وأراد نعيم أن يثير المرح والدعابة من جديد فقال: «صدقت ولست عندنا بمتهم..».

فضحك الرجال، ثم عادوا يتحدثون عن مكة، وعن ضرورة تأدية فريضة الحج والطواف بالكعبة، ويطنبون فى الحديث عن مشاعر المهاجرين الذين يكتوون بنار الفراق،

ويؤرقـهم الحنين والشـوق إلى مـوطن الأهل والأحـبـاب والذكريات ومقر بيت الله الحرام . .

وفى صبيحة اليوم التالى كان المسلمون مجتمعين للصلاة فى مسجد رسول الله ﷺ، وبعد أداء الصلاة أنبأهم رسول الله برؤياه الصادقة : «إنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون . . فما كاد الرسول يعلن هذا الأمر، حتى علا صوت المصلين بحمد الله وتكبيره داخل المسجد، وأشرقت ملامح المصلين بالفرحة الغامرة، ولمعت فى نظراتهم أمارات السعادة والبهجة، إن كلمات الرسول لا يعتريها شك، ووعده لا يلحقه نكث، ودخول مكة -على أية صورة من الصور- أمر تهتز له النفوس وتهفو إليه الأرواح، إنه حدث ضخم لا يمكن إلا أن يتقبل بمزيد من الاهتمام والفرح والحماس المنقطع النظير .

كان عبد الله بن أبى يحضر الصلاة فى ذلك اليوم، على مقربة من نعيم بن مسعود، وذهل شيخ الحاقدين وهو يستمع إلى كلمات الرسول، وغمغم بينه وبين نفسه : «هذا جنون مطبق . . هل يتصور محمد أن يفتح له أبو سفيان أبواب مكة هكذا ببساطة، أتراه الغرور الذى دفع المسلمين لكى يأخذوا رؤيا الرسول مأخذ الجد؟؟ من هم حتى يقتحموا حرمة مكة، ويطوفوا بالبيت العتيق؟؟وأين سيوف أبى سفيان وعكرمة

وخالد بن الوليد؟؟ إن دون ذلك دماء وأهوالاً ومعارك وحشية. . إن هذا الغرور سيضع النهاية لوهم محمد وأتباعه. . أه لقد أغراهم انسحاب الأحزاب واعتبروه نصراً كبيراً. . إنه لا يعتبر نصراً حققه المسلمون بقدر ما هو فساد فى خطة الأحزاب، وسوء تصرف منهم فى تخطيطهم وإدارتهم للمعركة. . والقضاء على بنى قريظة مجرد سوء حظ. . لا أكثر. . ».

ثم عاد يخاطب نفسه: «آه. . لو استطاع محمد أن يفعلها ويصل إلى بغيته، فستكون كارثة كبرى -ستقول العرب، إن محمداً يكرم البيت العتيق. . وسيكسب إلى صفه قلوب الطيبين والسذج من أهل مكة.

وقد يستطيع محمد -هذا الحريص الذكى- أن يهيئ لنفسه جواً من الثقة والهدوء يمكن به لنفسه، ويقهر به أعداءه. . ».

ومال عبد الله بن أبى على أذن ابن مسعود: «ألا ترى أننا نتعجل الأمر، ونعرض أنفسنا للخطر بهذا التصرف يا ابن مسعود؟؟».

نظر إليه نعيم فى ضيق، وقال فى حدة: «وهل بعد رأى رسول الله رأى؟؟ إنها رؤيا صادقة أشبه ما تكون بالوحى. . ».

ارتسمت على ثغره ابتسامة صفراء وقال: «إنها ليست وحيًا

على أى حال، وفى يوم «أحد» أطاع محمد الصبية وعصانى ماذا كانت النتيجة؟؟؟ الهزيمة . .

اكفهر وجه نعيم وقال: «سأكظم غيظى . . فنحن فى المسجد . . ولن أعطيك الفرصة لإيقاظ فتنة جديدة . . ».

- «إننى لا أطعن يا ابن مسعود، ولكنى أبدى رأيًا أراه، والرسول لا يمانع فى ذلك . . ». قال ابن مسعود: «لو أطاع الرسول المنافقين ودعاة الهزيمة يوم «الأحزاب» لسلم نفسه ورجاله للكفار . . أتذكر يا عبد الله بن أبى؟؟؟».

- «إنك حديث العهد بالإسلام وحماسك يطغى على عقلك . . والله لئن قدمتم إلى مكة فى موسم الحج هذا، للقيتم شرًا وهوانًا ما بعده هوان . . الغرور مركب خطر . ومنزلق من مزالق التهلكة . . هذا رأيى، ولكم أريكم . . ».

واستطارت الأنباء فى أنحاء المدينة، المسلمون سيخرجون للحج هذا العام، ولم يكن أحد يدرى هل ينوى الرسول أن يدخل مكة عنوة، أو يدخلها مسالمًا لتأدية الشعائر والعودة بسلام.

□□□

الفصل [٥]

عاد المهاجرون إلى بيوتهم فى هذا اليوم المشهود، وقد فاضت نفوسهم بشراً وسعادة، النساء مبتهجات بدعوة الرسول للخروج إلى بيت الله الحرام، والرجال تخفق قلوبهم للغد الباسم، وهل هناك أروع من الطواف ببيت الله الحرام، والوقوف بعرفات، ومناجاة بارئ الأرض والسماء؟؟ وهل هناك أحلى من لقاء الأهل بعد طول فراق، وكثير عناء وحرمان؟؟ ما ألذ أن يعود المهاجر إلى أرضه يهتف بالذكريات ويقارن بين الماضى والحاضر، بين الجاهلية والإسلام، والضعة والعزة، والضعف والقوة.. لسوف يقف أهل مكة يرقبون هؤلاء المهاجرين الذين خرجوا ذات يوم مظلومين مقهورين، تطاردهم الاضطهادات والسخريات سيرقبونهم وقد ذاعت قصة الإيمان العظيم، وانتشرت أنباء صمودهم وتضحياتهم وانتصاراتهم فى كل الأنحاء.. سيرى أهل مكة معجزة تتحقق.. سيلمسون عن قرب أصالة الحق وقوته وصبره على

المشاق وسيشهدون كيف تنتصر القلة المؤمنة، وكيف تحول الضعف إلى قوة بفضل الله، وكيف استطاعت مبادئ الدعوة الإسلامية أن تخلق هذا التجمع المتميز بأخلاقه وسلوكه ونضاله الشريف.. هذا التجمع تحت راية الحق الخالد.

ما أعذبها من رحلة بعد غزوات متصلة.. وسرايا مترادفة، ومعارك دامية!! لقد آن الأوان بعد أن قبع اليهود فى جحورهم موتورين.. واختفى المنافقون وراء الجدران يعضون أناملهم من الغيظ، ويئست مكة وغطفان من طول المناوئة.. آن الأوان بعد ذلك كله أن يخرج المهاجرون والأنصار إلى حج بيت الله للعبادة والزيارة والترويح عن النفس.

وكم كانت دهشة أهل المدينة حينما علموا أن الرسول قد بعث برسله إلى القبائل المجاورة لكى يخرجوا معه حاجين إلى البيت الحرام، وهم على ما هم عليه من الشرك، وعدم الإيمان بالرسول.. البيت بيت الله.. فليخرج العرب ليؤدوا الفريضة كل حسب معتقداته ودينه، ولا شك أن هذه السماحة سوف تدخل الاطمئنان على نفوس أعداء الدعوة، وستعطى قريشًا الدليل القاطع على أن محمدًا قد خرج لتأدية الشعائر، ولم يخرج للحرب أو الغدر.

وضرب عبد الله بن أبى كفًا بكف وقال لزوجه: «إن محمدًا

بتصرفه هذا سيجر على المدينة الوبال . . ستتعرض أرضنا وبيوتنا وأولادنا للخطر بسببه . . هذه الأرض التى عشنا عليها مئات السنين أحراراً شرفاء، يأتى محمد اليوم ليوجه إليها أنظار قريش وتوابعها كى يطمعوا فينا، ويفكروا فى استعبادنا وغزونا».

قالت زوجه فى دهشة: «إنك تقول كلامًا غريبًا لم أسمع بمثله قط . . ».

- «لأنك غبية مثل عامة الناس . . ».

- «كيف؟؟».

- «لسوف تنتفض قريش ثائرة عندما تعلم بنية محمد . . ولكى تدفع عن نفسها الشر والعار فستسرع بالتأهب للحرب ومداهمة بلدنا الطيب هذا . . أيدخل محمد فى وضح النهار ويجوب شوارع مكة ليراه أولئك الذين ما زالوا يندبون قتلاهم فى يوم «بدر» و«أحد» وغيرهما من المعارك؟؟».

«أتتصورين ذلك»؟

قالت زوجه: «أمرك جد غريب يا عبد الله . . لقد استشهد من المسلمين عدد كبير، وقتل من المشركين كذلك عدد كبير . . كلا الجانبين ذاق مرارة الحزن . . هذا أمر لا يجب أن يجرنا إلى جدل وما قتلاهم بأشرف من قتلانا ولا أعز، وأكرم . . ».

وابتلعت ريقها، ثم استطردت قائلة: «وحرية الحج مكفولة للجميع.. على هذا درج العرب من قديم الزمن.. وفى الأشهر الحرم لا يستطيع مخلوق أن يرفع سيفًا ليسفك دمًا..».

قهقه فى سخرية وقال: «وما دام الأمر بسيطًا هكذا فلماذا لم يفكر محمد قبل ذلك خلال السنوات الست الماضية فى الحج؟؟».

ولما لم تجب زوجه قال: «تكلمى أيتها اللسنة الفطنة.. لماذا لم يحج وقد حول القبلة التى كان عليها إلى البيت الحرام، ونزلت آيات القرآن تمجد هذا البيت وتكرمه؟؟».

ولما ظلت صامتة قال: «أنا أجيبك.. إن حالة الحرب كانت محتدمة وما زالت.. ولا يمكن أن يأمن المسلمون لقريش ولا يمكن أن تثق قريش بصدق نوايا المسلمين».

قالت فى ثقة: «المسلمون لا يغدرون..».

لوح بيده فى غضب وقال: «أنت تتكلمين بمنطق الأنثى الساذجة التى لا تتعمق الأمور..».

هتفت غاضبة: «الناس جميعًا فى نظرك لا يحسنون التفكير والمسلمون دائمًا حسبما تعتقد يخطئون، ولا تكاد تمر حادثة إلا وتلتمس للكفار ألف عذر وعذر.. إن قلبك دائمًا معهم..».

- «بل مع الحق يا جاهلة . . » .

قالت محتدة وهى تدرك أن كلماتها تثير غيظه وضيقه :

- «ما يقوله محمد هو الحق» .

رفع يده، وفتح فمه فى اشمئزاز وقال: «تطلبين منى أن ألغى عقلى . . وأشل تفكيرى؟؟ لا . . يا زوجتى . . إن محمداً بشر . . » .

قاطعته قائلة : «ونبى . . لا تنسَ ذلك . . وهو يحمل إلينا كلمات الوحى . . كلمات الله . . وحذار أن تنقض كلمات الله أو تنقدها . . إن العقل لا يستطيع أن يتحدى خالقه، أو يرى ما هو أصوب دائمًا» . .

- «ومنطقك يا امرأة على ما فيه من وضوح وقوة -يحمل فى طياته أبلغ الخطر . . » .

- «كيف؟» .

- «ليس كل ما يقوله أو يفعله محمد وحيًا . . هناك أشياء يفعلها كبشر . . وأشياء يفعلها كنبى . . والفرق بين الحالين كبير . . أخطأ محمد يوم خرج لملاقاة الأعداء يوم «أحد» وكان الأفضل أن يبقى . . لقد كان رأيه كذلك فى البداية . . لكنه انصاع لرأى المتحمسين . . من الشباب الأغرار . . لم يكن تصرفه وحيًا من السماء وإنما اجتهاد بشر . . أليس كذلك؟؟» .

قالت فى عناد: «لم يخطئ محمد.. ولا أريد أن تذكر كلمة الخطأ إلى جوار اسمه الطاهر.. كان الخطأ خطأ الرماة الذين عصوا أمره، وتركوا موقعهم جريًا وراء الغنائم. وكان كل ما حدث ابتلاء من الله، وتجربة يستفاد منها..».

وصمتت برهة، ثم قالت فى تلعثم: «والخطأ الآخر هو خطؤك أنت..».

اشرأب بعنقه مستفسراً: «كيف؟؟».

- «ألم تنسحب برجالك فى أدق الظروف وأحرجها؟؟».

هز رأسه قائلاً: «وما كنت لأشارك فى أجر يرفضه عقلى.. أأسلم نفسى للموت وأنا على بينة من فساد تصرف المسلمين وخطئهم..».

- «لكنهم انتصروا فى بداية المعركة..».

- «العبرة بالنتيجة أيتها العنيدة المتحيزة..».

- «النتيجة -برغم التضحيات -كانت خيراً وبركة.. ألم يخرج محمد فى اليوم التالى ورجاله لمواجهة أبى سفيان؟؟ ألم تهرب قريش إلى مكة وترهب العودة إلى لقائه؟؟ ألم يطهر المدينة من اليهود، ويؤدب القبائل الغدرة؟؟ ألم يكثر عدد المؤمنين بالله ودعوة رسوله؟؟ أى نصر أروع من ذلك؟؟».

واشتد حنق عبد الله بن أبى حينما تكلمت عن تطهير المدينة من اليهود، حلفائه الأقدمين، وعادت به الذكريات إلى الماضى البعيد. . إلى أيام الحرب الضروس بين الأوس والخزرج. لقد انحاز بعض اليهود للأوس، ومن ثم حاقت الهزيمة بالخزرج قوم عبد الله بن أبى، ووقع عبد الله فى أيدى أعدائه، وكانت سيوف الأوس تمزقه شر ممزق، لكن اليهود أنقذوه، أنقذوا حياته الغالية، وحياة أسرته. . هل ينسى هذه اليد البيضاء اليهود؟؟ منذ ذلك الوقت وهو يحمل لهم الود المكين، ويرتبط معهم بأوثق العهود؟؟ ويقف إلى جوارهم، ويمكن لنفوذهم وسلطانهم، وسيطرتهم التجارية حتى وثقوا به أشد الثقة، واعتبروه واحداً منهم، ويوم أن فكرت المدينة فى التفاهم والوئام، واختيار رجل يتوجونه ملكًا عليها، لم يجد اليهود رجلاً يوثق به غير حليفهم وصنيعتهم عبد الله بن أبي، لكن «الغريب» المهاجر، القادم من مكة. . محمد. . قد أضاع كل شيء. . أصبح السيد المطاع. . أذل اليهود. . أفسد مخططاتهم وركل التاج الجديد بقدمه قبل أن يوضع على رأس سيد الخزرج. . وسدد عبد الله على زوجه نظرات حادة قاسية وقال: «اليهود هم الذين صانوا عرضك، وأنقذوا حياة زوجك. . ألا تذكرين؟؟».

واجهت نظراته بحزم وقالت: «هل نسيت يا عبد الله؟؟ لقد

تقاضوا الثمن أولاً . . ألم يكن لديك رهائن من شبابهم لضرب أعناقهم إذا ما غدر آباؤهم؟؟ ماذا جرى؟؟ خان اليهود عهودهم مع الخزرج، وانحازوا للأوس مضحين بالرهائن وقال قائلهم: ما هي إلا ضجعة من النساء تنجب بعدها غير هؤلاء الشباب . . أما أنت يا عبد الله فقد بادرت برد الرهائن إليهم دون أن يصيبهم سوء . . فكان أن حفظوا لك حياتك . . ثم . . ألم تتوسط لدى محمد لإنقاذ بني النضير؟؟ واحدة بواحدة . . إن اليهود لا يسدون معروفًا . . دائمًا يتقاضون الثمن . . ودائمًا ينظرون إلى الأمور نظرتهم إلى الصفقات التجارية . . ».

هز رأسه قائلاً: «أنت فى واد . . وأنا واد آخر . . ولن نلتقي ها نحن فى بيت واحد، وتحت سقف واحد، لكن ما بيننا بعد المشرق عن المغرب . . وهكذا يفعل محمد بأفراد الأسرة الواحدة».

- «نستطيع أن نلتقي إذا أردت . . ».

- «كيف؟؟».

- «أنت تعرف؟؟».

- «اذهبي عني . . فقد مللت حديثك . . ».

- «بل تضيق ذرعًا بكلمة الحق.. . ».

رفع إليها وجهًا أشيبًا مستغربًا وقال: «أأنت التي تأخذ بيدي إلى طريق الصواب.. ألا لعنة الله على هذا الزمان المشئوم الذي تخرج فيه المرأة عن رأي زوجها، وتتبع البريق الذي يخدع الحمقى والجهلاء..».

- «دائمًا تعرض برسول الله تعريضًا جارحًا.. إن دعوته ليست بالبريق الخادع».

أمسك بكتفها ورجها فى عنف قائلاً: «اسكتي وإلا حطمت جمجمتك..».

- «افعل ما شئت فما أنا بالتي تسمع ذلك التجريح دون أن ترد عليه.. يكفى أنني أسترك، وأحفظ سرك، وأبقي على ما بيننا من ود قديم..».

قهقه ساخراً ودفعها إلى الوراء قائلاً: «من أنت؟؟».

- «امرأة مسلمة..».

- «أنت حشرة..».

أنفضت رأسها فى أسى، ولم تجب، وأخذ يقول: «أي سر تحفظين؟؟ لقد أصبح اسمى على كل لسان.. وأصبحت قصتي آيات فى القرآن يتلوها المصلون فى المساجد.. مع كل صلاة.. لم يعد عدائى قاصراً على

محمد وصحبه . . بل أصبح عدائى لله هكذا صورونى وأنا المسلم مثلهم وكل جريمتى أن لى رأيًا مخالفًا فى بعض الأمور . . » .

قالت وهى ترجف : «أتؤمن بما تزعم؟؟» .

- «أهناك غير ذلك؟؟» .

- «إنك تظل تردد هذه الكلمات المخادعة . . لكنك بطول تكرارها وترديدها صدقتها . . لست صاحب رأى، ولكنك تكره محمداً وتحقد عليه، تذكر مجدك المنهار وانكشاف أمرك، وتبرم الناس بمسلكك فتمتلئ نفسك ثورة عنيفة تطمس كل المعانى النبيلة فيك كإنسان . . تلك هى الحقيقة باختصار . . وهل نسيت؟؟ ألم تصرح أنت بذلك ذات يوم؟؟» وثب نحوها كنمر مفترس على الرغم مما يعانيه من إرهاق وحزن، وأطبق على عنقها فى غيظ . . حاولت جاهدة أن تتخلص منه فلم تستطع وسرت الزرقة فى وجهها المغضن الشاحب، وجحظت عيناها فى ضراعة، وتدلى ذراعها فى عجز . . واستسلمت للمصير . .

لكن صوتًا أتاها، وكأنه يهتف من بعيد . .

- «أماه . . آه . . » .

أفاق الشيخ من جنونه، وترك زوجه الذاهلة تلهث

وتستغرب ما جرى، فسعلت ومسحت عن عينيها ووجهها وعنقها، وتمالكت أعصابها وصاحت بعد حين: «ولدى عبد الله.. إنني قادمة إليك.. مرحبًا بك..».

وكان مجيء ولدها عبد الله بن عبد الله بن أبي إيذانًا بانصرافها عما كان يحتدم من نقاش، ونجاة لها من يد الوحش الذي لا يرعى رحمة ولا ذمة..».

جلست إلى جوار ولدها وصدرها يعلو ويهبط، وغير قليل من الارتباك يخالط حركاتها ونبراتها، ولم يخف ذلك على عبد الله الذي قال: «ماذا بك يا أمى؟؟».

قالت وهى تغتصب ضحكات مصطدمة: «بارك الله فى عمرك ياولدى.. ألا ترى أن السن قد تقدمت بى وفعلت الأفاعيل، وفى البيت كثير من الأمور التى لابد من الإشراف عليها بنفسي..».

وعادت تمسح على فمها ووجهها وتقول: «ومع الشيخوخة يا ولدى تتسلل الأمراض إلى البدن، وتضعف القوى..» وكم كانت دهشتها عندما وجدت زوجها يخرج من حجرته، وعلى فمه ابتسامة عريضة، وكأن شيئًا لم يحدث، والغريب أنه يقدم نحوهما ويصافح ولده عبد الله، ويقول: «رحم الله الشاعر العربى القديم حينما قال عن الشيب:

ألقى عـــصــاة وأرخى من عـــمــامــتــه

وقال: «ضيف» فقلت: «الشيب»؟ قال: أجل

فــقلت: أخطأت دار الحى قــال: «ولـم؟؟

مـــضت لك الأربعـــون التمّ»، ثم نزل

فــمــا شــجــيت بشىء مــا شــجــيت به

كـــأنما أعـــتم منه مـــفـــرقى بجــبل

وعلق الأب مــســتطـردًا: «وأمك يا عـبـد الله قـد تخطت الأربعين منذ زمن بعيد..».

وأخذت المسكينة ترى زوجها وهو يمازح ولده، ويجوب به مناحي الحـديث، وينتـقل به من مـوضـوع إلى آخـر، فلم تتمالك نفسها أن هتفت أن يسمعها: «منافق».

الفصل [٦]

وضع كفه اليمنى فوق حاجبيه مبسوطة ليتقى ضوء الشمس القوى، ونظر إلى بعيد، هناك على بعد أميال تقبع «خيبر»، وامتطى ناقته وحثها على السير، كان يمشى وحده، لكنه يشعر بضعف بالغ، وأسى مكتوم، وسمع صوتًا من خلفه يهتف به: «إلى أين يا عبد الله بن أبى؟؟».

التفت خلفه فى ازدراء: ورمى محدثه بنظرة عاتبة، لماذا يصر على التدخل فى شأنه. آه.. إن عيون محمد تنبث فى كل مكان، إذا تكلم أو مضى لبعض شأنه لاحقته العيون والاستفسارات.. إنه حصار سمج مميت، لكن عبد الله بن أبى تمالك أعصابه ورد قائلاً فى سخرية: «رحلة إلى الله..».

وتركه وانطلق بناقته التى تسرع الخطو نحو «خيبر»، وخيبر غنية بالذهب والزرع والضرع وفيها الرجال الأشداء المغاوير، وفيها الحصون المنيعة والسلاح الوفير وفيها سلام ابن مشكم القائد الهمام، وفيها «كنانة بن الربيع» الزعيم

اليهودى الثائر زوج صفية بنت حيى بن أخطب، أجل هناك الحقد العظيم المدمر، وفى قلوب الرجال رغبة عارمة إلى الثأر. . الثأر لبنى قينقاع والنضير وقريظة. . ولكعب بن الأشرف وحيى بن أخطب وكعب بن أسد وغيرهم. . هؤلاء الأصدقاء الأوفياء الذين ضحوا بكل شىء. ولم يهدأ لهم جفن، أو يطمئن لهم قلب، إزاء الصراع مع محمد، وظلوا أوفياء للحقد العظيم حتى لاقوا حتفهم. . فى «خيبر» يا عبد الله بن أبى تجد البيئة الصالحة لدعوتك، وتجد العقول المفكرة القادرة على استيعاب آرائك واستقراءاتك للأحداث المقبلة.

لم تزل خيبر أرض الأول، وقاعدة الانطلاق لتدمير محمد وهدم البناء الصلد الذى أقامه ووقف فوقه يكبر ويهلل، ويدعو الناس للانضواء تحت لوائه، وتذكر عبد الله فجأة ما قالته له زوجه بالأمس القريب: «هناك فى الصحراء المترامية لكل إنسان حفرة ضيقة» لشد ما يؤلمه أن يستمع لهذه الكلمات. . إنه متشبث بالحياة أشد التشبث، يكره أن يموت، أيموت محطم النفس والروح مهزومًا؟؟ أتذهب كل الجهود التى بذلها فى حياته هباء؟؟ ألا إن ضربة الموت قاصمة لا نجاة منها ولا مهرب، وهذا ما يحزنه. . حفرة ضيقة يطوى فيها جسده. . ثم تمضى الأيام وهو فى صمته البارد المتعفن ومحمد

يصول ويجول، ويحشد البشر تحت لوائه، ويتردد اسمه فى الآفاق، ويمر الناس على قبرى أنا، فيبصقون ويهتفون: «لعنة الله عليك يا ابن أبى. ويلحقنى العار حيًا أو ميتًا..».

وأخذ عبد الله يلهب ناقته بعصاه فى انفعال شرس، لكأنه يريد أن يسبق الأحداث والأيام، يجب أن يسبق الموت ويتحدى الضعف والشيخوخة والفشل، والإصرار والمغامرة تصنعان الرجال، وهو يشعر -برغم ضعفه وشيخوخته- أنه أقوى من الموت، وأقوى من الفشل، وتذكر كلمات زوجه وهو يعد راحلته للسفر «إلى أين تذهب يا عبد الله؟؟ إنك لم تعد تقوى على أعباء السفر ووعثائه» فقهقه فى فظاظة، وأخذ يحدث نفسه: «لم أزل قادرًا على السير، واحتمال أهوال المعارك، إن بى طاقة من الغيظ تستطيع أن تلهب عزائم الألوف من الرجال.. إننى جيش بأسره.. وغدًا تعرف زوجتى.. ويعرف محمد من أكون.. لقد استطاع محمد أن يلهب خيال الدهماء بأحاديث عذبة عن الجنة والنعيم، فتسابقوا إلى الموت فى جنون.. هكذا الناس دائمًا تحركهم عواطفهم، ويغريهم زيف المنى والأحلام.. الحقيقة المرة لا يستسيغها أحد، لابد أن تقدم إليهم فى إطار من الخرافة والشعر والإثارة..».

وأدرك أنه يفترى على محمد ويظلمه، إن محمدًا فى الحقيقة لا يزيف ولا يخدع، ومحمد على الرغم من روعة بيانه،

وحديثه، وبلاغة منطقه على الرغم من كل ذلك فإن كلماته تتفق مع العقل.. وهل فى الإمكان أن يتسابق الناس خلف عبارات طنانة، وخرافات منمقة ويبذلوا أرواحهم فى سبيلها؟؟

وسرعان ما تذكر عبد الله أن هذا المنحى من التفكير، سيبذر فى نفسه التردد والشك، وسيضعف من عزيمته، ويوهن من إصراره وعناده، فاستبعد بسرعة تلك الأفكار الخطرة، إنه يخاف على نفسه من نفسه.

وبلغ عبد الله بن أبى «خيبر»، كان فى استقباله «سلام بن مشكم» قائد خيبر، وكنانة بن الربيع، وعدد آخر من زعماء اليهود، فاستقبلوه بحفاوة بالغة، وعناق مؤثر، وعبارات ترحيب مألوفة، وتمتم عبد الله فى انفعال: «أرقتنى الدماء التى سفكها محمد ظلماً، وآلمنى غدر قريش.. إن عويل الأبرياء من بنى قريظة ما زال يطن فى أذنى، لكن الذى يخفف عن أساى هو أننى أرى أمامى رجالاً..».

ثم قال: «هل تسلمتم رسالتى؟؟».

- «بالطبع، ولهذا وجدتنا فى انتظارك.. كنا نترقب قدومك على أحر من الجمر..» وكان اللقاء فى بيت «سلام بن مشكم» حيث التقى عبد الله فى المساء بعدد من زعماء خيبر يتدارسون الأمر، ويعدون له عدته، وفى رأس كل منهم

ينتصب شبح محمد كبيرًا مسيطرًا مهيبًا، لا يستطيع أحدهم أن يبعده عن ذهنه أو ينساه لحظة، وابتدرهم عبد الله قائلاً: «الأيام تسرع الخطى، والزمن في صالحه».

قال كنانة: «ونحن نقضي النهار، وجانبًا كبيرًا من الليل لا نفكر إلا فيه.. محمد».

قال عبد الله: «إنه يعتزم المسير إلى مكة..».

قال سلام بن مشكم: «إنه يسير إلى حتفه بظلفة، لقد بلغنا نبأ ذلك فطربنا له، وخاصة بعد أن تأكد لنا أن قريشًا لن تدعه يدخل مكة، فيلحقهم العار والشنار، والأهم من هذا كله أن قريشًا قد لبست لبوس الحرب، وتنادوا السلاح وأقسموا ألا يدخل عليهم محمد.. ومحمد في الوقت نفسه مصر على الدخول.. ما معنى ذلك أيها الرجال؟؟ معناه الصدام الأكيد.. الغرور سيدفع المسلمين إلى الاعتصام بسيوفهم، وفي هذا الفناء الكامل لهم.. وخاصة لو تدبرنا أمرنا، وطعناه من الخلف، وداهمنا المدينة في غيبته..».

ابتسم عبد الله في ثقة، وقال: «استمعوا إليّ جيدًا أيها الرجال.. إنكم على الرغم من كل ما حدث ما زلتم تجهلون محمدًا، ولا تدركون الهدف من وراء أفكاره العميقة، إنني أرقبه عن كثب، وألاحظ سلوكه وأوامره لرجاله، وحكمه

على الأشياء صغيرها وكبيرها، وهو لا يقدم على شيء إلا بعد تفكير دقيق، والاستعداد لكل طارئ. . هل تعتقدون أن محمداً يغامر -بكل بساطة- بمستقبله ورجاله فى معركة غير متكافئة وغير مضمونة النتائج؟؟».

ردوا جميعًا بصوت يكاد يكون واحدًا: «إنه أشد حرصًا مما نتصور. .».

- «إذن فمن العسير أن نقتنع بأنه خارج للحرب، إن معه أربعمائة وألفًا من الرجال، وليس معهم سوى السيوف فى أغمادها، وعدد من الهدى لنحرها، لقد أشاع فى كل الأنحاء أنه لم يخرج للحرب، وإنما خرج لأداء الحج مثله مثل أبناء العرب فى كل مكان. . إنه لا يبغى سوى السلام والمحبة والسماح له بتأدية الشعائر، فلو انقضت عليه قريش للامها العرب وعابوها، بل لن تجد قريش من يشاركها هذا الإثم، وعلى أسوأ الفروض، لو قامت معركة ما بين المسلمين وقريش، فإن فى مكة مسلمين أخفياء يشكلون حماية لمحمد، ويستطيعون أن يغيروا من نتيجتها لصالح صاحب الرسالة. . وفى مكة أيها الرجال -عدا المسلمين- أقارب وأصهار للمهاجرين والأنصار. . ولو تمادينا فى تصوراتنا لحدوث معركة، فإن محمدًا قادر على أن ينسحب بقواته عند الخطر، وينقذها من الفناء كما حدث قبل ذلك. . وهل نسيتم أن غير

المسلمين قد اشترك فى الحج مع محمد حيث دعا جميع القبائل المجاورة للمدينة على اختلاف عقائدها للخروج معه؟؟».

كان اليهود يستمعون إلى حديث عبد الله فى اهتمام بالغ، ويستوعبون كل كلمة يقولها، يبدو على وجوههم الإعجاب الشديد لحسن فهمه للأمور، واستنباطاته لمجريات الحوادث، وبينما هم مندمجون فى التفكير، واستعادة ما قاله عبد الله، إذ فتح باب الحجرة عنوة، ودخلت امرأة ملثمة، وقالت: «لابد أن أشارككم فى هذا الاجتماع الخطير.. إن اليهود اكتووا بنار المذلة والعذاب، رجالاً ونساء، وشيبًا وشبانًا..».

انتفض سلام بن مشكم واقفًا، وصاح: «لا مكان للنساء هنا يا زينب بنت الحارث، وعندما يعجز الرجال عن تدارك الخطر الداهم، أو ينوءون بثقل المسئولية، فلتحضر النساء..».

لكنها لم تبد اهتمامًا يذكر باعتراض زوجها سلام بن مشكم، وجلست فى مكان قصى وهى تقول: «بل سأبقى مهما كان الأمر..».

فتدخل عبد الله بن أبى قائلاً: «دعوها، فليس فى حضورها من بأس..».

وعاد الرجال إلى حديثهم المهم، وقال كنانة: «إن الأمر

أعقد مما كنت أتصور، لم يتبادر إلى ذهنى سوى أن قريشًا ستشهر سيوفها فى وجه محمد، وترده جريحًا مهزومًا، لكننى أعتقد الآن يا عبد الله أنك قد أصبت كبد الحقيقة . . ».

وقال سلام بن مشكم: «إن محمدًا فى معاركه كان يلجأ دائمًا إلى موقع حصين يحميه، أو جبل يستند إليه، أو حيلة بارعة يضرب بها خصمه، أما أن يدفع برجاله بعيدًا عن المدينة، دون أن يكون لديه السلاح الكافى أو العدد الكافى من الرجال. فهذا أمر غريب غاية الغرابة . . إننى بدأت أشك فى أن خيانة كبرى سترتكب داخل مكة . . إن أبا سفيان وزعماء مكة سيهربون من الخلف، وإلا فكيف تتصورون أن محمدًا يواجه مكة بأسرها بهذه الحفنة من الرجال؟؟».

عاد عبد الله يبتسم من جديد ويقول: «ليس لدىَّ ما أضيفه، لقد قلت ما أعتقد أنه عين الصواب، والاحتمالات التى أمامنا هى: إما أن تسمح قريش له بزيارة البيت الحرام، وهذا قد يؤدى إلى تخفيف حدة العداء القائم بينهما، وإما أن يعود محمد بخفى حنين، ومن ثم لا تكاد تمر فترة قصيرة إلا ويهب محمد لفتح الطريق إلى الكعبة عنوة، ويحتدم القتال من جديد، وأمام هذه الظروف لابد من السير فى طريق الشهيد السيئ الحظ حيى بن أخطب . . ».

قالت زينب زوجة سلام بن مشكم سيدة قومها: «أو تعتقد يا ابن أبى أن فى الإمكان حشد غطفان وقريش والأحزاب من جديد، بعد الفشل الذريع الذى منينا به؟؟».

قال عبد الله: «ولم لا يا بنت الحارث؟؟ إن نار الحقد ضد محمد لم تزل محتدمة الأوار فى قلوب الرجال، بل إن الفشل قد زادها اشتعالاً..».

قالت زينب دون أن ترفع النقاب عن وجهها، ودون أن يدرك أحد ما يرتسم على وجهها من انفعالات حاقدة: «إن أقصر طريق هو قتل محمد..».

قال عبد الله بن أبى: «هذا ما فكرنا فيه قبل ذلك.. حاولت ذلك بنو النضير، ولكن عمرو بن جحاش فشل، وأنزلوا به العقاب الرادع.. وقتلوه..».

قالت زينب: «إن الفشل مرة لا يعنى التوقف عن المحاولة..».

وقامت ضجة تحتج على رأيها الساذج، فلوح عبد الله بيده قائلاً: «دعوها، ما التقينا هنا يا حلفائى المخلصين إلا لنتداور الرأى ونقلبه على جميع جوانبه، ولن نخسر شيئًا».

وعادت زينب تقول: «لم لا تبعثون إليه برجل يعلن إسلامه، ثم يدس له السم فى الطعام أو امرأة؟؟ فإن نجح

رسولنا فقد أغنانا السم عن جيش بأسره، وإن فشل فلن نخسر إلا واحداً . . ».

قال عبد الله فى هدوء: «إنها فكرة طيبة، لكن لا يصح الاعتماد عليها كلية . . فلتسر هذه الخطة إلى جانب الخطة الكبرى . . أعنى محاولة حشد أعداء محمد مرة أخرى فى صعيد واحد . . ».

قال كنانة بن الربيع: «أيها الصديق الوفى عبد الله بن أبى، لقد عاشرناك من قديم، وراقبنا سلوكك إبان الصراع الدامى مع محمد، فلم نجد فيك إلا الوفاء والمروءة، ولن ننسى فضلك يوم أن أنقذتنا سيوف محمد فى حصار «بنى النضير» . . نعم الأخ أنت!! إنك مثال رجل المبدأ والعقيدة، لا تحيد عن فكرك قيد أنملة، وتحملت فى سبيل ذاك ما تحملت . . وأن رجالاً هذا شأنهم لواصلون إلى النصر مهما كانت التضحيات، ومهما طال الزمن . . وأمام هذا الود القائم فإننى أزف إليك بشرى سوف يطرب لها قلبك، وتطيب بها نفسك . . إن غطفان قد وافقت مبدئيًا على أن يضمنا وإياهم حلف وثيق كى ننهض لحرب محمد، ونحن الآن فى طور الإعداد . . عند ذاك تجف الدموع على شهداء قريظة، ويعود الحق إلى نصابه . . ويعود إليك حقك وتاجك المسلوب . . ».

وسادت فترة صمت، قال سلام بن مشكم بعدها: «غير أن مباحثاتنا مع قريش لم تصل إلى نتيجة بعد..».

ابتسم عبد الله فى دهاء وقال: «أو تظنون أن أمر حديثكم مع غطفان يخفى عليّ.. لقد مهدت لذلك ما استطعت وبعثت برجالى إلى هناك، ثم إن ثقتى الكبرى مازالت تعول على قريش هى الأخرى..».

والتفت إلى زينب قائلاً: «ويجب ألا ننسى وجهة نظر زينب، فإن طعنة فى الظلام، أو لقمة سائغة محشوة بالسم قد تمهد السبيل لزحف شامل لتطهير الأرض من سلطان محمد..».

قالت زينب فى حماس: «لا فض فوك.. نحن النساء نقدم جواهرنا ومالنا وكل ما نملك حتى لا نصبح يومًا من الأيام فى عداد السبايا.. إننى كلما تصورت أيها الرجال أنه قد يجرى علينا ما جرى على قينقاع وقريظة والنضير.. وقد تصبح زينب بنت الحارث زوجة ابن مشكم، وصفية بنت حيى زوجة كنانة ضمن السبايا.. كلما تذكرت ذلك دارت بى الأرض.. وأصبح مذاق الحياة فى فمى كالعلقم.. وأية حياة يحلو مذاقها بعد ذلك؟؟ فالبدار.. البدار أيها الرجال قبل أن نجثو على أقدام محمد، ونعفر جباهنا العالية بتراب نعليه.. وقبل

أن يصبح نساؤكم إماء لزوجات محمد، وخادمات للأنصار والمهاجرين . . ».

وابتلعت ريقها ثم قالت: «لم تعد المسألة مسألة صراع بين دينين فحسب، بل هى مسألة الكرامة قبل كل شىء . . فذودوا عن نسائكم وكرامتكم ولو تخضب الأرض بدمائكم جميعًا، فلا قيمة للحياة مع الذل والهوان . . ».

شعر عبد الله بن أبى بما يشبه الدوار، أين زينب الشجاعة من زوجه الغادرة التى استعبدتها كلمات محمد وقهرتها، فوقفت تتحداه فى تبجح، وتنال من أفكاره الرائعة؟؟.

وتمتم عبد الله وهو يرمق زينب بنظرات الإعجاب . . «نعم الزوجة أنت!!».

□□□

الفصل [٧]

تطلع من كوة صغيرة فى جدار بيته، ورمى الموكب الكبير بنظرة حاقدة، وجوه الرجال تفيض بشراً وحيوية، وبريق نظراتهم، ووميض ابتساماتهم أبهر وأغنى من ضوء الشمس المشرقة التى تملأ جنبات يثرب، وأصوات التكبير والتهليل تعلو على ما عداها، والأطفال يترنمون بالأغانى . . وفى المقدمة يمضى محمد رسول الله ﷺ راكبًا ناقته «القصواء» وبقى عبد الله بن أبى فى مكانه، ينظر من خلال الكوة ومئات الأفكار تعصف فى رأسه المتعب المشحون بالضيق والضجر، وتمتم فى أسى:

- «محمد ورجاله يسيرون . . ويسيرون . . أقدامهم لا تعرف الكل، وأجسادهم الضامرة لا تمل الحركة، وآمالهم لا نهاية لها . . ويعبرون التلال، ويضربون فى الأودية، ويعانون من الجوع والحر أو القر، ويموتون . . لكنهم أبدًا سائرون . . كيف يمكن وقف هذا السيل الجارف؟؟» .

ورأى أحد الرجال وجه عبد الله خلف الكوة، وهتف: «لماذا لم تذهب معهم يا أبا عبد الله؟؟ ألا تريد زيارة بيت الله الحرام؟».

حدجه عبد الله بنظرة شرسة، وقال ساخرًا: «الحقيقة أننى لا أكاد أفهم شيئًا.. بالأمس كان بيت المقدس قبلتهم، واليوم الكعبة قبلتهم، وعلى الرغم من أن ديننا يختلف عن أديان العرب جميعًا إلا إننا نقلدهم فى زيارة البيت وتقديسه.. أصبح مثابة المسلمين وغير المسلمين..».

قال الرجل: «ماذا جرى لك يا عبد الله؟؟ إن هو إلا وحى يوحى.. والبيت بناه أبونا إبراهيم.. وقداسته تمتد لسنين طويلة..».

اكفهر وجه عبد الله وصاح: «أهى زيارة أم حرب؟».

- «ماذا؟ إنها زيارة بالتأكيد.. والسيوف فى الأغماد يا عبد الله.

- «قريش ترفض ذلك..».

- «ومحمد له الحق فى الزيارة..».

قال عبد الله: «وبين حق محمد: ورفض قريش تنتصب السيوف، وتوشك الدماء أن تسيل..».

- «ألهذا رفضت المسير، وخالفت أمر الرسول؟؟».

- «إن احترامى للرسول لا يجعلنى أحتقر تفكيرى..».

- «لكنه أمر الله يا عبد الله..».

- «انصرف عنى.. فما بى رغبة لهذه اللجاجة..».

وفى مكة تواترت الأنباء عن خروج محمد لزيارة البيت، وامتلأت أنديتها بالجدل الحاد، واضطربت الآراء، وماجت الخلافات، قالت هند زوجة أبى سفيان: «لن يمر المسلمون إلا على جثتى.. ماذا جرى؟؟ إنه العار والشنار إذا دخل محمد مكة عنوة.. ولسوف تسخر العرب من قريش وترميها بالجبن والوهن..».

وقال عكرمة بن أبى جهل: «كيف نرى أولئك الذين قتلوا آباءنا وإخوتنا وأبناءنا يوم «بدر» ثم ندعهم يؤدون الشعائر فى البيت العتيق؟؟ الموت ولا هذا؟؟».

وقال وحشى بن حرب قاتل حمزة: «هل فيكم من يؤكد لى أن محمدًا لن ينوى غدرًا؟؟ ماذا لو فتحنا له أبواب مكة، ثم انقض علينا برجاله؟؟؟ ألا يجوز أن يكون وراءه جيش عرمرم يختفى فى الصحارى والجبال وينتظر اللحظة الحاسمة كى يستولى على مكة؟ وهنا.. بين أظهرنا مسلمون أخفياء.. ألا يصح أن يكون بينه وبينهم تواطؤ من نوع خطر..».

وهز أبو سفيان رأسه فى حيرة: «لا أدرى ماذا أقول، إن لجميع العرب الحق فى زيارة البيت، وتقاليدنا لم تخرج عن هذا منذ أمد طويل..».

فصاحوا بصوت واحد: «لن يدخل محمد مكة عنوة..».

قال أبو سفيان وقد تفصد جبينه عرقًا: «أجل.. لن يدخلها عنوة..».

وتراكض الرجال نحو الخيول والسيوف، وأعدوا جيشًا لملاقاة محمد قبل أن يبلغ مكة.. وعلى رأس الجيش خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل.

أما محمد ورجاله فقد تابعوا المسير.. وتمتم عمر: «هذا يوم شديد هوله، حاسم أثره، فإن رجعنا دون أن نبلغ ما نريد فقد لحقنا ألم كبير، وتحدثت بذلك الأعداء، وأرى أن رءوس العناد فى مكة لن يفتحوا لنا الطريق.. ونحن لن ننكص عن حق لنا قررته شريعة العرب ولو كان فيه حتفنا..».

وبلغ موكب المسلمين «عسفان»، فأتى رجل من الصحابة الرسول أن مسافرًا قادمًا من مكة قد أتى لعله يحمل أنباء ذات فائدة، فأسرع إليه الرسول، يسأله عما لديه من أخبار، قال المسافر: «قد سمعت قريش بمسيرك فخرجوا، وقد لبسوا جلد النمور، ونزلوا «بذى طوى» يعاهدون الله لا تدخلها عليهم

أبدًا، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى «كراع الغميم. .».

وشعر الرسول بألم بالغ، وبدا التأثر على وجهه الكريم إن قريشًا تأبى إلا أن تركب وتسدر فى غيها، وتمنع حقًا قررته العرب طوال القرون. . فقال الرسول: «يا ويح قريش؟؟ لقدأهلكتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم. . دخلوا الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟؟فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة» وهاجت مشاعر المسلمين من حوله، إذا كانت قريش بها العناد لدرجة الصد عن بيت الله والعبث بشريعة الآباء والأجداد، وارتكاب الحماقات، فماذا يفعل المسلمون؟؟ أيرضخون للعسف، ويرضون بالدنية، ويعودون مقهورين صاغرين؟؟ وماذا يفعل محمد؟؟ إنه لم يخرج محاربًا، وإنما خرج محرمًا، أيعرض رجاله للخطر؟؟ ماذا لو انتصرت قريش؟؟ لا شك أنها ستجعل من ذلك يوم فخار وأشعار، وستملأ الجزيرة ضجيجًا وأكاذيب.

وبينما كان الرسول والمسلمون فى غمرة أفكارهم، إذ قدم رجل من الطلائع المنبثة حول معسكر الرسول، وقال وهو

يلهث: «يا رسول الله . . إن قوات العدو على مرمى البصر، وهى فى الطريق إلينا . . ».

وصمت الرسول مفكرًا، بينما هتف أحد المسلمين: «لقد فرضوا علينا المعركة . . لابد من الحرب . . ».

وتلفت الرسول مفكراً ، بينما هتف أحد المسلمين: «لقد فرضوا علينا المعركة لابد من الحرب . . ».

وتلفت الرسول حواليه، فأصاخوا السمع، وتركزت نظرات المسلمين على شفتيه، لسوف تلامس آذانهم كلماته الحاسمة، وأخيرًا سمعوه يقول: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها؟».

وانصاع الجميع لرأى الرسول، لكن هذا الانصياع لم يكن يعنى أن الجميع على نفس المستوى، لقد تهامس أحدهم قائلاً: «أنهرب من ملاقاتهم؟؟».

لقد أرادوها حربًا وبدءوا بالعدوان، فلماذا لا نتصدى لهم؟ فرد عليه آخر: «الرأى ما رأى الرسول . . إن تصرفات الأعداء الخاطئة لن تجرنا إلى الخطأ . . لقدخرجنا محرمين لا محاربين . . ولسوف نحافظ على معنى السلام . . لكى نعطى للجميع دليلاً قويًا على صدق نوايانا، واحترامنا للشهرالحرام والبيت الحرام . . ».

وخرج من بين المسلمين رجل يرشدهم إلى طريق آخر كى يتجنبوا الصدام. كان الطريق الجديد وعرًا شاقًا مضنيًا، قاسى فيه المسلمون الأمرين من الظمأ والحر والإرهاق، حتى غمغم أحدهم قائلاً: «هل يتصور أن تكون المعركة التى تجنبناها أقسى من هذا الطريق؟؟».

ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت «القصواء» ناقة الرسول، وظن الناس أن التعب قد نالها، غير أن الرسول قال: «إنما حبسها حابس «الفيل» عن مكة.. لا تدعونى قريش إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها..».

وبات واضحًا أن الرسول يرفض الحرب، ويتمنى أن تثوب قريش إلى رشدها، وتعتصم الهدوء، والتعقل.. وتقدم حلاً معقولاً، يضع حدًا للخطر المحدق. وفى الوقت نفسه أدرك خالد بن الوليد أن المسلمين قد سلكوا طريقًا أخر صوب مكة، فقال فى حيرة: «ماذا جرى يا عكرمة؟؟ أتراهم يهربون منا أم أنها خطة بارعة لبلوغ مكة والاستيلاء عليها؟؟».

قال عكرمة وقد انتفض جسده حنقًا: «إنهم لا شك ينوون شرًا.. وما أظنهم الآن إلا على أبواب مكة..».

- ما العمل؟؟ أنمضى من خلفهم كى نأخذهم على غرة؟؟».

- «بل نسرع بالعودة إلى مكة كى نقف قبالتهم..».

لكن محمداً بقى بالحديبية، وعاد خالد وعكرمة وقواتهما إلى مكة، الجميع يتحدثون عن مسلك محمد وإصراره على السلم، ورفضه الدخول فى معركة، وإعلانه أنه ما جاء إلا محرمًا.. وإظهاره للهدى التى ستذبح تأدية للشعائر.. وفكرت مكة، قال أبو سفيان:

- «الحرب ليست فى صالحنا ولا فى صالح المسلمين، وليس هناك داعٍ لها، والكثيرون من الناس يرون أن من حق أى عربى زيارة البيت العتيق..».

زمجرت هند قائلة: «هل تعنى أن يدخل محمد مكة زائراً؟؟».

لوح بسبابته قائلاً: «لا.. لن يدخلها عنوة..».

لكن غلاة الحاقدين والمتحمسين أرادوا شيئًا آخر، لقد تجمع أكثر من خمسين محاربًا.. وانقضوا على معسكر المسلمين كى يخرجوا المسلمين عن خطتهم فى السلم.. ويجروا الطرفين على معركة رهيبة..

لكن الرسول لم تغفل له عين، لقد أصدر أوامره بأن يُمسك بالمهاجرين وأن يؤخذوا أسرى دون أن يمس أحدهم بأذى، وقال رجل من المسلمين: «اضربوا أعناقهم.. إنهم معتدون ويريدون قتلنا..».

لكن الرسول أمر أن يطلق سراحهم، ويعادوا إلى مكة . . ودهش رجالات مكة لصنيع محمد بل وأخذ حلفاء قريش ينفضون عنها، ويرون أن المسلمين أصحاب حق فى الزيارة، وأن قريشًا هى التى تتعنت، وتمد فى حبل العناد والمكابرة . . وأخيراً أرسلت قريش رسلها الواحد تلو الآخر للتفاهم مع محمد . .

ولم يجد الرسول بدًا فى النهاية من أن يبعث بعثمان بن عفان إلى مكة للتفاوض لما له من حظوة وصلة رحم، غير أن عثمان طالت غيبته، وانطلقت أنباء تقول: إن قريشًا قد قتلت عثمان . . توترت الأعصاب، وهاجت المشاعر، كيف يقتلون رسولاً بعثه رسول الله، إن قتل رجل كعثمان خطيئة كبرى . . وأمر لا يمكن السكوت عليه، قد يكون فعلها أحد أولئك الحاقدين الذين يرفضون أن تمضى الأمور بسلام، واحد من أولئك الذين حاولوا تعكير الصفو، وانقضوا على معسكر المسلمين لجرهم إلى معركة، ويبدو أن هؤلاء الماكرين قد نجحوا فى خطتهم الشيطانية أخيراً . . أيقتل عثمان فى شهر حرام، وفى حرمة البيت الحرام؟؟».

وهتف الرسول فى أسى بالغ: «لا نبرح حتى نناجز القوم . .».

ودعا أصحابه إليه، وقد وقف تحت شجرة فى هذا الوادى فبايعوه جميعًا على ألا يفروا حتى الموت.

واهتزت السيوف فى أغمادها، وصدرت صيحات التكبير والتهليل.. الجهاد.. حتى الموت.. لكن عثمان يعود سالمًا، ويطرح القضية أمام الرسول.. إن قريشًا أقسمت ألا يدخل المسلمون مكة عامهم هذا، حتى لا يشاع بين العرب أن المسلمين قد دخلوها عنوة، وأن قريشًا ترغب فى عقد معاهدة مع محمد. وأخيرًا جاء رسول قريش لإقرار الاتفاق.

- «باسمك اللهم».

- «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله..».

وعقدت هدنة مدتها عامان: واتفق على أن من جاء محمدًا مسلمًا بغير إذن وليه رده محمد عليهم، ومن جاء قريشًا من رجال محمد مرتدًا لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد، وأصحابه عن مكة عامهم هذا، على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه.. فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام، ومعهم من السلاح والسيوف فى قربها، ولا سلاح غيرها..

وثارت ثائرة عمر بن الخطاب، وهدر: «كيف ترد إليهم رجلاً جاء مسلمًا، ولا يريدون إلينا من ارتد..».

هز أبو بكر رأسه فى ثقة قائلاً: «أما من ارتد، وعاد إلى الكفر والجاهلية، فلسنا بحاجة إليه».

- «والأخرى؟؟».

- «وإعادة المسلم الفار إليهم؟؟ علم ذلك عند الله.. وستثبت الأيام صدق الرسول..».

أمسك عمر بيد أبى بكر وقال: «يا أبا بكر.. أليس برسول الله؟؟».

- «بلى يا عمر..».

- «أو لسنا بالمسلمين؟؟».

- «بلى».

قال عمر فى ضيق: «فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟؟».

- «يا عمر ألزم غرزك. فإنى أشهد أنه رسول الله..».

فهرول عمر إلى الرسول ﷺ. وقال وقد احتقن وجهه غضبًا: «أو لست برسول الله؟؟ أو لسنا بالمسلمين؟؟ فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟؟».

ابتسم الرسول فى ثقة وإيمان وقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعنى..».

وعاد الركب إلى المدينة..

آه..

إن عبد الله بن أبى يقف خلف كوته . . وينظر، ويقهقه ساخراً: «ها قد عادوا يا امرأة . . عادوا دون أن يحققوا هدفهم . . ردتهم قريش خائبين . . لم يجسروا على فتح الطريق بسيوفهم . . أليس هذا ألعن من الهزيمة؟؟؟» .

قالت زوجه فيما يشبه الحزن: «السوف يذهبون فى العام القادم . . لقد علمتنا الأحداث أن محمداً يعنى ما يفعل . . ويعنى ما يقول . . » .

فعاد عبد الله يقهقه ساخراً ويقول: «وفى العام القادم ستجد أحداث . . وأحداث . . » .

□□□

الفصل [٨]

قالت زينب بنت الحارث لزوجها سلام بن مشكم: «ما استشعرت العجز في حياتي كما أستشعره الآن»..

قال زوجها: «ويحك يا امرأة!! هذا كلام لا تقوله زوجة سلام، فأنا فارس خيبر، وقائد جندها.. وأنا أملك القوة والمال والسلطان.. واليهود ورائي.. ماذا بعد ذلك؟؟».

قالت: «كل هذا ليس له أدنى قيمة ما دام محمد على ظهر الأرض..».

- «أو تسمين التأني والصبر عجزاً؟؟».

- «بل جبناً رخيصاً..».

قهقه، في ثقة وقال: «النساء متعجلات عاطفيات..».

- «أريد أن أشرب من دمه، وألوك كبده.. كما فعلت هند بحمزة بن عبد المطلب».

- «ولِمَ تستبعدين ذلك؟؟».

شردت بنظراتها الحانقة إلى بعيد وقالت: «لقد فاوضته مكة مفاوضة الند للند.. وهذا كسب كبير حققه محمد.. واتفقوا على هدنة طويلة..».

ثم التفتت إلى زوجها قائلة فى حدة: «أتدرى معنى هذه الهدنة؟؟».

- «أعرف.. لكى يتفرغ لنا..».

- «فماذا تنتظرون إذن؟؟».

- «كلما زاد انتشاء محمد بالنصر، واتسع نفوذه، ازدادت المخاطر إحاطة به.. أتفهمين؟؟ الانتصارات الصغيرة لا تلفت النظر الآن.. إما وقد علا نجم محمد، وازداد المؤمنون به، فمعنى ذلك الإسراع فى النهوض إليه، والقضاء عليه قضاء تامًا.. تتساءلين كيف؟؟ لقد جرت بيننا وبين الروم اتصالات واتصالات.. و«هرقل» أخذ يقتنع بخطورته على دينه وعلى ملكه.. إن هرقل لا يطمع فى هذه الجزيرة الجرداء، فهى فقيرة مقفرة.. لكن عندما يدرك أن خطرًا يتهدده فلن يتوانى لحظة عن حشد جزء من جيشه لدفن محمد ودعوته فى تلك الأرض القاسية.. إن أمرًا كهذا لا يعرفه محمد ولا يفكر فيه.. وجنود الرومان لديهم القوة والمنعة

ورصيد لا ينفد من الرجال والمؤن والذخائر . . قد يحتاج الأمر لبعض الوقت . . ولا بأس من الانتظار . . » .

قالت زينب فى فرح غامر : «أحق ما تقول؟؟» .

- «تلك آخر جولة نقوم بها، ولا يصح أن نتردى فى الخطأ الذى تردى فيه بنو قريظة وبنو النضير . . وغطفان . . غطفان ستأتى يا امرأة . . ومكة أيضًا لن تتوانى عن نقض معاهدتها عندما يجد الجد لتشفى أحقادها وتأخذ بثأرها . . » .

نظرت إلى السماء بوجه مشرق، وعينين ضاحكتين، وهمست : «يا لها من رؤيا جميلة . . الرومان . . جنود بنى الأصفر . . صناديد خيبر . . آساد غطفان . . ها . . ها . . ها . . لسوف يفر المسلمون أمام هؤلاء الفئران المذعورة» .

واتسع فمها عن ابتسامة خبيثة وقالت : «وكل ما أطلبه منك يا زوجى العزيز . . أن تختار لى واحدة من زوجات محمد ضمن سباياك . . ولكن عائشة بنت أبى بكر» . . . . ها . . ها . . ها . . أم المؤمنين . . سيكون شيئًا رائعًا أن تقوم على خدمتى زوجة نبى . . لقد وعد كنانة بن الربيع زوجته «صفية» بأن يهديها غداة النصر رأس محمد . . حسنًا . . لن تستمتع صفية بذلك غير وقت قصير . . أما أنا فسيحلو لى إذلال عائشة أبد الدهر، عندئذٍ يشفى غليلى . . وتهدأ

روحي . . ويموت شعور العجز الذي يعبث بأمني وهنائي وفنائي . . ».

وظلت زينب تثرثر بينما استغرق زوجها في تفكير عميق، وأخذت تقول: «إلى الآن لا أكاد أصدق ما يجري؟؟ هؤلاء العرب أمرهم جد عجيب . . لقد كانوا دائمًا ضحايا الفوضى والجهل والغرور . . يغامرون في حماقة . . يقيمون المعارك لأتفه الأسباب، لا يربطهم معنى كبير، ولا ينسقهم تنظيم محكم . . ويتغنون بأيامهم التافهة . . آلاف يموتون من أجل ناقة . . أو هجاء ببيت من الشعر . . أو من أجل عرض امرأة . . ونحن نسخر ونحرض، ونجني من وراء حماقاتهم الثمار اليانعة والمال والمجد والسلطان . . ماذا جرى؟؟».

لم أكن أتصور في يوم من الأيام أن يتوحد هؤلاء، وأن ينصاعوا لشرائع وتقاليد جديدة تنظم الزواج والإرث والعلاقات العامة . . ويكون لهم مبادئ يؤمنون بها . . مبادئ كبرى يتفانون في سبيلها . . واليوم أرى محمداً وحوله طرازاً غريب من الناس . . لا غرور . . لا فوضى . . لا تهور . . ويفكرون ويخططون وينتصرون على تدابير اليهود وذكائهم الخارق . . إنني لا أكاد أجد تفسيراً لذلك . . أتستطيع أنت أن تشرح لي الأمر يا سلام بن مشكم؟؟».

قال: هه.. ماذا؟؟.

- «إنك فى وادٍ آخر..».

- «أعرف.. أعدك بأن تكون عائشة ضمن سباياك..».

وشردت بضع لحظات ثم قالت: «عندى فكرة..».

- «ماذا؟؟».

- «لن توافق عيلها..».

- «اشرحى لى الأمر أولاً..».

- «حسنًا يا سلام.. إننى امرأة.. امرأة حاقدة.. وأفكارى قد تبدو مغرقة فى الخيال، والحماقة أحيانًا.. ليكن.. لن أخسر شيئًا إذا عرضت عليك خطتى.. ماذا يقول الناس عنى لو فررت من زوجى، وغادرت خيبر خفية، وامتلأت خيبر بالأراجيف والشائعات..».

قال فى دهشة.. «ماذا؟».

- «صبراً يا سلام.. سيكون لذلك دوى هائل.. زوجة فارس خيبر وقائدها الهمام هربت إلى المدينة، وقصدت محمداً رسول الله لتعتنق الإسلام..».

هتف مستغربًا: «الإسلام؟».

- «أجل . . لقد مال إليه قلبى . وهدانى الله ، فتركت ورائى المال والولد رالزوج ، والدنيا بأسرها ، وانطلقت إلى الله . . إلى طريق الحق . . إن حدثًا كهذا سوف يهز المدينة هزًا عنيفًا ، لسوف أدخل يثرب فى موكب رائع . . والتهليلات والتكبيرات تشق عنان السماء . . ومحمد يبتسم لى ، ويدعو لى بالتوفيق والسعادة . . وقد يتزوجنى . . » توترت أعصاب سلام ، وشحب وجهه ، وانتفض واقفًا وهو يزمجر : «بماذا تهذين يا بنت الحارث؟ إنها دعابة سخيفة . . » .

وأخذت زينب تقهقه حتى كادت تستلقى على ظهرها من الضحك ، وأخذت تقول وهى تجفف بللاً أصاب عينيها من شدة الضحك : «أتغار؟؟» .

- «بل أخاف على عقلك من التلف . . تارة تريدين عائشة ضمن السبايا ، وتارة أخرى تريدين أن تعتنقى الإسلام» .

وبدا الجد على وجهها ، ثم قالت : «ولسوف يحوطنى محمد وصحابته بالإجلال والإكبار . إنهم يفرحون بمن أتى مسلمًا أكثر من فرحتهم بحيازة كنوز الدنيا . . وأؤكد لك أن محمدًا سوف يتزوجنى . . فسأكون وحيدة مسكينة . . مضحية بكل شىء . . وقد يقتلنى اليهود ؛ لابد أنه سيتزوجنى أو على

الأقل يقــربني منه . . وفي هذا الوقت أســتطيع أن أدس له السم، أو أجهز عليه بخنجري . . ».

زايله توتره وابتسم :

ورماها بنظرة متدالية، وتمتم : «لسنا في حاجة لهذا الشقاء كله، إن خيبر وحدها قادرة على سحق محمد وجنده . . ليس هناك بشر معصوم من الهزيمة . . الأنبياء أحيانًا يهزمون بل ويقتلون . . القوة الماكر تستطيع أن تغير الأرض . . استمعي جدًا . . أنا لا أعرف شيئًا اسمه المسلمات وليس هناك قيم ثابتة . . حتى في ديننا، ولعل سر نجاحنا . . أننا نتغير ونغير نصوص ديننا مع الزمن . . ».

قالت في ضيق : «أكاد لا أفهم شيئًا مما تقول : حسبتك ستطرب لفكرتي . . ».

- «فكرتك رائعة . . لكن ليس هذا وقتها . . أنسب وقت لها يوم أن تندحر قوانا، ونعجز عن هدم الكيان الإسلامي . . عندئذ تتحول إلى سوس . . أجل . . سوس ينخر في ذلك الكيان حتى ينقض على أهله . . لن نستسلم أو نموت . . وأمامنا الأبد ممتد حتى نهاية الزمان . . وما لا نحققه غدًا . . ».

زمجرت في حدة : «لا أجد من يفهمني . . ما أتعسني!! لسوف أتصرف في النهاية وحدي».

- «لو فعلت شيئًا من ذلك دون موافقتى لسحقت رأسك هذا . . » .

ورماها بنظرة حادة سخيفة . .

فتساقطت الدموع من عينيها وهى تقول : «محمد أزال دولتنا وقتل الأحبة من قومنا . . وعزى نوايانا ، وأفسد مخططاتنا . . أهناك عار أبشع من هذا العار؟؟» .

قال سلام فى ضيق : «هذا كلام ممل . . أسمعه للمرة الألف . . فلتتركى الرجال يقومون بواجبهم . . » .

- «دائمًا تصغر من شأنى . . وتسفه من آرائى . . » .

- «لأن حقدك يعميك عن التبصر والتأنى وإدراك الحقائق . . » .

وفجأة صمتت . .

لقد وثبت إلى ذهنها صورته . .

واحد من العبيد فى منزل زوجها . . هادئ . . أسود السحنة . . يرمقها دائمًا بنظرات صارمة قوية . . يمتزج بها الاشتهاء بالعنف والصمت الصاخب . . إنها تخافه ، وتفهمه أيضًا . . «فهد» . . أجل فهد . . لماذا لا تتكرر قصة وحشى قاتل حمزة ، وهند بنت عتبة . . بأى ثمن . .

الفصل [٩]

- «فهد. . أيها التعس المسكين. . لتذهب إلى البستان وتحضر لى بعض الفاكهة».

النظرات القوية الصارمة تنبعث من عينيه، وعوده السمهرى ينتصب فى إباء وشمم يتنافى مع خضوع العبيد، وصمته المريب يثيرها، ويبعث الرجفة فى جسدها، ويحضر «فهد» الفاكهة، ويضعها أمامها فى صمت وينصرف.

- «فهد». . أيها الفتى الطيب. . إنك جدير بكل إعزاز وتكريم. . حسنًا. . فلتذهب وتستدعى لى تاجر الذهب. . إننى أريد سوارًا رائعًا. . ».

وأخذت الإماء يتبادلن النظرات الحائرة، ماذا جرى لمولاتنا؟؟ إنها لا تدعو إلا فهدًا ولا تتحدث إلا عنه، تكيل له الثناء، لم يعد يبقى سوى أن تطلب منه أن يجهز لها حمامها وثيابها الحريرية. .

- «فهد . . إنك وقعت فى أسر العبودية ظلمًا، ما أكثر العبيد الذين يفوقون السادة سمتًا وعقلا وهيبة . . » .

قالت زينب هذه الكلمات، وسرعان ما رقت نظرات «فهد»، وبدا الخجل على وجهه، واغرورقت عيناه بالدموع، وطأطأ رأسه فى حزن، وهو يقول: «أتسخرين منى يا مولاتى؟؟» .

- «لو كنت أصنع أقدار الناس لجعلت منك سيدًا يشار إليه بالبنان . . » .

- «لكنه قدرى يا مولاتى . . » .

صرخت فى حدة: «أيها العاجز . . » .

رفع إليها عينين دهشتين وقال: «وماذا أفعل؟؟» .

ضحكت فى خلاعة وقالت: «تحلم بالحرية . . » .

- «الأحلام تزيدنى حزنًا وتعاسة . . » .

- «فلتصنع لك عالمًا من الخيال . . تصور نفسك سيدًا مهابًا . . عش هذا الوهم . . أدمن التفكير فيه . . تصرف على أساسه . . » .

ضحك فى أسى وقال: «لو نفذت ما تقولين لكنت أنت يا مولاتى أول من يشوى جسدى بالسياط ويحرقنى بالنار . . » .

قالت في انفعال: «أنت إنسان يا فهد..».

- «لكن لم يكن في الأمر حيلة.. حتى اسمي غيرتموه أكثر من مرة.. أنا لا شيء.. أنتم تحزنون من أجل ناقة نفقت، أو بعير ضل.. أو شاة أكلها ذئب.. أما أنا..».

- «أنت إنسان.. ألم تسمع؟؟».

نظر إلى وجهها الممتلئ، وعينيها الواسعتين القلقتين، وشعرها الفاحم، وفمها الدقيق الشهي، وتمتم: «الحقيقة التي تملأ عالمي في أنني حرمت من نعيم الحياة كله.. الحرمان فظيع.. فظيع.. حتى مجرد التعبير عما في قلبي لا أجرؤ على الجهر به.. أتدركين ذلك؟؟ مستحيل.. إنك لم تجربي هذا العناء القاسي..».

قالت وشفتها ترتجف: «تكلم.. قل ما تشاء.. أريد أن أعرف ما يعتمل في قلبك..».

- «إنه الموت..».

- «أعدك بشرفي..».

- «ألن تشي بي؟؟».

- «لقد وعدتك.. بشرفي..».

ودار بنظراته في جنبات الحجرة، ثم عاد وركز نظراته

القوية الصارمة على عينيها وقال فى هدوء والعرق يتفصد من جبينه الأسمر: «إننى أحبك..».

انتفضت.. وتصنعت الدهشة.. وأخذت تعض على شفتيها، وصرخت: «ماذا؟؟».

- «كنت واثقًا من ذلك.. السياط والنار.. بل الموت.. لأننى عبد.. ولأنك زوجة سلام بن مشكم..».

هدرت: «أيها المنحط.. القذر..».

- «أجل.. لو قالها أحد السادة لقوبلت بابتسامة.. أو باكفهرار ولا شيء غيرهما لكنها منى انحطاط..».

- «انصرف فورًا..».

- «إنها النهاية.. ما أشد غبائى.. أكان ما حدث اختبارًا؟ يا له من اختبار مميت..».

- «انصرف أيها النذل..».

- «لكن الانصراف معناه التسليم بالموت.. إننى قادم إليك لسوف أقبل قدميك وحذاءك.. بل وألثم التراب الذى تطأينه.. وأذرف دموع الندم.. لعلك ترحمين عبدًا تعسًا مثلى، وتبقين على حياتى..».

وخطا نحوها فى خشوع، وكأنه يسير فى موكب جنائزى،

وانحنى صوب قدميها، فأمسكت بساعده وسددت إليه نظرات شرهة، ثم تشبثت به، وضمته إليها فى جنون . .

- «ماذا جرى يا مولاتى؟؟» .

- «الحب لا يعرف الحواجز . . كنت أفهم نظراتك . . لطالما عذبتنى . . وذهلت حينما سمعتك تتحدث عن الحب . . ذهلت وسعدت فى الوقت نفسه . . أحببتك واحتقرتك . . » .

قال وجسده ينتفض كله : «كيف؟؟» .

- «حسبتك تتحدث عن الحرية . . » .

- «حبك فى قلبى أقوى وأعظم من كل شىء . . » .

- «لم تزل عبداً رائعًا . . كلمات لم أسمعها من سلام بن مشكم طول حياتى . . كنت على استعداد لأن أهبه عمرى لو قالها . . » .

قال وقد تدلت ذراعاه واضطربت أنفاسه : «أحيانًا تبدو الحرية وكأنها الحب، وأحيانًا هى المال . . وأحيانًا أخرى تبدو نوعًا من الاطمئنان النفسى الغريب برغم القيود . . أنا لا أفهم حقيقة ما هى الحرية . . كل ما أفهمه عن الحرية هو أن أعبر عن أشواق ذاتى . . » .

مرت بيدها الناعمة على لحيته الخشنة وقالت : «أيها الأنانى . . لكم أحبك . . » .

- «لا أعرف كيف أتكلم. . ».

- «أنت هكذا شيء جميل. . ».

وفجأة وبدون مقدمات قالت: «أتسمع عن وحشى بن حرب؟؟».

- «من وحشى هذا؟؟».

- «فتى من عبيد مكة. . قتل حمزة عم الرسول ونال حريته ثمنًا لبطولاته. . ».

- «أوه. . لقد سمعت عنه. . ».

- «لو أردت. . لكنت مثله. . ».

- «سيدتى. . إننى أرغب عن مثل هذه الأمور. . ».

صرخت محتدة: «إليك عنى. . إننى أكره الجبناء. . ».

- «ماذا أفعل؟؟».

- «يجب أن تكون حرًا. . ».

- «كيف؟؟».

- «بأى ثمن. . ».

- «حبى الصامت العاجز لك مثل تفكيرى عن كل شيء. . لم أكن أفكر إلا فيك. . النظرات التى أختلسها إليك. . كانت

زاد أحلامى وشفاء جدب روحى . . لم يكن لدىّ وقت للتفكير فى شىء آخر . . ».

- «أريد رجلاً . . ».

- «وأنا؟؟».

- «رجلا متمرداً حراً . . واسع الآمال . . ».

- «إننى رهن لمشيئتك يا مولاتى . . ».

ومرت أيام قلائل : عاشها فهد وكأنه يتسامى فى أرض سحرية مليئة بالخضرة والزهور والينابيع الدفاقة ، وزينب تعطيه بمقدار ، لا تتركه يظمأ حتى يقتله الظمأ ، ولا تدعه ينهل حتى يرتوى ، والعجيب فى الأمر أن زينب قد طرأ عليها بعض التغيير . لم تعد تأنس كثيراً لزوجها ، بل إن أسعد أوقاتها فى الأوقات التى يقضيها خارج البيت ، ولم تعد عيناها ترى من العبيد والإماء إلا فهداً . . وذهلت زينب لهذه التغيرات . أيمكن أن تحب عبداً ذليلاً حقيراً كهذا؟؟ مستحيل ، لكن الحقيقة تصرخ فى غاية الحماقة والانحراف . . أية كارثة حلت؟؟».

وذات مساء قالت له : «أى فهد العزيز . . إن سلام بن مشكم قد سافر اليوم إلى مكان بعيد . . لعله قصد أرض غطفان . . قد يعود بعد خمسة أيام أو أكثر . . وفى بستاننا

الجميل يا فهد عش رائع، بعيد عن الأنظار. . يكفى رجلاً وامرأة. . وعندما يغيب الهلال ستجدنى هناك، أنا أكره الانتظار. . وحذار أن تهمس لأحد بشىء وإلا فقدت حياتك. . ».

مرت ليلة البستان. .

آه. . كل شىء يوشك أن يتهدم. . يا ليل العربدة المثيرة. . كل شىء تحركه الرغبات. . جميعهم جياع. . الويل لى لو عرف ابن مشكم الحقيقة. . حسنًا إننى أبيع نفسى للشيطان لكى أظفر بمحمد. . وخيل إليها أن قهقهة ساخرة تنطلق من مكان بعيد. . ماذا؟؟

أنا لا أكذب أو أخدع نفسى، لم أسلم نفسى للعبد إلا لغاية كبرى. وتلفتت حولها فى توجس. . لا أحد. . أعترف أننى كنت أشتهيه، لقد ضربت عصفورين بحجر واحد، اطفأت ظمئى. . ودبرت الجريمة الكبرى التى ستهز العرب جميعًا. . لقد اتفقت مع «فهد» أن يذهب ليغتال محمداً. . ثم يعود. . ونهبه الحرية. . ونشترك فى قتل سلام زوجى. . وبعد ذلك. . نهرب. . ونتزوج لن أنفذ الشطر الثانى من الاتفاق لن أقتل زوجى آه. . وقضيت مع الداعر بن الداعرة فى أحضان البستان ليلة لا تنسى. .

وامصيبتى!! سلمت نفسى له، وأسلم نفسه لى. وماد فى ذلك؟؟ خيبر كلها تحترف الإثم والنفاق والأكاذيب.. الخطايا تهوم فوق البساتين والدور والطرقات.. الحياة رغبات.. كل ما نملك هو فى خدمة الرغبات المتأججة فى الصدور..».

وارتمت زينب بنت الحارث على فراشها باكية، وأخذت تشهق بصوت مسموع، وعندما تجمع حولها من بالبيت فى ذعر قالت: «لا أريد أن أرى أحدًا..».

قالت فتاة من الإماء: «إن مولاى قد عاد..».

رفعت رأسها فى دهشة والدموع لم تزل فى عينيها: «كيف؟؟».

- «قطع رحلته.. بلغته أنباء عن حشد كبير للمسلمين غير معلوم الوجهة..» ودارت بنظراتها هنا وهناك.. فرأت فهد ينزوى فى ركن بعيد فصاحت فى وقاحة وهى تجفف دموعها: «فهد».

- «مولاتى..».

- «أخبر مولاك بأننى أريده على عجل..».

هرول مرتجف الأوصال، شاحب الوجه.. ورأسه

يدور، لا يكاد يرى شيئًا أمامه. . واصطدم بقادم فى الطريق، وعندما فتح عينيه جيدًا صاح فى رعب: «مولاى. . مولاتى تريدك. .».

قال سلام فى هدوء: «ماذا جرى؟؟».

ومضى فى طريقه ثابت الخطى. .

□□□

الفصل [١٠]

قال سلام بن مشكم لأصحابه من رجالات خيبر: «أيها الرجال. : إن الحرب واقعة بيننا وبين محمد لا محالة، ولو آثر محمد السلم وأبدى رغبة فى المهادنة، فلن نقبل. . إن الأمور واضحة لى تمام الوضوح، فنحن المعقل الأخير لبنى إسرائيل فى هذه الجزيرة، ومحمد يدرك أن عداءنا له أشد من عداء قريش. . ونحن أهل كتاب لن نفرط فيه مهما كان الأمر، كلانا يتحفز للآخر، سيبطش محمد بنا أن لم نبطش به. . وأرى أن نخرج إلى «يثرب» ومعنا غطفان ويهود وادى القرى ويهود فدك وتيماء. . سيكون النصر لنا. . لقد علمت العرب أننا أقوى شأنًا وبأسًا، وأكثر مالاً وعدة وعددًا. . ».

وكان بين الجالسين يهودى يدعى الحجاج بن علاط، وهو تاجر ناجح، له تجارات واسعة فى أنحاء الجزيرة، وخاصة مكة، قال الحجاج: «إننى أخالفك الرأى، وليس وراء الحرب إلا الخراب واليتم والثارات التى لا تموت. . ومحمد لم يغدر

فى عهد من عهوده قط، ورأى أن تعقد معه معاهدة صلح لا ننقضها ما حيينا، فتنال السلم، وتنعم بالرخاء، وتخلى بينه وبين العرب، فإن أصابوه بلغنا ما نصبو إليه وإن أصابهم لم نخسر شيئًا . . ».

قال كنانة بن الربيع وكان مشايعًا لسلام بن مشكم . . «السؤال الأول الذى يجب أن نطرحه هو من الأقوى؟؟ نحن أم محمد؟؟ فإن كان محمد أقوى شكيمة واستعداداً منا عقدنا معه الاتفاق، حتى تحين الفرصة للقضاء عليه وإن كنا الأقوى، انطلقنا إلى يثرب دون إبطاء وحطمنا سلطانه ودينه . . وأعتقد أن القوة لنا . . هل فيكم من يخالفنى الرأى؟؟».

قال سلام: «أنا معك . . ».

وقال الحجاج بن علاط: «إن عوامل أخرى تتدخل فى الحروب . . هل نسيتم ما حدث يوم الأحزاب، كانت القوة لنا . . لكن جدت أمور وعوامل أخرى لم تكن فى الحسبان، إن مقاييس القوة ليست بعدد الرجال، وكمية السلاح، وفطانة الرجال . . هناك إرادة الله . . وإرادة الرجال . . ».

قال سلام: «إرادة رجالنا أقوى . . وإرادة الله فى صفنا».

- «الله فى صفنا؟؟».

- «أجل يا حجاج . . وإلا كنت ضعيف الإيمان، زائغ العقيدة . . ».

- «كل طرف يا سلام يعتقد أنه على حق . . ».

- «لا يهمنى الآخرون . . لو لم أؤمن أعمق الإيمان بدينى لاتبعت محمداً . . » وكانت غالبية الآراء فى صف «سلام بن مشكم»، واتفقوا على أن يعدوا العدة لهجوم مفاجئ ساحق على «يثرب»، وتبادلوا الوعود والمواثيق مع غطفان، أما الاستعانة بالرومان فلم يكن الوقت كافيًا لتنفيذها، فالانتظار معناه تعريض «خيبر» لخطر الغزو، وعندما عاد سلام إلى زوجه، قال وهو يخلع عنه ملابسه : «لقد جد الجد، وسنذهب لضرب محمد فى الصميم . . ».

قالت فى طرب : «وافرحتاه!! هذا يوم المنى . . يوم الثأر . . ».

ثم أقبلت نحوه، وأمسكت بيده وقبلتها، واحتضنته فى حب قائلة : «لكن حذار أن تضحى بنفسك يا سلام . . الحياة بدونك عذاب أبدى . . ».

ابتسم فى غرور : «سأعود إليك منتصراً، ومعى عشرة من السبايا بينهن عائشة . . ».

قالت وهى تقهقه فى شماتة : «أم المؤمنين . . ».

- «أجل. . ونثأر لأحزان المساكين من بنى قينقاع والنضير وقريظة. .».

وشردت بضع لحظات، وتمتمت فى انفعال: «أتحبنى يا سلام؟؟».

التفت إليها فى دهشة وقال: «ماذا تقولين؟؟ إن أمرك لجد عجيب! أو تشكين فى ذلك؟؟».

- «لا. . ولكنى أريد أن أسمع كلمة الحب تخرج من بين شفتيك. . ستكون وسامًا أعلقه على قلبى. . وأتيه به فخرًا بين نساء خيبر. .».

قال وهو يلقى بجسده المتعب فوق حشية بجواره: «الحب ليس كلمة تقال. .».

- «فماذا يكون إذن؟؟».

- «إنه شىء تحسين به ولا تسمعينه. . تدركينه فى اللمسات والنظرات والتصرفات، ألم تفهمى ذلك طوال السنين الفائتة؟؟».

قالت فى شبه غيبوبة سكرى: «لكن الكلمات حلوة. . إنها تلامس الأذن فتهز كيان المرأة هزًا. . لعلها أتفه أدوات التعبير فى نظرك. . لكنى أراها أروع شىء. .».

قـهـقـه فى سـخـرية وقـال: «إن فـيك قليـلاً من جنون وسذاجة..».

ثم استدار إليها مرة أخرى وقال: «لم هذا السؤال فى هذا الوقت بالذات؟؟».

- «لا أدرى.. ربما لأنها أوقات عصيبة، وأنا أخاف عليك من الحرب.. إنها غادرة..».

- «أوه.. فهمت.. شىء ما يكون بالوداع.. طيبى نفسًا يا زوجتى.. لن أموت سأعـود إليك وعلى جبينى غـار النصر.. أنا القائد.. وعندما أنظر إلى حصون خيبر ونخيلها وحدائقها الخضراء.. وعزيمة الرجال الأشداء وإمكانياتهم الضخمة، أؤمن بأن ملكنا لن يزول..».

خيل إليه آنذاك أنها ستندفع إليه، وتضمه إلى صدرها، وتتشبث به، وتغرق وجهه بالقبلات، لكنها ظلت حزينة صامتة، فقال فى دهشة: «ماذا بك؟».

- «لا شىء..».

- «إننى لا أفهمك.. هل أصابك سوء؟؟ أنت تخفين شيئًا عنى..».

قالت فى ذعر: «ماذا؟؟ لا شىء..».

- «يبدو أن إحدى العرافات قد تنبأت لك بقتلى.. لكن

طيبى نفسًا إننى أقوى من النبوءات والزعازع . . إن سلام بن مشكم لن يموت، إنه لا يعرف الخوف . . ولا يرهب المستقبل . . أنا ورجالى الأمل الباقى لبنى إسرائيل فى هذه الأرض . . أعرف ذلك جيداً . . ولست على استعداد لأن أفهم شيئًا غيره . . ».

وسادت فترة صمت قالت زينب بعدها : «إننى أعيش المعركة بكل كيانى . . ».

ضحك سلام قائلاً : «لدرجة أنك فكرت فى اعتناق الإسلام، والذهاب إلى محمد لدس السم له . . ».

- «لكنك ترفض . . ».

- «بالتأكيد . . ».

- «وأنا لم أيأس . . ».

قال فى اهتمام : «كيف؟؟ يخيل إلىّ أنك انتويت تنفيذ ما تفكرين فيه . ولعل هذا هو سبب حديثك المفاجئ عن الحب . . ربما فكرت فى اكتشاف أمرك وتعريض نفسك للقتل . . الآن فهمت . . ».

قالت فى هدوء وقد أنفضت رأسها : «لا . . ».

- «ماذا إذن؟؟».

- «لقد غيرت خطتى . . لسوف أرسل واحداً من العبيد

لقتل محمد، وسنهبه الحرية إذا ذهب ونفذ ما نريد . . حكاية شبيهة بحكاية وحشى بن حرب قاتل حمزة.

فهل توافق على ذلك؟؟».

هز كتفيه فى شىء من الاشمئزاز: «إنها لفكرة رائعة لو تحقق لها النجاح . . لكنى لا أثق فى العبيد . . ».

قالت: «كيف؟».

قال: «إنهم ضعاف النفوس، تمتلئ قلوبهم بالحقد، لا يستسيغون التضحية الكبرى من أجل سادتهم».

- «بل من أجل حريتهم يا سلام . . ».

- «ماذا لو ذهب ذلك العبد، وعاش إلى جوار محمد، وسحره حلو حديثه، ومعسول وعوده، وابتسامته النفاذة . . إن محمداً ساحر، ولا تعجبى إذا جاءتك الأنباء عن خيانة العبد الذليل، واعتناقه الإسلام، وتطوعه بإفشاء السر لمحمد . . ».

قالت فى ضيق: «أنت تهول فى الأمر . . بعض هؤلاء العبيد، قد درجوا على الوفاء والإخلاص النادرين، ربما يكون بعضهم أشد وفاء من الزوجة لزوجها . . أنا أعرف ذلك . . ».

- «ومن سيقوم بذلك؟؟».

- «فهد . . ».

فكر لحظة، وضيق عينيه، وقرب حاجبيه وقال: «ذلك الذئب الصامت.. إننى لا أحبه.. حسنًا ليذهب إلى الجحيم..».

- «لا تحبه؟؟ كيف؟؟ إنه لم يخطئ قط.. ولم يعصَ لك أو لى أمرًا.. وقد فاتحته فى الأمر..».

- «حقًا؟».

- «أجل.. وأغدقت عليه من برى، ووعدته بالحرية.. والفتاة التى يختارها للزواج وعدد من الإبل والأغنام والنخيل..».

قال دون اكتراث: «ليكن لك ذلك.. وحتى لو غدر.. فلن يكون سوى تابع تافه لمحمد، يمضى فى ذيل الموكب، منتشيًا بعطر الكلمات المعسولة التى ينثرها محمد وسط الجميع.. ولكن لا تنسى أن محمدًا سيهبه الحرية أيضًا.. ومضافًا إليها الجنة، تلك التى يهرع إليها المسلمون وسط النار والدم والسيوف دون خوف..».

قالت فى إصرار: «ونحن سنهبه الجنة أيضًا.. جنة محمد بعيدة.. دونها الموت والحقب الطويلة والغيب المجهول.. والبشر يريدون جنة قريبة عاجلة.. يريدون المال والجاه والمتعة... جنة الحقراء..».

قال وهو يتثاءب: «حسنًا.. افعلى ما شئت..».

وفى الصباح وقد انصرف سلام إلى وجهاء قومه ليعدوا العدة، ويكلموا الحشد للسير فى المعركة المرتقبة.. خرجت زينب بنت الحارث من حجرة نومها فوجدت «فهدًا» يقف مضطرب النظرات. مرتعد الفرائص، اقتربت منه وقالت: «ماذا بك؟؟».

تلفت حواليه فى ذعر وقال: «أحد العبيد قال كلمات خبيثة..».

- «ماذا؟؟».

- «فهمت أنه يعرف شيئًا عن علاقتنا الآثمة.. لو عرف سيدى لمزقنى إربًا إربًا..».

فقهقهت فى توتر وقالت: «ولو وضعنى فى زيت يغلى، وجلس يتسلى بمنظرى البشع..».

- «ما الحل؟؟».

- «هذا أمر تافه يا فهد.. أرسل ذلك العبد إلىّ فورًا..؟ لا مجال للإبطاء.. الوقت ضيق..».

وأقبل العبد الذى كشف السر متعثرًا فى خطاه، سددت زينب إليه نظرات قوية تبرق بريقًا مخيفًا، فأخذ جسده ينتفض

من الرعب، قالت: «أراك مضطربًا.. اجلس عند قدمى هاتين.. إن ساقىّ تؤلماننى أريدك أن تدلكهما..».

أقعى العبد، والعرق يتصبب منه، ويداه ترتجفان..

- «أيها المسكين.. خذ هذا الماء البارد لعله يخفف من اضطرابك..».

وشرب العبد الماء دفعة واحدة.

- «حسن أيها التعس.. إنك تكثر من الكلام الفارغ دون فائدة.. أنت لا تفهم شيئًا عن الحياة.. ليكن.. فلتذهب الآن إلى الحديقة ولتحضر لى بعض الفواكه ستجدها لدى البستانى..».

وقف الرجل مبهور الأنفاس، فصرخت به فى حدة: «اذهب ولا تبطئ..».

وما إن انصرف حتى أطلقت ضحكة شيطانية عالية..

وبعد لحظات جاء «فهد» شاحبًا، وقال متلعثمًا: «هل توعدته حتى لا يفتح فمه؟».

قالت وهى ترمقه بنظرات ولهى: «السوف يغلق فمه إلى الأبد..».

- «كيف..».

- «لقد أرسلته إلى البستانى ليحضر لى بعض الفواكه على عجل لكنه لن يعود. . ».

- «لن يعود؟؟».

- «أجل يا فهد الحبيب. . من أجلك أنت، لأنك أمتع رجل فى الوجود، ولن تستطيع قوة أن تفرق بينى وبينك. . ».

وتنهدت فى ارتياح وقالت: «لقد سقيته السم. . وعندما يصل إلى البستان ستكون أعضاؤه قد تراخت. . وسيستسلم لنوم طويل. . أبدى. . مسكين لسوف يموت قبل أن يرى هزيمة محمد. . الغريب أنه سيموت بنفس السم الذى أعددته لمحمد. . إنها منزلة لم يكن يحلم بها ذلك المغرور. . لكنى دائمًا أتصدق على هؤلاء الأغبياء. . حتى بالميتة الحسنة. . ».

ثم التفتت إلى فهد المذهول، الذى دارت به الأرض وصرخت: «وأنت. . ».

- «ماذا؟؟».

- «لسوف تنتظرنى هذا المساء. . هناك فى نفس المكان. . تصور حاول سلام بالأمس أن ينال منى حقه كزوج لكنى تعللت وأبيت. . أصبح مذاق سلام كالعلقم. . إنه شىء مقيت. . لا أدرى كيف. . هناك فى نفس المكان، ولا تتأخر لحظة حتى لو اشتعلت الحرب فجأة. . وهناك ستحوم من

حولنا روح ذلك العبد الآبق الأبله . . ولن يستطيع أن يخترق حاجز الموت . . سيشقى بالغيرة والحرمان حيًا وميتًا . . والآن انصرف» .

قال وقد طأطأ رأسه : «ولكن سيدى هنا . . » .

- «لا شأن لك . . إننى أعرف كيف أدبر شأنى . . ومولاك غارق فى الغرور حتى أذنيه ، إنه لا يتصور أن كائنًا ما كان لا يجسر على العبث بشرفه . . إنه عظيم لا يهتم إلا بالعظماء أما أنت فأتفه من التفاهة . . العبيد والنساء هنا لا مكان لهم سوى الحضيض . . لكن ألست معى فى أنه حضيض رائع . .

انصرف أيها الأحمق . . » .

قال وهو يقترب من الباب بظهره . . «أمر مولاتى . . » .

□□□

الفصل [١١]

ألمّ بسلام شيء غير قليل من الحنق حينما علم بموت أحد عبيده، وأخذ يتصرف في ضيق وتوتر، بينما قالت زينب زوجه: «ماذا جرى؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون شاة نفقت، فلا تشغل نفسك بذلك كثيراً..».

قال سلام «أعرف أنه لا قيمة له، والخسارة فيه تافهة، لكن ميتته عجيبة ومفاجئة، لقد سقط في الطريق دون مقدمات من مرض، وتقيأ..».

قالت: «وماذا في ذلك؟؟ الموت لا موعد له.. ربما تكون قد لدغته حية في الطريق، فلفظ أنفاسه في ثوان..».

- «ولم لا يكون في الأمر سر غامض؟؟».

هتفت في خرف: «سر؟؟ مثل هؤلاء المساكين ليس وراءهم أسرار؟؟».

- «أنا شخصيًا لا أعرف شيئًا ذا قيمة عن هذا العبد، لكنى أحاول أن أجمع بعض المعلومات . .» .

قالت محتدة: «هون عليك، ولننشغل بكبريات الأمور» .

هز كتفيه فى أسف وقال: «ألا يكون ذلك مقدمة وباء؟؟ لكن . . ألا يخرج الوباء إلا من بيتى؟؟ معنى ذلك -إن صح التخمين- أننا قد نموت فى أية لحظة . . أليس هذا مزعجًا؟؟» .

هزت رأسها قائلة: «آه فهمت، أنت لا تفكر فيه، بقدر ما تفكر فى مستقبلنا نحن . . أؤكد لك أن مصرعه لا يعدو أن يكون صدفة من جراء لدغة سامة . .» .

- «هذا هو الأرجح . . لدغته حية سامة . .» .

ابتسمت خفية، وتمتمت وهى تلتصق به: «وأى حية!!» فأردف سلام بن مشكم: «حسنًا، لسوف أنصرف إلى كنانة من الربيع . . إن كابوسًا غامضًا يضغط على قلبى أريد أن أتخفف من ذلك الوهم . . وسط الرجال والأحداث ينسى الإنسان أوهامه الصغيرة . .» .

قالت فى خبث: «وزوجتك؟؟ ألا تخفف عنك شيئًا كهذا؟؟» .

- «إن بك وبى من الفتور فى هذه الأيام ما لا يمكن إنكاره . .» .

- «التفكير فى كبريات الأمور يا سلام يوجب القلق. . ».

وما إن انصرف عنها، حتى انقلبت سحنتها، واكتست نظراتها ببريق حانق، كان جسدها ينتفض من الغيظ، ولا تكف عن الحركة القلقة، تعبث بأناملها، وتجذب خصلات من شعرها. وتلامس عنقها، ثم تضرب على فخذها، ولا تقف إلا لتجلس، ولا تكاد تجلس حتى تهم بالوقوف، حتى لكأن فى حاشيتها أشواكًا تدمى، وتمتمت فى غيظ قاتل: «ابن الدنيئة لم يأتِ بالأمس. . جلست أنتظره فى البستان، بين الصمت والظلام والخوف والرغبة المتقدة. . لكنه لم يأتِ. . ها. ها. ها ماذا جرى للدنيا؟؟ أنا أنتظره، وأحترق لرؤياه فلا يأتى؟؟ كيف؟؟ ألا يعرف من أنا؟؟ إننى قادرة على أن أسوقه سوقًا بالسوط، وأترع من دمه القذر. . ».

وصرخت كمجنونة: «فهد. فهد. إلىّ فورًا. . ».

ودارت بها الأرض، أشعل الحقد وخيبة الأمل فى جسدها نارًا من نوع غريب، وأخذت يداها ترتجفان، وفتحت عينيها فجأة فوجدته أمامها. . هدرت: «لماذا لم تأتِ بالأمس؟؟».

- «لقد خفت. . ».

- «يا ابن اللئيمة. . وكيف يخاف العبيد؟؟ عندما آمرك لا يصح أن تفكر فى شىء آخر غير الطاعة. . ».

- «لكنى أخاف سيدى . . لا أستطيع أن أرفع عينى إلى وجهه، يخيل إلىّ فى بعض الأوقات أنه قادر على أن يقرأ كل ما يعتمل فى نفسى . . بل يبدو لى أنه على مقدرة كبرى فى قراءة الغيب . . أفزع من نومى على صوته القوى المخيف يهتف بى : أيها الخائن الجبان . . » .

قهقهت فى جنون، وهبت واقفة، واقتربت منه وهى تزمجر : «أنا أقوى من سيلك . . » .

- «اللعنة عليك وعلى أفكارك : القوة ليست الشوارب واللحى والسيوف والأصوات الخشنة، أيها الغبى . . » .

- «أمر مولاتى . . » .

- «لو لم تحضر هذا المساء، فلن تطلع عليك شمس الغد . . » .

قال وهو ينتفض : «أحبك بكل ما فيك من قسوة ورعود وجنون . . » .

قهقهت فى رضى : «أنت تجيد اختيار الكلمات . . لا تظن أن وقاحتك تؤلمنى، إنها تثيرنى أكثر وأكثر . . سنحتفل الليلة برحيلك غداً إلى محمد . . يجب أن أهبك كل ما تريده منى . . سيكون ذلك هو الزاد فى رحلتك الطويلة إلى يثرب . . إننى أعرف كيف أشحن قلوب الرجال الأشداء

بالكرامة والبأس . . لسوف تجد متعة عظيمة وأنت تقضى على حياة أعظم وأخطر رجل فى الجزيرة . . فى تاريخها الطويل . . وعظائم الأمور ليس لها إلا عظماء الرجال . . أنت عظيم برغم سواد وجهك، ووضاعة مركزك . . وبعد أيام قليلة سيتغير كل هذا . . ستصبح الفارس المعلم الذى يشار إليه بالبنان فى طول الجزيزة وعرضها . . » .

وأخذت تصب فى أذنيه كلمات كثيرة متلاحقة، لم تكن تعطيه فرصة لاستيعاب الكلمات والتفكير فيها أخذت تسقيه – على الرغم منه– كل ما تريد من أفكار وأوهام، أصبحت لها القدرة على تحريك جسده وفكره، وإثارة روحه، استسلم لها تمام الاستسلام، لم يعد فى مقدوره سوى أن يصدق ويطيع، ملأت عالمه كله، يقظة ومنامة، أليست زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم؟؟ أهو فى حلم أم حقيقة؟؟ واسترخت فى جلستها وهى تقول: «لسوف يقول الناس إن زينب بنت الحارث قد أنقذت اليهود من قدرهم المحتوم، وكتبت لهم المجد، بل وحررت العرب من الرعب الذى بذره محمد فى قلوبهم . . » .

ثم التفتت إلى فهد قائلة: «اذهب وأعد نفسك لليلة نادرة المنال . . » .

ثم هتفت به أن «قف» وأقبلت نحوه قائلة: «أحبارنا، ورجال الحرب فى خيبر.. الجميع عجزوا.. أخذوا يعقدون الاجتماعات ويتصلون بكسرى وقيصر، وغطفان وقريش.. أتعبوا أنفسهم.. لم يقتنعوا فى يوم من الأيام أن امرأة مثلى قادرة أن توفر عليهم هذا الجهد كله..».

قال فهد فجأة وكأنه يصفعها: «يقولون إن محمداً قادر على أن يشم رائحة التآمر.. إن له فراسة فى الرجال لا تخيب..».

قهقهت فى حنق: «لن تستطيع قتل محمد إلا إذا قتلت الوهم الذى يعشش فى رأسك..».

وابتلعت ريقها، ثم عادت تقول: «هل رأيته؟؟».

- «لا..».

- «الناس يصنعون الخرافات والأكاذيب.. ثم يصدقونها.. محمد رجل كسائر الناس.. أوتى قدراً من الذكاء والحنكة.. لكن الذكاء والحنكة لم يعصما أحداً من القدر.. تلك هى القضية ببساطة.. أتفهمنى؟؟».

- «أليس نبياً؟؟».

- «لو كان كذلك لما كان هناك ضرورة لهذا العناء.. النبى لا يولد إلا فى بنى إسرائيل.. أو على الأقل يؤمن بما يؤمن من

به بنو إسرائيل . . لكن محمداً سفه أحلام اليهود والنصارى على السواء . . الحق الكامل عنده وحده . . انظر لو كان نبيًا لما ظل هذه السنوات الطوال ينافح عن حياته وحياة من معه . . الله قادر على أن يهبه النصر والتفوق الكامل فى لحظة . . هذه الأمور لا دخل لك فيها . . يكفى ما أقول لك . . وسيزداد إيمانك بما أقول عندما تراه قد سقط بين يديك . . دع هذا التفكير . . إنك مقدم على عمل كبير، وفى مثل هذه الأمور لا يصح أن يخالجك أدنى شك، أو تعتورك الهواجس والظنون، كثرة التفكير والشكوك مدعاة للفشل . . لن تأخذ بيدك إلى حقيقة بل ستجرك إلى الهزيمة والضياع . . كن حاسمًا وانطلق، واسحق كل نوازع التردد . . وحشى بن حرب فعل ذلك . . إنه الآن سيد من سادات مكة . . اسمه يتردد فى آفاق الجزيرة كلها . . أتفهمنى؟؟ والليلة سيكون لقاؤنا حافلاً بكل متعة رائعة . . أيها المحروم طول حياتك . . إننى أفتح أمامك عالمًا بهيجًا ما كنت لتجد الطريق إليه طول حياتك، ، لم آنف منك لأنك عبد . . رأيت فيك إباء السادة وكبريائهم . . فلا تحن إلى ماضيك التعس . . كن سيداً . . وسر فى الطريق، لا تنتظر أن أحداً يستطيع أن ينهض بك . . أنت وحدك القادر على صنع مستقبلك ومركزك . . وليلتنا هذه ستكون ليلة وداع . . لأنك مسافر غداً . . وسلام بن مشكم يعرف ذلك . .

أنت الآن أعز لديه من كنانة بن الربيع . . هذه فرصة العمر . . وليلتنا هذه أروع ما فى الزمان . . الشوق والوداع وأحضان امرأة متمرسة فى فنون الحب والسياسة . . ».

دار رأسه . .

زاغت نظراته . .

شعر بضجيج هائل يشحن الوجود.

– «يا إلهى . . إن رأسى يكاد ينفجر يا مولاتى . . ».

– «أيها المسكين، إنك فى حاجة إلى بعض الراحة . . الآن تستطيع أن تذهب . . ».

□□□

الفصل [١٢]

- «دعنى أذهب إليــه، وأغــرقــه بالوصــايا وأمنيــه بالأمنيات. . ».

هذا ما قالته زينب بنت الحارث لزوجها قبيل الفجر، فرد عليها سلام بن مشكم دون اكتراث: «حسنًا اذهبى إليه. . لا تكثرى من النصائح. . إن كثرة الكلام ينسى بعضه بعضًا. . لو كان حقًا مؤمنًا بما يفعل، فسيقضى ليله ونهاره يفكر ويدبر، أما إذا كان غير جاد فلن تغنى نصائحك شيئًا. . ».

وخرجت، وما إن التقت بفهد منفردًا حتى بادرته قائلة: «هل أعددت كل شىء؟».

قال فى انفعال واقتضاب: «أجل. . ».

- «أنت تعــرف. . هذه بداية تاريخ مــجـيـد، وحــيــاة جديدة. . ».

- «أدرك ذلك. . وأعــرف أنهــا مــهــمــة مــحـفــوفــة بالمخاطر. . ».

- «لن أخدعك . . إنها كذلك ، لكن تحسن الطريق ، والحذر الممزوج بالحزم والشجاعة ، تجعل من الأمر بسيطًا غاية البساطة . . » .

وسددت إليه نظرات ثاقبة وهى تقول : «إن قاتل محمد ستطبق شهرته الآفاق . . » .

- «المهم أن أعود إليك سالمًا . . » .

- «إنى أحرص عليك منك . . تعرف كم أحبك . . ما أحببت مخلوقًا قط مثلك . . قد تتساءل :

إذا كنت تحبيننى فلما تقحميننى فى هذه المخاطر ؟ ؟ السبب بسيط وهو أننى أريدك بطلاً . . أريدك الصورة المثلى لرجل أحلامى . . وأنا عربيدة الجسد والفكر والشعور . . تلك حقيقة . . لا أرض بغير قتل محمد . . إن ذلك صداق حبنا الكبير لسوف يكون حبنا قصيدة عصماء يترنم بها العرب فى البوادى والحضر . . » .

واقتربت منه ، وتلاصق جسدهما ، وسرت بأناملها اللدنة على عنقه الطويل . . وشعره وبروزات وجهه ، ثم ضمته إلى صدرها فى عنف . .

- «لو لم تعد إلىّ سالمًا لقذفت بنفسى من فوق الجبل . . لا

يهمنى قتل محمد وحده . . بل لابد أن تنجو من أى خطر . . كلا الأمرين بنفس الدرجة من الأهمية . . ».

قال فى ارتجاف : «وإذا فشلت وعدت بخفى حنين . . ».

- «إن حبيب قلبى لن يفعل ذلك . . حبى لك سيحملك على أجنحة النصر الباهر . . إننى واثقة مما أقول . . لكن تأكد أن حبى يتأثر بأية أحداث طارئة . إنه فوق النزوات القدرية . . ».

ثم عادت تقول : «فلتمضِ . . وسيصحبك خادم عجوز . . أنت منذ الآن سيد . . وحذارِ أن تكشف عن نواياك لأحد . . لا تسقط بلا ثمن . . الكتمان نصف النجاح . . والله يرعاك . . المجد يا فهد لا تصنعه الصدفة . . إنه جهد وعرق وتضحيات . . والذين يفكرون كثيراً ويترددون ، أو يحاولون أن يقيسوا تصرفاتهم بالمقاييس الخلقية العتيقة لا ينجحون . . كن قويًا جسوراً فتنتصر وتبعث الرعب فى قلب الأعداء ، أريد رجلا حراً شجاعًا لا أريد عبدًا خنوعًا ذا نقائص . . لقد وهبتك أعز ما أملك ، فلتهبنى بعض ما تملك . . والحب عطاء . . ».

جرى صوب راحلته ، وهى ترمقه عبر العتمة بعينين تتألقان بانفعالات خبيثة . .

ومضى كالمنوم فى الطريق الذى رسم له . .

في الوقت نفسه . . كان كنانة بن الربيع في بيته ثائراً متوعداً، وزوجه صفية بنت حيي بن أخطب تقف قبالته شاحبة الوجه . .

وقال كنانة ووجهه محتقن: «إنني على استعداد لأن أدفع كل ما أملك كي أعرف ما يعتمل في نفسك . . ».

- «إنك يا كنانة تحمل الأمور فوق طبيعتها . . لا شيء هناك سوى ذلك الحزن الذي يعتمر فؤادي . . ».

- «وكيف أصدقك؟؟ إنك زوجة وترفضين أن تمنحي زوجك بعض حقوقه . . لقد مللت الصبر . . ».

ثم قال في ثورة: «هل هناك رجل آخر؟ أقسم لو صرحت لي بحقيقة الأمر لأرتاح قلبي . . » هي تعلم أنه يكذب، لو كان هناك رجل آخر، وتأكد له ذلك لحطم جمجمتها . . وعادت إلى خيالها تلك الرؤيا الغريبة . . ذلك القمر القادم من يثرب . . والذي شق السماء والسحب والظلام وأشرق في حجرها . .

قالت في شرود: «محمد!!».

وضج بالضحك المتوتر وهدر: «محمد هو الذي يحول بيني وبينك؟؟».

- «كيف؟؟».

أفاقت لنفسها، وارتبكت لم تدر ما تقول، لكنه عاجلها قائلاً: «تقصدين أنه تسبب فى قتل أبيك، وجلب لك الأحزان.. حسنًا، إننا نعد أنفسنا لحربه فى الأيام القادمة كما تعلمين.. وسيكون ثأر أبيك عنيفًا رهيبًا.. وسألقى تحت قدميك برأسه..».

ونظر إلى وجهها، لم يشرق بالفرحة كما توهم.. ولم تومض فى عينيها الحزينتين ومضات الشراسة وشهوة الانتقام، إنها لم تزل جامدة شاردة تهيم فى عالم غامض يزيد كنانة حنقًا وثورة..

وعبر صمتها الممتد أخذت تقول: «لماذا لا تعجلون بالحرب؟؟ الظلام يثقل على القلوب. والتوتر يرجف القلوب والعقول، هذه حياة لا تطاق.. إما الموت أو الحياة.. هذا العذاب ألعن من الموت، لقد رفضتم إبرام اتفاق سلام مع محمد فماذا بقى؟؟ لقد فقدتم الحسم منذ زمن بعيد..».

شعر كنانة بغير قليل من الارتياح، وأخذ يقول: «إن كلماتك قد صورت الموقف أصدق تصوير.. لكن نحن لا نتعمد التأخير والتلكؤ.. كنا ننتظر نجدة من الروم أو الفرس، وننتظر نجدة من غطفان.. إن الضربة القادمة تحتاج إلى

إحكام. . أن خيبر هى آخر سهم فى جعبة اليهود. . لكننا اضطررنا لسرعة الحركة عندما علمنا بالحشود التى يعدها محمد، ولن تمر أيام قلائل حتى يحتدم الصدام ستجدين راياتنا تخفق حول يثرب، ومحمد محصور لا يستطيع الإفلات، ومن يدرى قد يخف إلينا العرب من كل مكان. . وقد تنقض قريش «صلح الحديبية». .

شردت بنظراتها مرة أخرى إلى بعيد. .

- «إذن ستحسمون الأمر خلال أيام قليلة. . ».

- «بكل تأكيد يا صفية. . ».

- «هذا رائع. . عندئذ ينجاب الظلام، وتنطوى الأحزان. . وننظر إلى السماء فى الليالى القمرية. . ويسود السلام، وتسكن النفوس. . هيهات إن الشقاء الذى أعانيه الآن ينوء به أقوى القلوب فى خيبر. . ».

هز رأسه فى أسى وقال: «آه. . إن حقدك قد تحول إلى حزن صامت مقيت. . أما زينب بنت الحارث فلها شأن آخر. . حقدها قد تحول إلى طاقة مدمرة من العمل والتفكير. . تصورى أنها سوف ترسل اليوم عبداً من عبيدها لقتل محمد!!».

هتفت فى دهشة: «ماذا؟؟».

- «أجل . . ليت لك من الجرأة والعزيمة نصف ما لها، إنها امـرأة ذات شـرف وكـبـرياء، إننى أحـسـد سـلام بن مـشكم عليها . . ».

عاد إليها شيء من السكون، وأخذت تردد: «هذا هراء . . لقد ثبت فشل مثل تلك المحاولات، ولم تجر على اليهود إلا الوبال، لو كنت مكان زوجها لصفعتها على وجهها . . ».

- «كيف؟؟».

- «إنهـا نـصف مـجنونة . . أنا لا أرتـاح لأفكارها ونزواتها . . ».

- «ماذا فيها؟؟ إنها تسعد زوجها، بل وتقحم نفسها فى اجتماعات الرجال، وتشارك بالرأى . . لقد أثبتت الأيام أنها أقوى من الضعف والحزن . . ».

ثم استدركت قائلة: «حذار أن تظن أننى أغار منها، ما تمنيت قط أن يكون لى ما لها من «فضائل» ما استطعت فى يوم من الأيام أن أطرب لأفكارها أو سلوكها . . إنها خربة الرأس متسرعة لإثبات لقيمها . . هذا شيء نعرفه نحن . . وقد يخفى على الرجال . . ».

وساد خيبر هرج ومرج شديدين . .

الشمس لم تشرق بعد، لكن مقدمات الضوء قد بددت

الكثير من العتمة، وأبانت عن معالم الأشياء . . لكن عدداً كبيراً من المزارعين ومعهم إبلهم وأغنامهم قد عادوا مذعورين صوب خيبر، ووسط الضجيج الصاخب . . كانت هناك كلمتان تترددان : «محمد . . وساد الرعب فى كل المكان . . وصعد الرجال والنساء فوق الحصون والأماكن العالية وأخذوا ينظرون صوب الجنوب عبر النخيل والزرع . .

ولم يعد هناك مجال للشك أو التخمين . .

إن محمداً ورجاله يعسكرون حول خيبر، ويسدون منافذها . . وخرجت زينب بنت الحارث مربدة الوجه، عيناها تطرفان فى قلق وتهتف فى حقد بالغ : «ماذا جرى؟».

وقبل أن يجيبها أحد، لمحت «فهد» يقدم مهرولاً تاركًا خلفه راحلته والخادم العجوز، وظلت زينب جامدة فى مكانها، وعندما اقترب منها . . صرخت : «أيها النذل الحقير . . ».

- «ليس الذنب ذنبى يا مولاتى . . ».

- «هل رأيتهم؟؟».

- «أجل . . محمد و . . . ».

صاحت : «كفى . . لا أريد أن أسمع اسمه . . ».

- «إن الأقدار هى التى أفسدت مخططاتنا . . ».

- «لا دخل للأقـدار فى شىء من هذا . . نحن حـمـقى وكسالى . . » .

- «المجـد يأبى أن يمـد يده لتـعس مـثلى . . أنا أعـرف ذلك . . » .

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة شاحبة ثعبانية وتمتمت : «تستطيع أن تبحث عن المجد هنا . . ستدور على أرض خيبر رحى حرب ضروس لم يسمع محمـد بمثلها قط . . والنصر لنا . . » .

قال فهد فى خنوع : «هل تغير قلبك نحوى؟؟» .

دفعته فى صدره دفعًا عنيفًا وهى تصيح : «أهذا وقت الغزل أيها الحقير الأبله؟؟» .

طأطأ رأسه حزينًا ، وهم بالانصراف ، لكنها أمسكت به ، وأخـذت تدقق النظر فى وجـهـه ومـلامـحـه ، ثم قـالت : «لو تفوهت بحرف واحد عما كان بيننا لـ . . . » .

قاطعها فى خضوع : «أعرف ، ولن أفتح فمى . . لأنك أعز لدىَّ من أى مخلوق . . وأنا . . أحبك» . .

قالت وهى تضحك فى جنون : «قسمًا لئن هزمنا محمدًا ، لأغرقتك فى متعة ما حلمت بها قط . . هذا نذر علىّ . . اذهب وابحث لك عن سلاح . . » .

وبقى فهد وحده يفكر :

«أيبحث له عن سلاح؟؟ لماذا؟؟ عن أى شىء يدافع؟؟» .

لأول مرة تطن هذه التساؤلات فى ذهنه . . لقد انتصب الخطر خارج الأسوار . . وبعد قليل تنهمر الدماء، وتتعانق السيوف، ويسقط الرجال، وخيبر تدافع عن زروعها ونخيلها ودينها، وتثأر لشقيقاتها، ومحمد يحمى دينه، ويفتح الطريق لدعوته، ويضرب من هموا بضربه واغتياله . . وأنا فهد . . من أكون؟؟ أنا شىء كالطفيليات فى حديقة مولاى . . أنا أداة . . هل كنت سأذهب حقيقة لقتل محمد؟؟

وسمع فهد مولاه «سلام بن مشكم» يصدر أوامره لمن حوله كقائد : «أدخلوا الأموال والعيال حصنى «الوطيح» و«السلام» وأدخلوا المحاربين حصن «نطاه» وضعوا بعض القوات لدى حصن «ناعم» و«القموص» و«الزبير» واستعدوا لحرب لم ترَ لها العرب مثلاً . . » .

وتمتم فهد : «ترى فى أى حصن أذهب؟؟» .

فسمع من خلفه عبداً من عبيد مولاه، يقول بصوت رفيع مميز : «اذهب إلى حصن العيال . هناك ستجد زينب . . » .

وولى هارباً وهو يقهقه :

□□□

الفصل [١٣]

استقبلت مكة «صلح الحديبية» بغير قليل من الارتياح، بل إن بعض بيوتها سعدت به أيما سعادة، فالذين لهم إخوة أو أبناء أو آباء تبعوا محمداً، نالوا قسطًا من الطمأنينة، فالحرب لن تنشب طوال مدة العهد، ولن يواجه الابن أباه فى معركة دامية من أجل العقيدة وحمايتها، وأولئك الذين تستروا وأخفوا إسلامهم رضوا بما حدث انتظاراً لفرج الله حسبما وعدهم الرسول، ورجال المال والتجارة كانوا أكثر الناس رضى بهذا الاتفاق، فقد فتح أمامهم الطريق الآمن مرة أخرى إلى الشام، وبالتالى ستنشط الأسواق، وتنتعش حركة المال، وسينعكس ذلك كله على التاجر الكبير والحمال الصغير سواء بسواء، أى أن الفائدة ستعم القاصى والدانى، لكن بعض المتحمسين والحاقدين قد انتابهم غم شديد، فقد رأوا فى هذا الاتفاق رفعًا لشأن محمد بين العرب، إذ إنهم فاوضوه مفاوضة الند للند، كما أنه سيجد فرصة كى يرتب أموره، يزيد من أتباعه، ويتفرغ لنشر دعوته، وتقوية صفوفه. والحاقدون

أيضًا يكرهون الانتظار، إنهم لا يستشعرون الراحة والرضى إذا رأوا الصراع يحتدم، والدماء تسيل، وعدوهم ينزوى كى يلعق جراحه، لكن صوت العقل كان أقوى من صوت العواطف النافرة الحاقدة، فانصاعت مكة للوضع الجديد عمومًا ورضيت به.

ولم يكد يمر على عقد الصلح شهر أو أقل من شهر، حتى تواترت الأنباء عن حرب مكة والوقوع بين محمد واليهود فى خيبر، وقد حظيت هذه الأنباء باهتمام بالغ، وأخذ صداها يتردد فى الأندية والمسامر، وأصبحت حديث الجميع فى البيوت، وحول الكعبة، وفى الأسواق، لم يقابل صراع محمد وخيبر بمثل ما قوبل به صراعه فى بنى النضير أو قريظة، فالجميع يعرفون أن خيبر لها ميزات كبرى تجعل لها التفوق الكاسح، ففى خيبر المحاربون الأقوياء، والقادة الأذكياء، وفيها المال الوفير، والمؤن الكثيرة، وفيها الوعى الكامل بدورهم الخطير إزاء الأحداث، معقل اليهود الأخير فى الجزيرة وعليهم تتركز الآمال، وفيهم من فروا من أرض قريظة، وبنى قينقاع وبنى النضير، أولئك الذين اكتووا بنيران الذل والهزيمة وخيبة الأمل فلم يتخذوا منهما عبرة، بل اعتبروا الكارثة السابقة لهيبًا يذكى أحقادهم ويملأ قلوبهم بالعزم والإصرار على أخذ الثأر، وفى خيبر بقايا من أسرة

حيى بن أخطب ذلك الذى قضت عليه سيوف المسلمين، بل إن بنت حيى بن أخطب صفية هى زوجة زعيم خيبر البارز كنانة بن الربيع.

وفى مجلس من مجالس الطرب والشراب، مال عكرمة بن أبى جهل على خالد بن الوليد بعد أن كف الضجيج، وفرغت الكئوس وقال عكرمة: «يا ابن الوليد.. ألم أقل لك: إن صلح الحديبية سيكون ضربة لنا فى الصميم؟؟».

- «كيف؟؟».

- «هادننا محمد بالأمس ليميل على اليهود غدًا.. والحرب تدور رحاها الآن فى خيبر، ومحمد آمن تمامًا، ولن يطعنه أحد من الخلف.. لو انتصر عليهم محمد، فسيكون ذلك هزيمة كبرى لنا..».

قال خالد: «لسنا طرفًا فى النزاع..».

- «أعرف.. على الأقل حاليًا.. عندما تنتهى الهدنة.. يكون محمد قد فرغ من كل أعدائه ولن يبقى سوانا.. الحق أننا طعنا اليهود إذ عقدنا صلح الحديبية.. لكن..».

قال خالد وهو يستمع فى اهتمام بالغ: «ولكن ماذا؟».

- «ليس الأمر بالسهولة التى أتحدث بها.. أعنى أن خيبر لن تهزم..».

- «وما تفسيرك لذلك؟؟».

- «وخيبر قلعة حصينة، وبها إمكانيات لا تنفذ..».

- «أعرف..».

- «ولذلك فإنى أراه على أن محمدًا ورجاله سيهزمون..».

- «سيهزمون؟؟ هذا ما أشك فيه..».

«أتعتقد ذلك القائد؟؟»

- «أجل..».

- «بل سيعجز المسلمون عن اقتحام أسوار خيبر وقلاعها.. سينبثق الموت فوقهم كلما هموا بالدخول، ولا طاقة لمحمد ورجاله على حصار طويل قد لا يؤدى إلى نتيجة».

قال خالد فى شىء من الشرود: «كل ما أعرفه أن محمدًا يحسب كل شىء بدقة، ورجاله لا يعوزهم الإصرار واقتحام المخاطر..».

- «سنكثر ضحايا المسلمين دون فائدة..».

- «أحيانًا يا عكرمة يلجأ محمد إلى الحرب الخاطفة، وأحيانًا أخرى يتسم بالأناة على النضال الطويل.. إنه يلبس

لكل حال لبوسها ولا ييأس أو يتقاعس . . ولنا فى بنى قريظة وبنى النضير عبرة . . لم تقف القلاع والحصون والعدة والمخزون من الطعام والماء حجر عثرة فى سبيله . . » .

قال عكرمة بن أبى جهل فى إصرار : «أقسم إن خيبر ستقهر المسلمين . . أتراهن على ذلك؟» .

– «إن تمحيصى للأمر يعطينى نتيجة غير التى تتصورونها . . » .

– «أنا لا أجدف ، ولكنى أقيم تصورى على أسس عقلية متينة . . » .

– «لندع هذا الأمر حتى الصباح . . » .

ولوح عكرمة بيده فى حماس قائلاً : «وغطفان ستساعد خيبر . . » .

– «لن يغير ذلك من النتيجة المرتقبة . . . » .

– «ولدى اليهود دائمًا حيل ومكائد لا تنفذ . . » .

– «الأمر أكبر من ذلك يا عكرمة . . » .

– «كيف؟؟» .

– «آه . . لقد التحمت مع المسلمين كثيرًا أنت تعرف ، أتذكر يوم «أحد» . . آه . . إن للحرب عندهم مذاقًا خاصًا . .

فهم يستشعرون متعة كبرى، وهم يصارعون ويسقطون. . أما نحن فنتحرك فى توتر، ونندفع فى حقد، والذى يسقط يشعر بحزن عميق قاتل يرافقه فى رحلة الموت المضنية. . هناك شىء غير القلاع والحصون والعدد والعدة، والمكائد والحيل. . إننا أمام ظاهرة من ظواهر الحياة فريدة. . فى يثرب رجال أمرهم عجيب. . ألم تفكر فى الأمر من قبل؟؟».

قال عكرمة فى شىء من الضيق: «بل كنت أفكر دائمًا. . رأيت رجالاً يهزمون وينتصرون، ويخافون أو لا يبالون. . شأنهم شأن باقى الناس. . وفى رجالنا رأيت صورة مشابهة لذلك. الناس فى يثرب أو فى مكة بشر. . أما هذه الصورة المثالية التى تتوهمها لرجال محمد فهى صورة غير صادقة. .».

قال خالد فى شىء من الملل: «إنك ترفض أن تفتح عينيك وعقلك جيدًا. .».

- «ما معنى ذلك؟؟».

قالها عكرمة وابتلع ريقه، ثم استطرد: «أنت معجب برجال محمد ومبادئه. .».

قال خالد دونما اكتراث: «لك أن تتصور ما شئت. . لكن الذى يهمنى فى الأمر هو أن تفهم عدوك على حقيقته. .» كى

تعرف كيف يفكر . . وكيف يحارب، والأسس التى ينطلق عليها، والغاية التى تحركه، وعندما تفهم عدوك يا عكرمة، تستطيع أن تستنبط الوسائل المناسبة لدحره، أو إفساد تخطيطاته . . أتفهمنى؟؟».

قال عكرمة، وهو يمسك بيد مرتجفة كأسًا من شراب: «ستنتصر خيبر . . ».

قال خالد باسمًا: «سيهزم اليهود . . ».

- «اليهود لن يستسلموا هكذا بسهولة فى آخر معقل لهم . . ».

- «ومحمد لن يترك مكمن الخطر الدائم يهدده، لقد حشد اليهود له وكانوا على وشك الانقضاض على المدينة . . ».

قال عكرمة مهتاجًا: «ستنتصر خيبر . . ».

- «بل ستُهزم . . ».

- «أتراهن؟؟».

- «أراهن ياعكرمة . . ».

- «على خمسين ناقة . . ».

- «موافق . . ».

وهكذا كان شأن مكة، نقاش لا يهدأ، ورهانات فى كل مكان، واهتمام شديد بما يجرى فى الشمال، وتحسس للأنباء فى كل مظانها، وخروج ذوى الفضول من أهل مكة مساءً وصباحًا إلى مشارف البلدة يستقبلون المسافرين، ويتنسمون الأخبار فى لهفة عارمة، وقلق بالغ.

قال أبو سفيان لزوجه هند وهو يأوى إلى فراشه: «يا للعجب!! استطاع محمد أن يشغل أذهان العرب بحكاياته وأيامه وأفكاره.. ليس فى مكة بيت إلا ويتحدث عن معركة خيبر».

قالت هند وهى تحدجه بنظراتها الحانقة: «إن حماقتنا هى التى مهدت له الطريق..».

- «ليس الأمر كما تتوهمين. لم ندخر وسعًا فى مناوءته..».

قالت ساخرة: «ولم تدخروا وسعًا فى مراضاته، وطلب الصلح هل نسيتم صلح الحديبية؟؟ يا للعار..».

- «لم نسع إلى صلح الحديبية جبنًا.. لكننا فى الحقيقة كنا فى حاجة إليه.. لو لم يفتح طريق التجارة إلى الشام لعم الفقر، وضج الناس بالشكوى، بل لربما ضاقوا ذرعًا بنا وبتصرفاتنا وهرولوا إلى محمد يعرضون إسلامهم.. إننا لا

نسلم لمحمد بأية رغبة إلا إذا تأكدنا من ضرورتها لنا، ونفعها لأهل بلدتنا.. إن السياسة شىء آخر غير التهور..».

قالت فى ضيق: «وصرخات الدم الذى أراقه محمد؟؟».

- «تتحدثين كامرأة فقدت حياتها».

- «وأنت؟؟ ألم تفقد أعز ما لديك؟؟».

- «أنا لا أنظر إلى الأمر يا هند من زاوية شخصية.. هنا جموع الناس ومسئوليتى عنهم.. قلت ذلك من قبل.. ما أشد ما آلمنى على فقد حنظلة.. وفقد عتبة وشيبة وغيرهم.. إن أمير القوم يعتبر الناس جميعًا أبناءه، وإلا امتلأت قلوبهم بالحقد عليه، وانصرفوا عنه..».

قهقهت فى غيظ: «تتكلم كنبى.. الجميع فى هذا الزمان يحلمون بأن يكونوا أنبياء..».

- «أتسخرين منى؟؟».

- «آه.. ذلك الرجل الذى لعب بكم، وحطم كبرياءكم، وجعلكم مادة للهزء والسخرية فى طول الجزيرة وعرضها.. وامصيبتاه.. لسوف يأكل اليهود.. ثم يستدير نحوكم..».

- «لن ينقض محمد صلحه..».

- «ولن يعدكم الأسباب يا أبا حنظلة..».

قال فى شيء من الضيق : «ولم تسبقين الأحداث؟؟ انتظرى لعل أمرًا ما يحدث فى خيبر . . إن خيبر خصم عنيد . . » .

اقتربت منه فى لهفة وقالت : «أتعتقد أن اليهود سينتصرون؟ إن لك تنبؤًا بالأحداث كثيرًا ما يصدق . . قل الحق . . » .

– «ليس من السهل الحكم على أمر كهذا . . » .

– «إنك تتعمد إغاظتى . . » .

– «اليهود لن يُهزموا بسهولة . . » .

– «ومحمد؟؟» .

قال أبو سفيان : «لن ينتصر بسهولة أيضًا . . » .

– «لا تراوغ . . أينتصر أم يخسر؟؟» .

– «الحق أننى عاجز عن التنبؤ . . » .

أخذت تدق الأرض بقدميها فى حنق وتقول : «الجميع يتخبطون . . ليس هناك أحد فى هذه الديار قادر على أن يجزم برأى . . هذا هو الضياع بعينه . . آه لو ملكت زمام الأمور فى هذا البلد . . » .

قال أبو سفيان مداعبًا : «تصورى أنك صاحبة الأمر والنهى فماذا تفعلين؟؟» .

قالت وعيناها تنظران إليه في حقد وحشي: «أنقض على المدينة الآن وبدون إبطاء.. وأبدد شمل من فيها وأدعو العرب من كل الأطراف على وليمة دموية في أنحاء يثرب..».

هز رأسه في ابتسامة خافتة وقال: «النساء والشعراء.. لا يصلح أي فريق منهما لسياسة الأمور..».

ثم استدار نحوها وقال مؤنبًا: «ألم تفكري فيما قد يحدث من هزيمة؟؟ الاحتمال الوحيد عندك هو النصر.. ألم تتصوري القتلى وهم مطروحون على الرمال تنهشهم الطيور الجارحة؟؟ والصلح؟؟».

صاحت في حيرة: «الموت أهون من الرضى بالذل..».

- «أي ذل يا امرأة.. نحن أحرار في بلدنا، ولقد أملينا شروطنا في صلح الحديبية..».

قالت ساخرة: «ولماذا نزل القرآن على محمد قائلاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

إنهم يعتبرون الصلح الذي تم انتصارًا باهرًا..».

- «لست أدري من أصدق؟؟».

ثم تمتمت في هدوء عاصف: «لسوف تنتصر خيبر..».

تنهد قائلاً: «أرجو أن تتحقق آمالك..».

- «ونحن كذلك».

- «أتراهن على ذلك؟؟ مائة من الإبل..».

ابتسم أبو سفيان وقال: «خذى كل شىء ودعينى أنم يا هند..».

همست: «تنام ملء جفنيك.. وأنا أستلقى على ظهرى مفتوحة العينين.. أخترق السقف بنظراتى وأجوب آفاقًا كثيرة نائية.. وأظل أحلم.. وأتصور أمورًا كثيرة.. وأحاول أن أمارس فى الأحلام ما أعجز عن تحقيقه فى اليقظة.. حتى تهدأ أعصابى ثم أنام..».

قال دون اكتراث: «لسوف تصابين بالجنون..».

دفعته فى صدره حانقة، ثم انصرفت عنه..

□□□

الفصل [١٤]

تمتم كبير المنافقين عبدالله بن أبى قائلاً لنفسه: «إنه عذاب من نوع غريب لا يستشعره غيرى.. فبينى وبين نفسى أمقت محمداً، وأحنق على دعوته وانتصاراته، وأمام ابنى والناس، أظهر الخوف على محمد، وأتظاهر بإسداء النصح له، وتبصير رجاله بما يجب أن يفطنوا، لكم تمنيت أن أجد المناخ المناسب الذى يبدو فيه ظاهرى كباطنى، وأن أعبر عما يجيش فى صدرى دون حرج.. وأنا بين المقت الخفى، والحب الظاهرى أقاسى العذاب.. لماذا لا أقف على ملأ من الناس وأطلق كلمة الحق التى أعتقدها صريحة مدوية وليكن ما يكون، وفى المدينة مسلمون وكفرة، ولكل واحد موقف.. لا أنكر أننى أطرب وأسعد للدس والخديعة والتآمر، ولا أنكر أيضًا أننى أؤدى دورًا كبيرًا فى سبيل الغاية العظمى التى أعمل لها.. لكنى مع ذلك حزين، وليس مرد حزنى إلى ما ينتابنى وينتاب حلفائى من فشل.. لكن مرده إلى الحيرة بين

الصراحة والجبن . . بين الانكشاف والانطواء . . بين الشك واليقين . . واعذاباه!!».

ونطق آخر كلمة بصوت مسموع ، وقد تصادف دخول زوجه فى ذلك الوقت ، وعندما سمعته يقول ذلك هتفت : «ماذا جرى؟؟».

- «لا شأن لك بما أقول . . ».

- «ألست زوجك؟؟».

- «كلكم أعدائى . . ».

أدركت ما يرمى إليه ، فقالت فى ضيق : «كلهم ذهبوا لحرب اليهود . . وقعدت أنت . . لو رأيت الفرسان يتيهون فوق جيادهم والسيوف فى أيديهم . . لطرت إليهم . . ».

قال فى صوت أجش : «أو عهدتنى لم أخاف الحرب ، أو أنكص عن التضحية؟».

- «وما قيمة الشجاعة إذا لم تصل وتجل لأشرف غاية؟؟».

- «وهل تسمين الدم والحرب والخراب غاية شريفة؟».

قالت فى حدة : ماذا جرى لك يا رجل؟ ألم تعلم أن اليهود كانوا على وشك الهجوم على المدينة ، ومعهم رجال من غطفان ، وكان الرومان والفرس على وشك الاتفاق

معهم؟؟ فإذا فكر محمد فى حماية مدينته وجيشه ودعوته، وضرب المتآمرين قبل أن يبكروا إليه، وجهت إليه اللوم؟؟».

قال فى شرود: «عيبك أيتها الحمقاء أنك تصدقين أى شيء..».

- «إن قصة اليهود مع الرسول حلقات متصلة من الغرور. أنت تعرف ذلك..».

- «دعى ما فات. ماذا فعلت خيبر؟؟».

- «أنت نفسك أخبرتنى ذات مساء، أن تأديب المسلمين سيكون على يد خيبر. وأنا أصدقك. إن لك فى خيبر صداقات وطيدة. أنت تزورهم..».

قال وقد ارتجفت لحيته: «كنت أمزح..».

- «لكن المخلصين الذين يحملون الأنباء للرسول لا يمزحون..».

وعاد إلى شروده وأخذ يقول: «تتهمينني بالقعود والكسل.. وهل نسيت أن محمداً قال: لن يخرج معى إلا من شهد «صلح الحديبية» وبيعة الرضوان؟؟ فكيف أخرج معه؟؟».

ابتسمت وسددت إليه نظرات عاتبة وقالت :

- «لم لا تكمل كلامه؟؟ إنك تنتقى من الكلام ما يؤيد وجهة نظرك دائمًا . . لقد فتح محمد الباب لمن يريد الخروج على ألا ينال شيئًا من الغنائم . . إن السابقين الأولين الذين خرجوا إلى الحديبية، وبايعوا محمداً على الموت أولى بالتكريم والإعزاز . .» .

قال ساخراً : «أأخرج وأحارب بلا غنائم؟؟» .

- «لم لا تخرج من أجل الله كما خرج غيرك؟؟» .

- «لم يندبنى الله لأمر كهذا . . إن ترك اليهود لن يؤدى إلا إلى ضرر بالغ . .» .

- «ها نحن نعود إلى الجدل العقيم من جديد . .» .

جذبها من كمها، وحدجها بنظرات مخيفة وهتف : «سيعود المسلمون مخذولين منهزمين . .» .

صرخت : «ماذا؟؟ إنك تهذى . .» .

قال فى اهتمام : «لقد رتبوا أمرهم وأعدوا لجيش محمد كمينًا لن يعود منه سالمًا . وهناك أبطال مغاوير ومال وسلاح وزروع . . وقوم لن يستسلموا . .» .

همست فى خوف وقد دق قلبها : «أى كمين؟ ولماذا لم تخبر الرسول به؟؟» .

قهقه في سخرية: «وهل سألني رأيي.. إنه دائمًا يطيع الصبية ويعصاني.. من أنا؟؟ أنا عبدالله بن أبي، أصفى الخزرج فكرًا، وأصوبهم رأيًا. وأبعدهم نظرًا.. لكن محمدًا يزعم أني منافق، إن خيبر سوف تلقن المسلمين درسًا لن ينسوه مدى الحياة إن بقيت لهم حياة..».

وفكرت المرأة، وأخذت تتصور ما يمكن أن يحدث لو أن هناك كمينًا منصوبًا، ماذا تفعل أتهرول إلى الشارع، وتخبر الناس بما سمعت، لعل أحدهم ينطلق بجواده محاولاً اللحاق بجيش الرسول، كي يحمل إليهم التحذيرات؟؟ لكن يقينًا من نوع رائع أنزله الله في قلبها، فقالت وقد هدأت نفسها: «في كل حرب كنت دائمًا تقول: إن محمدًا وجنوده سينهزمون».

- «أنا؟؟».

- «أجل.. وكانت النتائج دائمًا تأتي غير ما قلت..».

- «متى؟؟».

- «في بدر.. وأحد.. والأحزاب.. وبني قريظة.. وبني النضير.. وغير ذلك..».

- «يا حمقاء أنا لم أقل بالهزيمة، كنت أتحدث عما يجب أن يكون بصرف النظر عن الهزيمة والنصر.. إن النصر لا يعني أنني كنت على خطأ.. قد ينتصر المخطئون لكن ذلك ليس معناه أنهم سلكوا أعقل السبل وأسلمها إلى النصر..».

قالت فى ملل : «إن لك طريقة غريبة فى شرح الأمور، من يسمعك يظن أنك حكيم بعيد النظر . . ».

- «وهل أنا غير ذلك؟؟».

- «ليس لدىّ أسباب قوية لتفنيد دعواك، لكنى عندما أنظر إليك، وأستعيد تصرفاتك وحياتك . . أشك فى أى كلام أسمعه منك ربما تكون قد أوتيت براعة فى الحديث وقوة الحجة . . لكنى أشعر فى أعماقى بأنك لست على حق . . ».

ودوت صفعة على وجهها فجأة . .

- «ماذا تقولين يا خاسر؟؟».

وضعت يدها مكان الصفعة، وسددت إليه نظرات دامعة، وأخذت تفكر فيما قالت، لقد كانت كلماتها بالفعل جارحة قاسية، وهى لم تكن لتجرؤ على قول مثلها فى الزمن الغابر، لكنه على أى حال زوجها، والرجل والمرأة مختلفان، لكل منهما مكانته مهما كان الأمر . .

- «أعترف بأنى أسأت إليك؛ يا عبد الله . . ».

- «كما لم يسئ أحد من قبل . . ».

- «إنها سقطة لسان . . ».

قال فى انفعال: «ليس العيب عيبك . . لكنه عيب الدنيا . . كل شىء يتغير . . أسس كثيرة تنهار، وتخلى مكانها لأفكار ما

كان أحد يصدق أنها ستملى روحها على الناس. . العيب فى المبادئ الجديدة. . ».

جففت دموعها، وانطلقت تقول: «إنى أعترف بخطئى، وأعتذر إليك. . لكن. . ».

- «لكن ماذا؟؟».

- «لا تعرّض بمحمد. . ».

«أنا لا أتكلم عن محمد النبى. . بل أتكلم عن محمد البشر. . ».

أمسكت بيده فى ضراعة، وقالت متوسلة: «بالله عليك يا عبد الله لا تقل مثل هذه الكلمات. . إنك تنقد الرسول دونما تحفظ، وهذا يبعث القشعريرة فى جسدى، ويسرع بدقات قلبى، إنك تعرض نفسك لغضب الله. . وأنا أريد لك الخير يا عبد الله. . أنت زوجى. . لا تحاول أن تلتمس المعاذير لتصرفاتك، إن هذه التبريرات إذا أقنعتك أو أقنعت أحدًا من الناس، فلن تجدى عند الله فتيلاً. . كن شجاعًا واسحق أساك وأهواءك لتكن حكيمًا. . لكنك غير موفق. . لن تخسر شيئًا إذا وطدت عزمك على الإيمان بمحمد وبكل ما يفعل. . فإن يك كاذبًا فعليه كذبه، وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذى يعدكم. . لقد تعبنا من طول الجدل. . ».

قال فى شراسة: «أما أنا فلن أتعب حتى يطبق جفنى إلى الأبد، حتى الموت..».

قالت فى حزن: «واعذباه».

ضحك فى مرارة: «واعذاباه!! أنت أيضًا تقولينها.. كلانا يقولها لكن بطريقة تختلف عن الآخر..».

- «بل أقولها من أجلك يا عبد الله..».

- «وأنا أقولها من أجل المساكين من الناس الذين يذبحون الآن على أبواب خيبر..».

وسادت فترة صمت قالت الزوجة بعدها: «دائمًا نتجادل ولا ننتهى إلى شىء..».

- «لأنك امرأة عنيدة..».

- «بل لأنك رجل عنيد..».

ثم رفعت يديها إلى السماء، وقالت وقد تندت عيناها بالدموع: «اللهم اهد زوجى واشرح قلبه لنور الإيمان والإسلام.. واملأه بحب رسوله الكريم..».

قال وقد تجهم وجهه، وانتفش شعر لحيته: «لا تتضرعى من أجلى.. إن دعواتك كلمات فى الهواء.. إن بيدى مصيرى.. أتفهمين؟؟».

طأطأت رأسها، ثم استدارت وعادت من حيث أتت.

الفصل [١٥]

فى حصن «نطاه» احتشد أغلب المقاتلين من اليهود، وعلى رأسهم قائدهم «سلام بن مشكم» كانوا عدداً كبيراً من الرجال الأشداء الذين مارسوا الحرب طويلا، ونضجوا فى نيرانها الحارقة، وعنفها البالغ، ووقف سلام بن مشكم بينهم خطيباً:

«أيها الرجال الأبطال، لم يعد هناك مجال للتفكير أو البحث عن مخرج.. انتظروا العدو يحيط بكم من كل جانب.. ليس أمامنا سوى الحرب.. اقتلوا فى أنفسكم كل نازعة أمل فى حل سلمى.. واضربوا بقبضاتكم الحديدية كل فم تخرج منه فلسفات عقيمة عن الندم أو اليأس والصلح.. لا إلا بسواعدكم وبسيوفكم.. محمد ورجاله جاءوا مستقتلين.. إما النصر أو الموت.. وليكن هذا شعاركم، بل أنتم أولى بهذا الشعار من المسلمين.. فلو انهزم المسلمون للموا شعثهم واستنصروا بإخوان لهم فى المدينة.. أما أنتم فليس لكم أحد الآن ينصركم إلا عزيمتكم.. الحرب حتى الموت.. فما قيمة

الحياة فى ظل الهزيمة؟؟ إما أن يأخذونا عبيداً، أو يضربوا أعناقنا كما فعلوا فى بنى قريظة . . أو يقذفوا بنا فى قلب الصحراء حيارى أذلاء تائهين . . إن أعظم شىء ينقذكم وينقذ نساءكم وعيالكم هو التسابق إلى الموت».

هتف كنانة بن الربيع : «القول ما قلت يا سلام . . فو الله لن نكرر المأساة . . ولن ننزل من حصوننا مجردين من السلاح، مطأطئى الرءوس كما فعل تعساء بنى قريظة».

وقف الحجاج بن علاط تاجر اليهود المعروف وقال شاحب الوجه، مضطرب الأنفاس: «أفسحوا صدوركم قليلا، الوقت عصيب، وخير الكلام ما قاله سلام بن مشكم، نعم الرجل هو، لكن ألا ترون أن نصالح محمداً على نصف مزروعاتنا، ونحيا فى سلام».

انطلقت كلمات الاحتجاج من كل مكان، وناشته ألسنة السوء، وحاصرته النظرات الحانقة، ولوحت الأيدى المتوترة بسيوفها، وشعر ببصقات لزجة تضرب صفحة وجهه من كل اتجاه، وتمتم فى جزع : «إننى أعذركم . . ما دام هذا هو رأيكم فسأتقدم الصفوف».

وصاح سلام بن مشكم : «الحرب . . الحرب».

وتبعه هدير صاخب : «الحرب حتى الموت أو النصر».

وصاح أحد الجنود أسفل الحصن : «إنهم قادمون».

وساد هرج ومرج ، وتدافع يهود خيبر من حصن «نطاه» لملاقاة المسلمين .

وفى حصن «الوطيح» جلس بعض النسوة يشوبهن الوجوم والقلق ، وعيونهن ترمق المحاربين عبر النوافذ والكوات الصغيرة ، لا يصرفهن عن ذلك صياح الأطفال وضجيجهم ، ووقفت زينب بنت الحارث مشدودة القامة ، ثم دارت بنظراتها هنا وهناك حتى رأت صفية ابنة حيى بن أخطب وزوجة «كنانة» ، فمضت نحوها ، كانت صفية تجلس شاحبة الوجه ، شاردة النظرات ، وقد أسندت خدها على قبضتها اليمنى ، وبدت الكدمة بجوار عينيها زرقاء متورمة .

- «طاب صباحك يا صفية» .

رفعت صفية إليها عينين محتقنتين وتمتمت : «طاب صباحك» .

- «فيما تفكرين ؟؟»

- «أنت تعرفين . . وهل هناك شيء نفكر فيه سوى ما يجرى الآن» .

- «رجالنا يضربون فى شجاعة . . صيحاتهم تشق عنان السماء ، لم يتقهقروا قيد شعرة» .

قالت صفية: «كان فى الإمكان تجنب إراقة الدماء».

- «كيف؟؟».

- «لو لم نعتزم السير إلى محمد».

«هذه ترهات، كان لا بد من الحرب.. ولا مجال للنظر إلى الماضى الآن».

- «ومحمد يا زينب لا يرد طالب صلح».

هاجت زينب وماجت، وقالت محتدة: «أنحن الذين نتقدم بطلب الصلح.. الأقوياء يملون شروطهم بسيوفهم، ليس هناك شىء اسمه الصلح بالنسبة لهم. إنهم يصدرون أوامرهم فقط».

قالت صفية فى شرود: «القادمون من «يثرب» يعرفون الطريق جيداً، ويعرفون مشاقه».

- «وأبوك؟؟».

- «أبى؟ ماذا؟ لقد مات».

- «من قتله؟؟».

- «لقد اختار منيته بنفسه.. كان يعرف النهاية».

- «لكن محمداً أمر بضرب عنقه».

- «مات مصراً على رأيه، مرحبًا بالتضحية فى سبيله، أنا

لا ألوم أبى ولا ألوم محمداً، كلاهما كان ينشد النصر ويعمل له، وكان لا بد أن ينتصر أحدهما».

قالت زينب فى سخرية: «أعرف كل شىء.. أنت مطمئنة غاية الاطمئنان، فلو قدر لمحمد الفوز لاستطاع كنز بنى النضير الذى يستحوذ عليه زوجك إنقاذكم.. إنك مطمئنة على ما عندكم من ذهب، وتخافين عليه.. ولتذهب خيبر إلى الجحيم.. ولتذهب المبادئ والدين إلى أية داهية.. أيتها الطامعة!!».

- «احذرى أن تخوضى فى حقى».

-«ها.. ها.. من أنت؟».

- «أنا صفية».

- «وأنا زينب.. زوجة الرجل الذى يحمل اللواء وينافح عن شرفكم الضائع».

تغير وجه صفية، ورقصت عيناها فى اضطراب، وصرخت كمجنونة: «اخرسى يا ساقطة».

وتندى جبينها بالعرق الغزير، وأخذت تلهث من الانفعال، بينما جمدت زينب فى مكانها وقد هرب الدم من وجهها، وهمت بأن تنشب أظافرها فى عنق صفية، ولكن النسوة كن قد تكاثرن حولهما، وأمسكن بيد زينب، التى

انفجرت باكية، وأخذت تخمش وجهها بأظافرها، وتشد شعرها، وتصرخ فى لوعة.

وشعرت «صفية» بغير قليل من الندم، لقد طعنت المرأة فى أعظم ما تعتز به، وعلى مشهد من النسوة، وهذا لا يليق بها وبأخلاقها، ومن ثم هبت واقفة، ومضت صوب زينب، ووقفت أمامها وقد أنفضت من رأسها فى أسف، وقالت: «آسفة يازينب.. إنها سقطة لسان قبيحة.. كان ما حدث على الرغم منى، اعذرينى.. فأنا لم أنم دقيقة واحدة من الليل.. إنى جد متعبة».

وتبللت عيناها بالدموع، ثم أمسكت برأس زينب وقبلتها نادمة.. وعادت صفية تقول: «الرجال يموتون.. ونحن هنا نتصرف بلا عقل».

وردت امرأة: «لماذا لا نقيم الصلوات حتى ينصر الله رجالنا بدلاً من الجدل العقيم».

قالت زينب وهى تجفف دموعها: «وهل يقبل الله الصلوات من ساقطة؟».

ثم شهقت باكية مرة ثانية..

بينما قالت صفية: «أكرر اعتذارى يا زينب.. إن زوجك بطل مغوار، وأشهد الله أننى لم أرَ بعينى ما يسىء إلى شرفك».

قالت زينب، وقد أثلج قلبها حديث صفية الأخير: «الحاقدات كثيرات . . إنهن يغرن منى . . يردن أن يهدمن بيتى ويطلقن من حولى الأقاويل والشائعات . . لكن الجميع يعرفون من أنا، وزوجى يعرف من أنا» .

وأخذت النسوة يتهامسن : ماذا جرى؟؟ أية أقاويل وأية شائعات؟؟لا بد وأن فى الأمر سراً . . وأخذت العيون الفضولية تقيس زينب بنظراتها النهمة، بل أصبح سر زينب يشغلهن أكثر مما تشغلهن الحرب المحتدمة الأوار . . وتعالت صيحات الجند أكثر من ذى قبل، وانطلقت التكبيرات تصم الآذان، فجرت النسوة صوب النوافذ والكوات، لابد وأن حدثًا قد جرى، ترى هل انكسر اليهود؟؟

وأخذ البعض يهبطن السلم ويصعدن ثانية، ويتنسمن الأنباء، وأخيراً أتى أحد الحراس القريبين، واقترب من النافذة، وأعلن بصوت جريح : «لقد قتل القائد . . سلام بن مشكم» .

بقيت زينب مبهوتة لحظة، ثم صرخت وقد ران الصمت على الجميع : «مستحيل . . زوجى لن يموت . . مستحيل . . أنتم تكذبون» .

ثم انتزعت نفسها من بين أيدى النسوة، وهبطت السلم

مسرعة، وهي تقول: لا بد أن أرى بنفسي.. زوجي لا يموت.. سلام أقوى من الموت.. لقد وعدني بالنصر.. وبأن يقدم لي زوجات الرسول هدايا.

وعلى رأسهم بنت أبي بكر.. سيكنَّ لي سبايا.. هذا ما قاله.. إنني أذكر ذلك جيداً.. وسلام لم يكذب عليَّ ولم يخدعني.. إنه يحبني على الرغم من سفالتي.. إن زوجي أعظم إنسان في الوجود.. كيف يموت؟؟ أنتم تكذبون».

وشقت صفوف الجند، ومضت عبر السيوف والدماء والغبار وصيحات الحرب، لم يستطع أحد أن يمنعها.. يا لمصيبتها!! إن الراية في يد رجل غيره.. وعادت بعد فترة.. وصعدت إلى حصن الوطيح.. والنسوة يستقبلنها صامتات باكيات.. ثم ألقت بجسدها المنهك على الأرض، وهتفت في وهن: «لقد مات».

ثم تمددت على الأرض، وقد تصلب جسدها، وجحظت عيناها، وأخذت تضرب بيديها المتشنجتين وساقيها في الهواء، ومن فمها تنساب رغوة بيضاء، وتصدر عنها أنات طويلة عالية على الرغم من إغلاق فمها..

واقتربت صفية منها، وأخذت تدلك لها جسدها، وتسوى شعرها، وتمسح الزبد الذى يطفر من فمها . .

ولم تفق إلا بعد وقت طويل . .

كانت أشد إرهاقًا وشحوبًا . .

وتمتمت وهى تستغرق فى النوم: «أقسم برأسك . . بدمك . . لن أفرط فى ثأرك يا سلام بن مشكم» .

■■■

الفصل [١٦]

كان القتال مريراً قاسيًا، واستمات اليهود فى الدفاع استماتة كبرى، وقلت الأقوات لدى المسلمين، وطالت المعركة أكثر مما يجب، وأصدر الرسول أمره لجنوده بأن يأكلوا لحوم الخيل، ثم أمرهم بأن يهاجموا حصن «الصعب بن معاذ»، حيث إن به كثيراً من الأقوات، وقد استطاع المسلمون الاستيلاء على هذا الحصن وما فيه من طعام، واستعر القتال حتى سقط القائد اليهودى الثانى بعد أن استطاع المسلمون العبور إلى داخل حصن «ناعم» بقيادة على بن أبى طالب، بعد أن استعصى الاستيلاء على هذا الحصن فترة ليست بالقصيرة».

قال على بن أبى طالب لعمر: «هؤلاء اليهود كلفونا وكلفوا أنفسهم الكثير من الجهد والعناء، ماذا لو التزموا بالإنصاف، ولم ينقضوا العهود، ونعموا بالحياة، وحرية العقيدة؟؟

لو فعلوا ذلك لتجنبوا وإيانا شقاء طويلاً».

قال عمر بن الخطاب وهو يتنهد: «كنا نظن أنهم سيكونون أقرب إلينا من كفار مكة لأنهم أهل كتاب، لكننى تيقنت من غدرهم وجحودهم منذ البداية، لم يتركوا فرصة لنقض العهود إلا انتهزوها، ولم يجدوا أعداء لنا إلا وحرضوهم علينا، وانضموا إليهم فى بعض الأحيان.. وثالثة الأثافى اعتزامهم الهجوم على المدينة والاستعانة بالفرس والرومان وغطفان.. أكان يمكن أن ننتظر أكثر من ذلك، ونعرض دعوتنا للخطر؟؟ لقد جاء رجال من غطفان فعلاً، لكنهم جبنوا عن الالتحام فى المعركة بعد أن رأوا تفوقنا، وحصارنا العنيد لخيبر.. الحق أن ثقتى باليهود ضعيفة منذ البداية، ولهذا كنت أرفض سياسة المهادنة معهم، لأن معناها المزيد من المؤامرات والتخريب ضدنا».

قال على: «لم يكن هناك مفر من حمل السلاح».

- «وهذه هى آخر جولة بالنسبة لهم.. ولست أدرى ماذا يفعل بهم الرسول إذا تم النصر لنا».

- «كل ما يفعله الرسول خير وحق يا عمر».

- «إن العفو عن أمثال هؤلاء يا على يكلفنا الكثير من الدماء والقلق».

- «تلك إرادة الله».

- «الحقيقة يا على أنهم قاومونا بعنف بالغ . . إنهم ما زالوا يضربون فى حنق وشراسة».

- «اليهود ذوو أطماع وحقد، والتعاليم الزائفة قد أتلفت عقولهم ومشاعرهم يا عمر . . وإصلاحهم أمر ميئوس منه . . وإن قومًا هذا شأنهم، سيجلبون على أنفسهم التعاسة فى كل أرض يحلون بها».

وفى حصن «الوطيح» عضت «زينب بنت الحارث» على شفتها السفلى فى غيظ حتى دميت . .

- «واكرباه . . رجالنا يناضلون ويسقطون . . لكن الأعداء يتقدمون، لقد استولوا على عدد كبير من الحصون . . أية كارثة تنتظرنا؟؟ ما معنى ذلك؟؟ أينتهى كل شىء؟؟ أين الله؟؟ هل تركنا وانصرف إلى محمد؟؟».

وكم كانت دهشتها عندما سمعت صفية بنت حيى تقول: «أجل . . الحق ليس فى جانبنا».

استدارت إليها زينب بعيون تطلق نظرات شرسة وقالت: «إن الهزيمة تكاد تقضى على إيمانك ومعتقداتك».

- «لا . . كان ذلك منذ زمن بعيد . .».

صرخت زينب: «هل محمد على حق؟؟».

- «محمد ليس على باطل يا زينب».

- «نحن؟؟».

- «أنت تعرفين».

- «هذا هو المروق بعينه.. لو سمعك زوجك لفصل رأسك عن جسدك».

- «لن يكون لديه وقت لذلك».

- «يا للمصيبة!! وهل نسيت أباك؟؟».

- «هذا أمر آخر».

وكم كانت دهشة النسوة حينما وجدن «كنانة بن الربيع» زوج صفية، يأتى مهرولاً تلطخ الدماء وجهه ويديه، ويهتف: «هيا يا صفية.. لقد سقطت جميع الحصون.. لم يعد هناك سوى جيوب صغيرة للمقاومة».

- «ماذا تعنى يا كنانة؟؟».

- «لسوف نهرب».

وانطلقت قهقهة عالية..

وتلفت الجميع إلى آخر الساحة.. كانت زينب تسمع لما يحدث.

وقالت زينب بصوت مرتفع : «إن صاحب الكنز المخبوء لا يمكن أن يضحى بحياته . . مات الرجال . . ماتوا أبطالاً . . أما أنت يا كنانة بن الربيع فلن تموت . . إن شعورك قد مات منذ زمن بعيد . . وامرأتك هى الأخرى تزعم أن محمداً على حق» .

طأطأ كنانة رأسه لحظات ، ثم أبدى عدم الاكتراث بما تقوله زينب ومال نحو صفية قائلاً : «لم لا تردين؟؟ لم يعد هناك أمل . . إن من ينجو بنفسه هو الرابح فعلاً . . العودة إلى الحرب حماقة . . لقد انتهى كل شىء . . البقاء هنا معناه الموت أو العبودية . . أتدركين الحقيقة؟؟» .

وصاحت زينب : «الرجال الأبطال لا يفكرون إلا فى الموت شرفاء . . أما الحثالة فلا يسيطر على أذهانهم إلا الحياة والكنوز» .

فلم يعرها كنانة التفاتًا ، وصرخ بصفية : «لَم لا تتكلمين؟؟ لم يعد هناك وقت للتفكير» .

قالت صفية فى هدوء غريب : «لن أرحل» .

صفقت زينب بيديها قائلة : «امرأتك أشرف منك يا كنانة» .

استدار إليها كنانة فى حنق وقال : «اصمتى يا فاجرة» .

رمته زينب بنظرات شزراء وقالت: «لو كان سلام بن مشكم حيًا لما جرؤت على التلفظ بهذه الكلمات الفاجرة..».

جذب كنانة صفية من كتفها وقال:

- «كيف تفكرين؟؟ لو فقدنا الفرصة الآن، فلن تعود إلى الأبد».

- «لن أرحل».

- «هل أصابك جنون؟؟».

- «بل فى كامل وعيى».

- «إنك تربطين نفسك بذل أبدى».

- «بل بعز الدهر».

- «كيف؟؟».

- «هذا شأنى».

- «أتخالفين أمرى؟؟».

- «مرة واحدة.. لقد التزمنا بآرائكم طول العمر، ماذا كانت النتيجة؟؟ فقد اليهود كل شىء».

وصاح صوت أسفل الحصن: «يا كنانة بن الربيع.. انتهت المعركة واستسلم الرجال.. المسلمون دخلوا المدينة.. لم يعد

هناك أمل فى الهرب . . لا شىء سوى الاستسلام» .

تمتمت صفية : «الحمد الله» .

وارتمى كنانة على الأرض شاحبًا ساهمًا لا ينطق بكلمة . . وأخذت زينب بنت الحارث تقهقه كمن أصيبت بلوثة مفاجئة» .

- «انتظر يا كنانة . . ستهبطون السلم أذلاء . . وسيوف محمد تهوى على رقابكم . . كما حدث يوم بنى قريظة . . وكنزك الدفين سيظل مخبوءاً إلى الأبد . . أنا أعرفك ستقدم عنقك للسياف ولا تفرط فى ذهبك» .

ثم هبت زينب واقفة ، وأطلت من إحدى النوافذ وصاحت : «إلىَّ بفهد . . أريده على عجل» .

أتى فهد غارقًا فى الرعب والعرق والحيرة : «مولاتى» .

- «فهد أنت حر منذ الآن» .

- «آه . . لقد فات الأوان . . ليس هنا أحد يملك شيئًا اسمه الحرية . . كلنا أصبحنا أسارى فى يد المسلمين» .

صرخت بحدة : «أنت عبدى ، وقد جدت عليك بالعتق . . أنت حر» .

- «الشكر لمولاتى» .

- «لم أعد مولاتك أيها الغبى».

ثم قالت: «اذهب.. وعد فى المساء.. ليس هذا أمرًا، ولكن رجاء».

- «سآتى إن بقيت حيًا حتى المساء».

وساد الجدل واللغط، نفس المأساة القديمة، نسوة يولولن، وأطفال يصرخون، ورجال يرتمون مهدودى القوى، وكلمات ندم واعتراف بالخطأ والخيانة، واستسلام كامل للمصير، ورجال يذهبون إلى محمد يتفاوضون، ويذرفون الدموع، ويرددون عبارات الندم والاسترحام، هل من الضرورى أن يتعرضوا دائمًا لمأساة؟؟ هل من الضرورى أن يخوضوا فى طريق الشوك والغدر والمكيدة؟؟».

ودخل عليهم الحجاج بن علاط تاجر اليهود ونادى بأعلى صوته: «يا معشر اليهود.. لقد عقدنا اتفاقًا مع محمد على أن يحقن دماءنا، ويحفظ علينا حياتنا، وأن نبقى على أرضنا على إن يكون له نصف الثمر فى كل عام».

وساد فرح غامر، وأشرقت بعض الوجوه بابتسامات عريضة.. هتفت زينب: «يا للكارثة!!! أتبتسمون للذل والهزيمة؟؟».

قال الحجاج لها فى ضيق : «هل هناك ما يمكن عمله أحسن من ذلك؟؟» .

قالت : «أجل» .

-«ماذا؟؟» .

- «الموت ياحجاج» .

قال فى سخرية : «هذه قضية يحكم فيها كل فرد حكمًا ذاتيًا . . من أراد أن يموت فليحمل سيفه ، ولينزل إلى الميدان» .

- «ولِم لا تفعل ذلك؟؟» .

- «ظللت أناضل حتى آخر رمق ، برغم إيمانى بعدم جدوى المعركة منذ البداية ، أنتم تعرفون . . وأنا الآن أعلنت إسلامى» .

فران على الجميع صمت عميق وقالت زينب وهى تقهقه فى جنون : «الآن فهمت . . لقد لاحت منيتك قبل أن تأتى إلى هنا . . اذهب يا حجاج بن علاط . . رافقتك اللعنة حيًا وميتًا» .

ودار الحجاج بنظراته عبر الساحة الفسيحة وقال : «كنانة بن الربيع» .

- «ماذا؟؟» .

- «محمد يريدك».

- «أنا؟؟».

- «أجل».

-«إنه الموت يا حجاج.. أعرف أننى أحمل أوزاراً من بنى النضير وبنى قريظة وخيبر.. لكن الاتفاق لم يستثنِ أحداً».

قال الحجاج: «إما أن تسلم الكنز أو الموت.. أنسيت أنك كنت تهدد المسلمين بهذا الكنز، وأنك استغللته فى التحريض وإعداد السلاح، وحشد الجند؟؟ أنت لم تخفِ ذلك، بل كنت تعلنه صراحة أمام المسلمين وأنت راحل عن أرض بنى النضير».

قال كنانة فى مسكنة: «أقسم لم يعد لدىَّ كنز».

- «هذا أمر بينك وبين محمد».

وخرج كنانة بن الربيع بين قهقهات زينب وسخريتها، كان يمضى مطأطئ الرأس مرتاح الفؤاد، وعلى الرغم من اضطراب صفية، وإشفاقها عليه، إلا أنها لم تستطع أن تبعد ذلك الخاطر الذى ورد على ذهنها.. آه تلك الرؤيا الغريبة.. ذلك القمر الوافد من يثرب.. القمر الذى يشق الظلام.. ويميل نحوها.. حتى يستقر فى حجرها.. وتمتمت فى شرود دون أن تدرى: «جاء القمر».

قالت زينب فى سخرية: «أى قمر يا أختاه؟؟».

- «ذلك الذى يشق الظلام».

- «ها.. ها.. أنت الأخرى يا صفية ستصابين بلوثة جنون.. إنه بداية الحزن على زوجك التعس.. لماذا لم تسرعى معه بالهرب؟؟ سنقضى باقى حياتنا بلا قمر.. سنبقى فى ظلام دامس».

- «لكنى أراه يا زينب».

أمسكت زينب بكتفى صفية وأخذت تهزها فى عنف: «أفيقى.. ليس زوجك هو آخر الضحايا ولا أولهم.. مات سلام.. ومات أبوك.. ومات كعب بن الأشرف.. وابن أبى الحقيق.. وكعب بن أسد.. ودفعنا ثمن حماقاتنا غاليًا.. كلهن ثكالى.. أنا وأنت والنسوة كلهن.. ومع ذلك فقد يعود إليك زوجك سالمًا».

تمتمت صفية فى إصرار: «القمر.. القمر». ثم انفجرت باكية.. أنكر كنانة حيازته لأى كنز، وأبدى استعداده للموت إن ثبت كذبه، وشهد عدد من جنود المسلمين بأنهم رأوا كنانة منعزلاً فى مكان مهجور يحاول تسوية أرضه، فذهبوا وبحثوا هناك، فوجدوا جزءًا من الكنز».

- «يا كنانة . . لقد حكمت على نفسك بالموت . . أججت عدة حروب، وشاركت فى عديد من المؤامرات . . ومَولت المعتدين بمالك . . وما زلت مصراً على إخفاء ذهبك لتهدد السلام، وتفتح الثغرات لفتن جديدة . . لقد استعصى أمرك يا كنانة على كل علاج . . أنت محكوم عليك بالموت».

وقتل كنانة بن الربيع جزاء بغيه وعدوانه وإصراره على العناد . . وبكيت صفية بكاء مراً.

❑❑❑

الفصل [١٧]

«ويحى . . ويحى . . جلل العار حياتى، والذل يهوم على رأسى، وفى عينى، وأنا بالأمس زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم . . لكنى الآن إحدى السبايا . . حلمت بأن تركع عائشة تحت قدمى، ويأتى السبايا من نساء الرسول يدلكن قدمى بالطيب ويمشطن شعرى، ويحركن المراوح أمام وجهى، ويتلقفن من ورائى فتات الموائد . . كيف انعكست الآية؟؟ زينب بنت الحارث ستذهب إلى بيت محمد لتخدم نساءه، وتمرغ شرفها العريق فى الذل والوحل!! وامصيبتاه! والخسيس: ابن الخسيسة «فهد» ما إن وهبته الحرية، ومنحته قلبى وجسدى حتى تمرد . . واندفع فى نذالة ليعلن إسلامه.

وينخرط فى سلك المسلمين . . واكرباه!! تشبثت بأذيال ثوبه القذر . . ذرفت الدموع . . قلت له: أعطيتك الحرية لتكون لى وحدى لتخفف من أسى الزمان وغدره . . فلنهرب . . ولنعش بعيداً عن العيون، سأجعل من خدى لك

وطاء. . وأنت العبد الحقير. . لكنه زمجر. . قائلاً: «لن أبيع آخرتى بدنياى. . سوف أركض إلى الله» فلتركض يا ابن اللئيمة حتى تكسر رجلك، ويدمى الشوك قدميك. . اليأس يطوق عنقى، ويغلل فكرى، ويحرقنى بسياط الندم. . ما قيمة الحياة بعد ذلك؟؟ مات الرجال. . استراحوا. . لا عناء ولا ندم ولا شقاء. . ما أروع الموت من علاج!! لكن. . أأموت بلا ثمن. . والقسم؟؟ ثأرك يا سلام بن مشكم. . رب امرأة ضعيفة مثلى تحقق ما عجز عنه الجبابرة. . أحيانًا تكون الخديعة أقوى من بطولة الأبطال. . أحداث صغيرة قد تغير مجرى التاريخ والحياة. . أنا آخر وأضعف سهم فى كنانة خيبر. . يالثارات خيبر».

وتلفتت صفية حولها، النساء يقمن سبايا خاشعات، وفى العيون دموع، والرجال قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وينتظرون.

وصاحت زينب بأعلى صوتها: «يا محمد. . آمنت بك نبيًا. . وبالله ربًا، وبالإسلام دينًا».

كيف حدث ذلك؟؟ نساء خيبر ينظرن فى دهشة، والرجال ترتسم الحيرة فى وجوههن، والمسلمون يطربون لكل من يفتح الله قلبه لنور الإيمان، وليس غريبًا أن تهتدى امرأة إلى الطريق

القويم، ولو كانت زوجة سلام بن مشكم . . بل إن المتطرفين فى عدائهم، قد يتطرفون فى صداقتهم إذا مالوا إلى جانب الحق . . ألم يذهب عمر بن الخطاب ذات يوم لقتل محمد، فإذا به ينشرح صدره للحق، ويؤمن بدعوة الله؟؟ وهمست فى أذنها يهودية عنيدة: «وزوجك وأهلك الذين قتلهم المسلمون».

قالت فى ثقة: «لهم منى الوفاء والدموع، وليس لهم الحق فى إخضاعى لضلالهم وفكرهم».

- «لشد ما تغيرت يا زينب!!».

- «الأحداث الكبرى تهدم وتبنى».

- «لا تفلسفى الضعف والهوان».

- «أنت متسرعة . . قصيرة النظر».

- «لكن أؤمن بالوفاء».

- «وأنا أيضًا».

- «هذا زيف».

- «لكل طريقه يا أختاه».

وأخذت زينب تروح وتجىء فى حماس، كانت تتصرف فى قوة وتحد، وتعلن أمام بنى قومها أن الإسلام هو طريق الحق،

وأن خطأ السابقين لا يلزمها بالزيغ والانحراف، كل إنسان له حق التفكير الحر والاختيار، وقد اختارت. ألم يعف محمد عن مجرمى الحرب؟؟ ألم يشفق بهم، ويجنبهم شقاء الطرد والتيه فى أعماق الصحراء حيث الفقر والجدب والجوع والظمأ؟؟

- «الحق أقول يا بنى خيبر. إن لنا رصيداً من الخطايا والمخازى لا ينسى.. وزوجى سلام أول الخاطئين.. إن دمه لم يجف بعد، لكن الحقيقة تفرض نفسها، يجب أن نحمى ما بقى من تراث وأرواح.. ألم يرد إليكم محمد صحائف التوراة التى استولى عليها؟؟ لو قطع رقابنا لما لامه أحد.. ومحمد يدعو إلى وحدانية الله، والإيمان بجميع الرسل والأنبياء والكتب المنزلة.. لا يعرف عصبية ولا حقداً.. ما وجدت فى قرآنه طيشًا ولا زيفًا ولا اختراعًا».

تهامست النسوة فى خيبر وتغامزن، وهم يرون زينب تعد وليمة لمحمد، سبحان مغير الأحوال، تلك التى كانت تعقد المؤامرات فى بيتها، وتحرض على القتال، وتبيع نفسها للشيطان.. أصبحت من المؤمنات بمحمد.. وكان الرسول حريصًا على التخفيف من أثر النكبة على اليهود، يريد الإحسان إليهم، ونزع ما فى صدورهم من غل التزامًا بمبدأ الرحمة وفتح طريق الهداية أمامهم، وعندما أولمت له زينب لم يمانع، فأحضرت شاة حسن طهيها، وتحلق حولها الرسول

وبعض صحابته . . قال أحد الصحابة وهو «بشر بن البراء» فى مرح : «لا أستطيع كبح جماح نفسى . . الجوع شديد ، والجسد مرهق ، والمعدة خاوية . . ما كل مرة نجد وليمة دسمة كهذه . . وأنا لا أطيق الصبر» .

أمسك بشر ذراع الشاة بيديه ، وانقض عليها بأسنانه ، فاستطعمها ، وازدردها فى لمح البصر ، وهو يتمتم : «يا له من طعام رائع ! !» .

أما الرسول فقد سمى باسم الله ، وأمسك بالذراع الثانية للشاة ، ولاك منها مضغة ، فبدا الاشمئزاز والضيق على وجهه الكريم ، وسرعان ما لفظ المضغة ، وتلفت نحو أصحابه قائلاً : «إن هذا العظم أخبرنى أنه مسموم» .

فكف الجميع أيديهم عن الطعام ، وهرول أحدهم لإحضار زينب ، وقدمت زينب وهى ترتجف ، وقد شحب وجهها ، واضطربت خطواتها ، وزاغت نظراتها . . قال قائل : «لقد دسست السم فى الطعام يا زينب» .

وقال آخر : «تريدين قتل رسول الله» .

قالت والدموع تغرق خديها : «حاشا وكلا» .

وفجأة ، نهض «بشر بن البراء» من مكانه ، وقد تندى وجهه

الشاحب بالعرق، وأخذ يتقيأ كل ما فى جوفه».

قال صحابى: «يا بنت الجريمة!! أنظرى بشراً».

طأطأت رأسها، ولم يكن هناك جدوى من الإنكار، وما دام أمرها قد انكشف، فلتفسر الأمور بطريقتها الماكرة، فاتجهت صوب الرسول وقالت له: «لقد بلغت من قومى ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكًا استرحت منه، وإن كان نبيًا فسيخبره الله».

وصاح صائح: «مات بشر بن البراء مسمومًا يا رسول الله».

تجمع الصحابة ومعهم رسول الله حول بشر، وأخذوا ينضحون فى جبينه بالماء ويدعون الله من أعماقهم أن يكتب له النجاة.. وتمتم أحد الرجال: «مات بشر يا رسول الله».

تدحرجت دمعة من عين الرسول، ونظر إلى الجسد المسجى فى ألم، وتمتم ببضع دعوات.

وجاء صوت عمر بن الخطاب يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩] صدق الله العظيم.. إن العدل يقتضى أن تقتل زينب جزاء صنيعها».

واضطرب اليهود لهول الحادث، وبدا السخط فى أعينهم وفى همساتهم، وأخذت التعليقات تنطلق هنا وهناك «لو مات محمد لقتلنا عن آخرنا» . . «دائمًا نقابل الإحسان بالإساءة، فكيف يثق بنا المسلمون؟؟» . . «إلى الجحيم . . كانت زينب بقية الخطيئة فى وكر الخيانة . . ماذا جنينا غير العار والهوان» .

وصاح الحجاج بن علاط التاجر اليهودى : «يا معشر اليهود . . اثبتوا ولو مرة واحدة فى حياتكم، إنكم أهل للعفو والإحسان . . من أراد أن يسلم فليسلم، ومن أراد أن يبقى على دينه، فليبقَ معززًا مكرمًا . . أما حماقاتكم فلن تجر عليكم سوى الفناء والوبال» .

وسيقت زينب إلى الموت . . وكم كانت دهشتها حينما سمعت صوتًا يهتف من خلفها : «إلى الجحيم يا داعرة» .

التفتت إلى صاحب الصوت، والذهول يخيم على نظراتها وملامح وجهها وقالت : «أنت يا فهد؟؟ إنه أبشع وداع» .

- «ليس فى قلبك الأسود ثغرة تطلين منها على النور» .

- «لشد ما أنا نادمة» .

- «لم يعد يصدقك أحد» .

- «والذكريات يا فهد» .

- «ملعونة أيامك السوداء» .

- «كانت جميلة» .

- «تبشين للعهد وأنت على أبواب الجحيم» .

- «فقدت كل أمل . . فليصرخ الشيطان فى أعماقى» .

- «كنت دائمًا تبحثين عن الفناء» .

- «بل الحياة» .

- «أية حياة؟؟»

- «المجد والماضى وصحائف الخلود . . والثأر» .

- «تحاولين أن تجعلى من نفسك شهيدة» .

وضعت أصابعها فى أذنيها ، ومضت مسرعة فى الطريق وهى تقول : «لا أريد أن أسمع شيئًا أو أرى شيئًا . . ما أروع الاختباء والنسيان فى أحضان الموت اللعين» .

وبعد فترة قصيرة هتف الحجاج بن علاط بأعلى صوته : «هذا جزاء الخيانة» .

وتمتم أحد اليهود الطاعنين فى السن : «قالها يهودى . . وهى حق» .

□□□

الفصل [١٨]

موكب السبايا يسير . . إنه موكب خاشع حزين، وعلى رأس الموكب صفية بنت حيى بن أخطب، أبوها عدو لدود للإسلام والمسلمين، ومات بسيف القصاص يوم «بنى قريظة»، ومحمد يذكر عداءه، ويذكر أن مؤامراته كادت تفتك بالمسلمين يوم «الأحزاب»، إن صفية تذكر ذلك جيداً وهى تسير فى الموكب الحزين، لو حقد عليه المسلمون لكانوا على حق، إنه لشىء رهيب أن تصبح صفية سبية من السبايا . . يا لتصرفات الأقدار!! امرأة تناسلت من نسل «هارون» النبى . . سليلة الأنبياء . . تصبح ضمن السبايا؟؟ وهى ذات فضل وجمال، يحبها أهل خيبر حبًا ملك عليهم شغاف قلوبهم، بل إن مصائرهم التعسة قد تضاءلت إلى جانب مصيرها . .

وتمتمت إحدى السبايا: «ما كان لصفية أن تنزل هذا المنزل الذليل».

وردت جارتها : «قضاء وقدر . . وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل» .

- «لماذا لا يتقدم أحد اليهود الذين أسلموا إلى محمد بطلب الصفح عنها؟؟» .

- «هذا أمر عسير . . فهى بنت «حيى» وزوجة «كنانة» . . » ثم إن الثقة بها تكون ضعيفة . . وهل يوثق فيمن قتل المسلمون أباها وزوجها؟؟» .

ونظر المسلمون وعلى رأسهم النبى إلى موكب السبايا ، قال عمر «من هذه التى تسير فى المقدمة؟؟» .

قال صحابى : «تلك صفية ابنة حيى بن أخطب» .

وتهامس المسلمون فيما بينهم ، إنها حسنة السمعة ، أصيلة المنبت . . برغم ضراوة أبيها وحقد زوجها ، طيبة المعشر ، جميلة السمت . . وعيون اليهود تحيطها بالرعاية والحب والتقدير ، لكأنما هم مشفقون على مصيرها . . ومال أحد المسلمين على أذن الرسول قائلاً : «يا رسول الله . . إن صفية لا تصلح إلا لك» .

وفكر الرسول ، أيمكن أن يصفو قلب صفية ، وينسى الأحقاد القديمة ، والدماء التى أريقت أم أنها ستفكر فى الثأر لأبيها وزوجها؟؟ ثم ماذا يكون أثر هذا التصرف على اليهود أنفسهم فى خيبر؟؟ هل سيشعرون أن هذا التصرف قد

داوى جراحهم، وخفف من آلامه، ومحا الكثير مما ترسب فى أذهانهم؟؟».

واقترب منها الرسول وقال: «لم يزل أبوك من أشد الناس عداوة لى حتى قتله الله».

رفعت عينين صافيتين إلى الرسول وقالت: «يا رسول الله.. إن الله يقول فى كتابه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وابتسم الرسول، لكأنه وقع هذا الكلام من نفسه موقعًا حسنًا، إن صيفة تحاول أن تعلن عن تبرئها من وزر أبيها، بل واعترافها بإثمه.

وتبدى أمام الرسول علمها بالقانون الإلهى الذى نزل على يديه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ .

وقال الرسول فى قوة يقين، ورجاحة عقل، وفساحة صدر:

- «اختارى.. فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسى، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك».

قالت صفية وقد أشرقت ملامحها بالحب والإيمان:

- «يا رسول الله، لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت إلى رحلك، وما لى فى اليهودية

أرب . . وما لى فيها والد أو أخ، وخيرتنى بين الكفر والإسلام، والله ورسوله أحب إلىّ من العتق والرجوع إلى قومى».

وسرعان ما أعتقها الرسول وتزوجها . .

وعلت البسمة أفواه الرجال والنساء فى خيبر، وهتف المسلمون مكبرين، ونزل النبأ بردًا وسلامًا على قلوب المحاربين الذين أثخنتهم الجراح، وأمضهم الصراع الطويل، ونامت حمأة الثأر الأعمى . . وسار موكب العروس من خيبر إلى «دومة الجندل» - قرب المدينة- حيث سيتم اللقاء . . بين محمد وصفية . . والناقة تسير، وصفية بالهودج . . تحلم بلقاء النبى العظيم . . أهى فى حلم أم فى يقظة؟؟ إنها لا تكاد تصدق ما يجرى، الأحداث سريعة متلاحقة . . مات «كنانة بن الربيع». والتى كانت تستمع إلى آرائه الحاقدة الغريبة بمزيد من الضيق والحنق. ويزاد بها الضيق كلما تكلم عن الذهب . . لقد وعدها ذات يوم بأن يأتيها برأس محمد هدية . . وهى اليوم تتلقى محمد هدية من السماء، والبسمة على شفتيه، ونور الإيمان يتلألأ على جبينه، وأريج النبوة يفوح من إرادته، مات كنانة معلونًا . . لقد بكت عليه لا بدافع الحب . . لكنه الواجب . . أو لعله العطف على رجل يموت . . أى رجل . . لو رأت صفية غريبًا مسجى على قارعة الطريق لانهمرت الدموع من عينيها، مات كنانة . . ومات معه الحقد، والحماقة والغدر، والظل

الثقيل، آه . . وبالأمس البعيد مات أبوها . . لقد سعى إلى حتفه بنفسه . . اختار . . وحتى فى لحظات الفراق الأبدى لم يتنازل عن رأى ارتآه . . فليتحمل نتيجة عمله . . لشد ما تألمت وبكت على الرغم من ذلك . . كانت تحبه حقيقة . . ومازالت . . لكن هذا لا يعنى أنها كانت تقره على تصرفاته وأفكاره . .

وبعد وقت قصير ستزف إلى أعظم إنسان فى الوجود . . تلك هى الحقيقة . . قال لها : «اختارى» يا لها من كلمة رائعة ! ! وكان فى إمكان محمد أن يأمرنى فأطيع ، فأنا غنيمة من الغنائم، وله الحق أن يفعل بى ما يشاء . . لكنه أبى أن يسوقنى سوقًا إلى حريمه . . إنه لا يقتنص الحب ، لا يجعل منه مهمة تؤدى، وواجبًا مفروضًا على المنهزمين . . قال لى : «اختارى يا صفية» وخرجت من بين شفتيه أعذب ما تكون . . وأقوى . . وأنبل ما تكون . . وأنا اخترتك يا قمرى المنير . . عشت ليالى وأيامًا طويلة أحلم بموكبك الباهر ، وأنت تشق الظلمات وتهتك أستار الحجب . . وتفد إلى خيبر . كانت رؤياى باليقين أشبه . . أكانت أحلام يقظة ، فتجسدت فى المنام . . ثم تحولت إلى حقيقة؟؟ يا قلبى الطموح ، لم تستسلم لليأس فى يوم من الأيام . كنت كل مساء . . أجلس فى الظلام الدامس ، أناجى النجوم ، وأهرب ممن حولى ، وأبحث عن نورك . . كل ما حول كان يوحى بالشك ، والمقت والحيرة . . وكلما اشتد حقدهم عليك ، وثارت ثائرتهم ،

ازددت بك إيمانًا . . وأيقنت أنك صـــادق أمين . . ودق قلبى لأفـراح النبـوة حـينمـا سـمـعت بمقـدمك . . كنت أجلس فى الحصن المنيع ، منطوية على نفس ، مغـمـضة العينين ، أتخيلك قـادمًا يكلل مـحـيـاك شـرف الدنيـا ومـجد الآخـرة ، وصـدق الحقيقة . . وأنا ممن يبحثون عن الحقيقة . . وازداد بحثى عنها عندما مـات أبى . . وتخفيت وراء ملابس الأحـزان والحداد كى أنفرد بنفسى ، وأبحث عنها . . أنت ينبوع الحقيقة يا محمد . .

- «آه . . لكم تقلبت فى فراش النعيم والأبهة ، ودرجت بين آباء ملوك . . حـولى الخدم والحشم ، وتحت أقـدامى الذهـب . . آمر فأطاع . . ولم أستشعر السعادة والسلام والرضا إلا عندما رأيتك يا نور القلوب وربيعها . . آه . . أحببتك وأنت وحدك فى مكة تدعـوالله وتتـحمل العناء والعذاب وترفض المسـاومـات ، وأحببتك وأنت تهاجر واثقًا بنصر الله . . أحببتك وأنت تخوض المعارك القـاسية . . يا أشرف مـحارب . . وأنت تقاوم الجموع وعلى رأسـهم أبى ، وتحطم كـبـرياء المغـرورين والموتورين . . وتخرج من كل ملحـمة ، قوى البـأس ، مشرق الوجه ، تنفض عن جبينك الطاهر التراب والدم الغالى . . ثم تكبر للصلاة . . أنت لم تقـتل بنى قـريظة . . هم قـتلوا أنفسـهم . . قـتلهم أبى ، أنت لم تقـتل اليـهـود . . بل قضـيت علـى رذائل الإنسـانيـة . . ودمرت الحقـد والدس والمكيـدة . . فالثـعـابين لا تتركك البشر ينعمـون إذا ما انطلقت من جحورها . . يا واهب الأفـراح لقلبى

التعس ومشعل فكرى بنور الحقيقة . . يا نبع الحب والنظام والأمل . . يا فجر حياتنا الجديدة .

وأفاقت صفية من أحلامها على صوت الرجل الذى يأخذ بعنان الناقة وهو يقول : «هنا دومة الجندل» .

وتمتمت صفية وقد دق قلبها ، وتوردت وجنتاها : « وأين القمر ؟؟» .

ومضت ليلة من العمر لا تنسى ، وهى من روعة تحقيق الحلم كأنها فى حلم . . وافتر ثغر السماء عن شمس مضيئة دافئة ، ونظر الرسول إلى الكدمة الزرقاء أسفل عينيها وقال : «ما هذا؟؟» .

– «إنه حادث قديم يا رسول الله . . أثر باق يذكرنى بحلم رأيته ذات ليلة . . رأيت فى المنام أن قمراً أقبل من يثرب ، ودخل فى حجرى ، ولما استيقظت من نومى تولتنى من أمر رؤياى دهشة ، ولم أجد بداً إلا أن أصارح بها زوجى «كنانة بن الربيع» الذى ما إن قصصت عليه الرؤيا حتى اربد وجهه وعبست ملامحه ، وضرب وجهى وهو يقول : كأنك تحبين أن تكونى تحت هذا «الملك» الذى يأتى من المدينة . . ولقد صدقت الرؤيا يا رسول الله ، وإنى لأحمل منها هذا الأثر الذى رأيت» .

وتحرك ركب المنتصرين إلى المدينة . . وحظى أمر صفية باهتمام بالغ بين نسوة المهاجرين والأنصار ، ونسوة الرسول

ﷺ وتقاطرن صوب بيت الرسول محجبات مسدلات النقاب على وجوههن . . ومن غير صفية ذات الجمال والفضل والتاريخ العريض يمكن أن تحظى بهذا الاهتمام البالغ ؟ ؟ أبوها شغل العرب بحيله ودهائه ، ومصرعه كان حكاية تروى فى المجالس ، وزوجها صاحب الكنز والتهديدات المعروفة . . وقومها فى خيبر كانوا يشكلون خطراً دائماً ضد الإسلام والمسلمين . . إن صفية رمز لقصة مثيرة ، ونهاية لمأساة كبرى ، ومال الرسول على عائشة ، وقد اختفت وراء نقابها متوهمة أن الرسول لن يعرفها ، وقال : «كيف رأيتها يا عائشة ؟ ؟»

لم تستطع عائشة - كامرأة - أن تخفى معالم غيرتها ، أما ما رأته من جمال جذاب ، وشخصية قوية أخاذة ، وعراقة تبدو على ملامحها وكلماتها وتحركاتها ، وأمام انشغال الناس بأمرها ، وهزت عائشة كتفيها وقالت : «رأيت يهودية» .

قال الرسول فى رفق : «لا تقولى هذا يا عائشة ، فإنها قد أسلمت فحسن إسلامها» .

وهل بعد الإسلام شىء يستطيع أن يمحو أدران الماضى ، ويلغى فوارق الجنس واللون والحسب ؟ ؟

□□□

الفصل [١٩]

ساور «الحجاج بن علاط» - التاجر اليهودى بخيبر - القلق والتوجس، بعد انتصار المسلمين وإعلانه إسلامه، وكيف لا ينتابه القلق، وهو صاحب تجارات واسعة، وله أموال كثيرة فى مكة، لو علم أهل مكة بإسلامه، فلسوف يحقدون عليه، ويمنعون عنه ماله انتقامًا منه، ولم يغب هذا الموضوع عن ذهن «الحجاج» منذ البداية، فقد فكر فيه طويلاً وعرض الأمر على الرسول، واستأذن الرسول فى أن يلجأ لبعض الحيل التى قد تكلفه نوعًا من الكذب حتى ينال حقه. وأسرع «ابن علاط» إلى مكة، فوجدها تنتظر وحينما وقعت أعينهم عليه هرولوا نحوه، وأخذت أسئلتهم تنصب فى أذنيه كثيرة مختلفة، وابتسم الحجاج وقال: «أريد مالى أولاً . . لسوف أزف إليكم بشرى ما حلمتم بها قط».

قال أحدهم: «لئن كانت بشرى كما تزعم فأنا ضمين برد كل مالك».

- «إذن فاسمعوا . . افتحوا آذانكم جيداً . . إنها أخبار سوف تهزكم هزاً شديداً» . . هدرت أصواتهم مختلطة متعطشة: «قل ولا تخفِ شيئًا».

تنهد ابن علاط وقال: «يا لها من حرب . . مات فيها خلق كثير . . وسالت الدماء أنهاراً . . محمد لم يكن يصدق ما يجرى أمامه، كان يظن أنها يوم أو بعض يوم ثم يعود منتصراً إلى يثرب، يجرى خلف الغنائم والسبايا . . الحق أقول . . فقدنا عدداً كبيراً من خيرة رجالنا . . ملحمة لا تنسى أبد الدهر . . وأخيراً . . » صاحوا بصوت واحد: «ماذا؟؟».

- «انهزم المسلمون وولوا الأدبار . . وأسلموا سيقانهم للريح . . لكننا كنا لهم بالمرصاد . . ولحقنا بهم وأشبعناهم تقتيلا وجراحًا . . وفتن أصحاب محمد، وتبرءوا من دينهم . . لقد جردت الهزيمة ما كانوا فيه من وهم وخداع، أيها الرجال . . لم نعد من مطاردتهم إلا بعد أن أخذنا منهم

وأخذت تبكى على قتلاها . . ولن تقوم لها قوة بعد الآن، ولو فكرت فى غزونا ثانية فلسوف نقتل محمداً . . ومن معه من الأسرى . . وهذا ما أخطرناهم به».

تصايح الرجال وأخذوا يهتفون فرحًا وشماتة، لكن بعضهم أطرق كسيف البال، دامع القلب، إن الحدث كبير لا يصدق، وسرعان ما انتقل من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، وتوافد الرجال من كل صوب يشنفون آذانهم باستعادة القصة من الحجاج بن علاط، وصاح فيهم الحجاج آخر الأمر: «لقد مللت تكرار السرد . . أريد مالى . . ».

وسرعان ما أحضروا أله ماله، بل أضافوا له بعض الهدايا للبشرى السعيدة . . وقفت هند ترقص فى بيتها وكأنها فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها، وقالت ووجهها ينطلق بشراً: «الرهان يا أبا سفيان».

ضرب أبو سفيان كفًا بكف وقال: «هذا أمر عجيب، إننى لا أكاد أصدق، أنا معك فى أن رجال خيبر شديدو المراس، أقوياء الشكيمة، لكن ليس من السهولة أن يسقط محمد هذه السقطة، إنه يعرف جيداً مواقع خطوه ويعرف متى يهاجم ومتى ينسحب، ولكلماته سحر عجيب، وتفكيره فى المعارك من أبرع ما عرفت العرب فى قديمها وحديثها».

ثارت فى غيظ : «أو عندك شك فى مقالة ابن علاط؟؟ إنه قادم من المعركة وعلى كاهله جراحه . . دائمًا تحاول يا أبا سفيان أن تفسد على متعتى، وأنا فى أوج سرورى وهنائى . . ما أعظمك يا يوم خيبر . . فشلت مكة، وانتصرت خيبر . . لسوف يعزى الفضل كل الفضل لليهود أبد الدهر . . قلت لك انطلق لتشارك فى اجتناء النصر العظيم قبل فوات الأوان، لكنك تقاعست . . خفت بأس محمد، وقلت بيننا وبينه عهد، إنك لا تعرف متى تثب ومتى تقر».

وصمتت برهة ثم عادت تقول : «الرهان يا أبا حنظلة».

وهرول عكرمة بن أبى جهل إلى بيت خالد بن الوليد، وقال : «جئتك بما لم يجئك به بشر قلبى».

- «خيراً».

- «هزم محمد فى خيبر، ووقع فى يد اليهود أسيراً».

شحب وجه خالد، وهب واقفًا وقال : «ماذا؟؟».

- «مقالة قالها الحجاج بن علاط تاجر خيبر اليهود» . . شارك فى المعركة، وروى لنا تفاصيلها».

- «لقد سمعنا بموت سلام بن مشكم، والحارث بن أبى زينب وغيرهما من رجالات اليهود فى أيام المعركة الأولى».

- «أجل يا خالد . . مات خلق كثير ، لكن النصر كان لخيبر» .

وران الصمت على خالد ، بينما استطرد عكرمة يروى التفاصيل نقلاً عن ابن علاط ، وأخيراً قال خالد : «يبدو أن فى الأمر خدعة» .

- «إنك تهول فى الأمر ، ولماذا الخدعة؟» .

- «ألا يجوز أن يكون محمد قد انتصر ، وأن ابن علاط أصبح من أتباعه ، وأن محمداً قد أرسله لكى يخدعنا ، وننصرف إلى اللهو والأفراح وقصائد الشعر ، ثم نلتفت فنجد محمداً قد حاصر «مكة» فجأة ، وأخذها على حين غرة» .

وأخذ عكرمة يقهقه حتى كاد يستلقى على قفاه : «ليس محمد من السذاجة بحيث يتصور الآن أنه قادر على غزو مكة إن صح ظنك» . . ثم أخذ عكرمة يلوح بيده قائلاً : «الرهان . . أو لا» .

- «لا بد أن أتأكد من ذلك بنفسى» .

- «لسوف يخرج من مكة جمع غفير ، وسيشدون الرحال إلى خيبر ليروا محمداً السجين . . إنها فرصة العمر . . إننى لا أكاد أتصوره حبيساً وحيداً . . وجموعنا تدور حوله والكلمات الجارحة ، والسخريات المرة تنهال عليه . . بل وما هو أكثر من

ذلك . . آه . . انتهى محمد ، انتهت أكبر خدعة عاشها العرب فى تاريخهم الطويل» .

وتمتم خالد : «وسيعود بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير . . وسترضخ الجزيرة لسلطان اليهود المنتصرين ، وسيفرضون علينا الذل والعار أبد الآبدين . . ألم تفكر فى ذلك يا عكرمة؟؟» .

قال عكرمة ، والفرحة الغامرة تلمع فى عينيه : «لم أكن أفكر فى غير شىء واحد» .

- «ما هو يا عكرمة؟؟» .

- «القضاء على محمد بأية وسيلة . . أية وسيلة» .

- «أيها الأبله المسكين . . لقد كنت أفضِّل أن ينتصر علينا محمد أو ننتصر عليه ، أما أن يكون النصر لليهود ، فهذه كارثة لن تبدو آثارها إلا فى قابل الأيام . . لسوف نلغ فى بحار من الدماء ، وستزداد الفتن والاضطرابات ، وسيفرض اليهود على العرب الخراب والدمار والصراع الدموى الدائم ، حتى لا يخرج لهم من جديد رجل كمحمد» .

وقهقه عكرمة ثانية وقال مازحًا : «أتعتقد أن جبريل يستطيع الآن أن يخترق أسوار السجن ، ويغافل الحراس ، ويفتح الأبواب الموصدة ، كى يذهب بوحى جديد لمحمد؟؟» .

لم يشاركه خالد الضحك والمزاح، ولكن قال: «ليس لقدرة الله حدود».

- «خالد.. أو تشك؟؟».

- «كل الشك».

- «لكن محمداً أسير».

- «إن كان كذلك، فلسوف يصحون ذات يوم ولن يجدوه..».

- «كيف؟؟».

- «إنه قادر على إقناع أعتى السجانين بمنطقه».

- «لكنهم من وقحاء اليهود».

- «إنه الأمر كله يبدو غريباً غاية الغرابة».

وبلغت الأنباء الخطيرة مسامع «العباس» عم الرسول فى مكة، ولم يكن مسلمًا ومع ذلك فقد توترت أعصابه، وارتعشت عضلات جسده، واجتاحه غم شديد، وتمتم: «لو كان لى قوة أزحف بها صوب خيبر لتحرير محمد، وتأديب اليهود، لما تقاعست لحظة.. آه.. أأنادى فى قريش لعلهم يستجيبون لداعى النجدة والمروءة لينقذوا ابن أخى من أيدى الماكرين؟؟ ما الحيلة؟؟ إننى أكاد أجن.. ليس فى استطاعتى

أن أخرج إلى الناس، إن العار سيلاحقنى أينما ذهبت . . محمد شريف وابن أشراف، ومحمد صادق أمين، ولو وضع قرآنه مقابل توراة اليهود لظهر لكل ذى عينين، أنه أجدر منهم بالتصديق والاتباع، كيف تخلى عنه إلهه؟؟ إن الأمر جد غريب لا يصدق».

وزحف المساء . . فتستر العباس بالظلمة، وانفلت إلى حيث يأوى «الحجاج بن علاط» وتلفت يمنة ويسرة قبل أن يدخل عليه، وعندما لقيه، قال وقلبه يخفق: «يا حجاج بن علاط، أيها الرجل الطيب . . أخبرنى الخبر . . لا تخف شيئًا ولو كان محزنًا . . أنت تعلم أن محمدًا ابن أخى».

ابتسم الحجاج بن علاط وقال: «أنت فى الذؤابة من الشرف . . أتعدنى أن تخفى أمرى إذا صدقتك الحديث؟؟».

- «أقسم على ذلك، ولو ضحيت بحياتى . . إلى أن ترحل عن ديارنا».

قال الحجاج: «ابن أخيك بخيبر . . وقد دانت له خيبر، وانتهى سلطان اليهود إلى الأبد . . وأنا تابعته على دينه، ولقد لجأت لهذه الحيلة حتى أجمع مالى من رجال مكة».

وثب العباس إلى الحجاج، وأمطر رأسه ووجهه وكتفه بالقبلات . . وتمتم ابن علاط: «أتحبه لهذه الدرجة؟؟».

ولما لم يجب قال: «ولماذا لا تؤمن بدعوته إذن؟؟».

- «هذا أمر آخر يا ابن علاط».

وأخذ الحجاج يضرب كفًا بكف ويقول: «إن أمركم لجد عجيب.. أنا لا أعرف هل مكة تحب محمداً أم تكرهه، وكنت أرى الدموع تمتزج بالابتسامات، وأنا أروى مقالاتى، والفرحة متوشحة بالحزن، هل تحبونه أم تكرهونه؟؟ أريد أن أعرف».

وانصرف العباس سعيداً، لا تكاد الدنيا تسع فرحته.. وفى الصباح لبس العباس أفخر ثيابه وذهب إلى البيت الحرام يطوف به، وقال له أحد الرجال: «إنك تتجمل بالصبر، وتلقى الكارثة فى ابن أخيك بالتجمل والهدوء، وهذا شأن الرجال الشرفاء الأقوياء.. إن المصاب فادح، لكن كان لا بد أن تكون هذه هى نهايته».

ابتسم العباس وقال: «إننى أطوف البيت شكرًا لرب البيت».

- «ولم الشكر يا عباس؟؟».

- «دانت خيبر لابن أخى.. وأسلمت قيادها له، وعاد بالغنائم وتزوج صفية بنت حيى بن أخطب.. لقد انتصر محمد.. خدعكما بن علاط ليأخذ ماله.. وهو الآن فى الطريق إلى يثرب.. وابن علاط قد أسلم وحسن إسلامه».

وسرى النبأ فى كل الأرجاء، واهتزت مكة من جديد، واحتد الجدل والنقاش، وتكومت هند على فراشها محتقنة العينين، ثائرة النفس، ومال عليها أبو سفيان وقال مداعبًا: «الرهان» فدفعته فى صدره دفعة قوية، كاد يسقط على أثرها، وذهب خالد بن الوليد إلى عكرمة، وهمس فى أذنه: «الرهان».

وأخذ عكرمة يصر على أسنانه فى غيظ ويقول: «لقد خدعنا هذا اليهودى الماكر ليأخذ أمواله، لو كنت واثقًا من اللحاق به، لطاردته، ومزقته إربًا إربًا، وجعلته طعامًا لوحوش البرية».

وتمتم خالد فى شرود: «آه.. إننى أكاد أقرأ سطور المستقبل.. إننى أراه يسير برجاله المؤمنين وينشر دعوته فتدين له القبائل وتعلو رايته، وأراه وهو قادم ذات يوم إلى مكة، وكل واحد من أعدائه يتقدم نحوه يعلن قبول دعوته.. والبعض يولى الأدبار فارًا بحياته إلى عالم المجهول.. إننى أراه وهو..».

قاطعه عكرمة قائلاً: «ماذا؟؟ هل جننت يا خالد؟؟ إن الوهم قد بدأ يسيطر على ذهنك أنت الآخر.. إن خيبر لم تكن بالصورة التى توهمناها، لو أعطيتمونى ألفين من الرجال لفتحت خيبر فى ليلتين».

قال خالد مقهقهًا: «والرهان».

- «إننا كنا نمزح . . مجرد أمنيات لم تتحقق».

تنهد خالد وقال: «سنظل نمزح ونتوهم حتى نفقد كل شىء».

ثم استدار إلى عكرمة وقال فى جد: «لماذا لا نصرف جهودنا منذ الآن فى البحث عن الحق، فإن كان فى جانب محمد اتبعناه، وإن كان فى جانب اليهود اتبعناهم، وإن كان فى جانبنا متنا دونه؟؟».

هتف عكرمة فى شىء من الضيق: هذه قضية لا تشغلنى الآن . . لقد عرفت الحق منذ زمن بعيد».

- «وأين هو؟؟».

- أشار عكرمة وقال: «هنا . . فى قلبى».

- «يا للكارثة . . الحق ليس أمرًا ذاتيًا . . إنه شىء يخص الجميع . . إن مجاله الفكر وليس النزوات».

- «إنك تعقد الأمور بطريقة غريبة».

رماه خالد بنظرة ذات معنى . . وسكت . .

☐☐☐

الفصل [٢٠]

هز أبو بصير رأسه الكبير فى تحدٍّ وقال: «إن أية قوة فى الوجود لن تستطيع أن تستلب منى حقى المقدس فى أن أفكر وأن أعتنق ما أريد من مبادئ، هذا الحق لا سيطرة للاتفاقات عليه، الحرية شيء نتنفسه كالهواء».

قال له صديقه: «يا أبا بصير.. لا تتعجل الأمور، واعلم أن اتفاقية «صلح الحديبية» قد أعطت قريشًا الحق فى أن تسترد رجالها الهاربين إلى محمد ودينه، إذا ما فروا دون موافقة ساداتهم».

حملق بعينين واسعتين محتقنتين وهدر: «إن محمدًا لا يملك الحق فى حرمانى من اعتناق الإسلام».

- «أجل.. تلك قضية أخرى.. لكنه سيردك إلى مكة».

- «أرض الفجور والحقد الأعمى».

- «ألم يَعِد محمد بأن الله سيجعل لنا مخرجًا؟؟».

- «ولماذا لا نبحث بأنفسنا عن هذا المخرج . . إن الله لا يقدمه هدية للكسالى . . يجب أن نكدح ونشارك فى النضال . . ولن تزحزحنى قوة فى الأرض عن فعل ما أريد»

ولوح أبو بصير بذراعه القوية فى غيظ ، وجلس ساهمًا يفكر ، كان قوى البنية ، صلب الإرادة ، ثائر العواطف ، إنه يعانى مشكلة عجيبة ، والطريق يبدو مسدودًا ضيقًا ومحفوفًا بالمخاطر أيضًا ، لقد مال إلى الإسلام ، ويحلم ليل نهار باليوم الذى يصبح فيه واحدًا من ذلك المجتمع الفاضل الكبير . . يحيى حياته ، ويمارس شعائره ، ويحمل سيفه ، ويفكر مثلما يفكرون ، ويجلو الصدأ عن نفسه المرهقة التى طال عليها الحرمان والرسوف فى قيود العبودية والجهل والهوان . . وعشرات مثله فى مكة بل مئات إن لم يكن ألوفًا يريدون أن ينطلقوا من إسار الذل والمعتقدات التافهة ، لكن صلح الحديبية يعطى مكة الحق فى استرداد أبنائها «المارقين» ومحمد لن يغدر بعهده . . ماذ ايفعل ؟ ؟ أيذهب إلى سيده ومولاه ليعلن أمامه صراحة كلمة الحق ، وليدفع الثمن مهما كان غاليًا ؟ ؟ قد يكون فى ذلك شىء من الحماقة ، بل إن مولاه قد يجرد سيفه ويطيح برأسه ، لسوف يموت أبو بصير شهيدًا لكن كثيرين غيره فى مكة قد يلجمهم الروع عن ارتياد طريق الحقيقة ، سيتصب شبح الخوف ماردًا جبارًا ، يرد الإيمان عن

قلوب الظامئين إلى نور الله . . لا . . ليس هناك سوى وسيلة أخرى فليذهب أبو بصير تحت جنح الظلام إلى المدينة . . إلى محمد . . وليثر المشكلة بطريقة عملية، وليجعل منها موضوع الساعة، أما الرضا بالذل والخوف والاستسلام للضعف فهو أمر لا يرضاه الله ولا رسوله ولا المؤمنون . .

وأفاقت مكة ذات صباح . . وانتشر النبأ مع الصباح الوليد فى كل مكان . . لقد اختفى أبو بصير . . وولى هاربًا إلى المدينة . . وقال بعض المتصلين به: إنه كان يخفى إسلامه، وأنه بالتأكيد هرع إلى محمد . . وابتسم مولاه فى غيظ بالغ: «لسوف نسترده على الرغم منه . . سيعود وأنفه فى الرغام، وسأجعل منه أمثولة وأضحوكة لصبيان مكة ومجتمعاتها . . وسنبعث فى طلبه على الفور» وأيًا كان الأمر فإن أئمة الشرك فى مكة قد أغاظتهم فعلة أبى بصير . . وتمنوا أن يقع فى أيديهم - وسيحدث ذلك بالتأكيد لأن محمداً لاينقض اتفاقه - حتى يذيقوه العذاب والنكال، ولم يكن عكرمة بن أبى جهل يعبر عن المشكلة تعبيراً صادقًا حينما قال: «إن أبا بصير رجل تافه حقير، لا وزن له ولا قيمة، لست أدرى لماذا تقيمون الدنيا وتقعدونها من أجله؟؟».

رماه أبو سفيان بنظرة فاحصة وقال: «إن ذهاب سيد السادة إلى محمد لا يعدو أمراً ذا بال فى نظرى، أما تمرد الموالى

والعبيد وعامة الناس فهو مشكلة المشكلات يا عكرمة، إنه يغير هذه الطبقات الدنيا، لن يكون لنا مجد أو دين، ولن نخوض معركة. . إنهم عماد الحياة. . تلك حقيقة لا مراء فيها».

هتف عكرمة فى امتعاض: «إذن فلتقيموا المآتم من أجل فرار مولى من الموالى».

- «لا . . ولكن لن نتهاون فى استرجاعه، وإلا فر من مكة كل يوم أحد المارقين».

والتفت أبو سفيان إلى خالد بن الوليد قائلاً: «ما رأيك ياخالد؟؟».

- «إن رأيى قد لا يعجبك».

- «قل».

- «أوه. . إننا يا أبا سفيان بتصرفاتنا تلك نمتهن كرامة الإنسان وكرامتنا أيضًا».

- «كيف؟؟.

وانتبهوا جميعًا لكلام خالد. .

- «حسنًا. . من العار أن نرغم الناس على اعتناق مبادئنا بالإكراه، إذا عاد أبو بصير فلن يحمل لنا ذرة الإخلاص والاحترام. . ثم إن ذهابنا إلى محمد فيه معنى التوسل

والصغار. . يجب أن نفتح الأبواب على مصارعها، فمن أرادنا فليأت إلينا، ومن أراد محمداً فليذهب إليه. . ولن يبقى معنا إلا المخلصون الأوفياء. . ولن يذهب إلى يثرب إلا الضعاف والمترددون. . ونحن لسنا بحاجة إلى هؤلاء. . إن وجودهم بيننا عبء علينا. . فلم تصرون على التشبث بأمور لا خير فيها. . أنسيتم أن محمداً رفض أن يسترد إليه مسلمًا هرب إلينا؟؟ لماذا؟؟ لأن مثل هذا الآبق وقد خرج من دينه لا يستحق شرف الانتماء إلى قوم شرفاء ولن يناضل عن عقيدة».

وساد الصمت، وتأرجحت الغيون في المحاجر، ودلفت عند ذلك زوجة أبي سفيان فجأة وقالت: «أي امتهان لكرامة الإنسان تقصد يا خالد؟؟ هل لأبي بصير كرامة؟؟ إنه مولى خائن، ومعروف أن هؤلاء ليس لهم كرامة، السياط وحدها كفيلة بردعه واستقامته، لقد أصبح العصيان والتمرد آفة هذه الأيام، الموالي والعبيد يتسترون وراء المبادئ لينفثوا عن أحقادهم وضآلتهم. . لم يكونوا شيئًا على الإطلاق. . وعندما يريدون أن يكونوا شيئًا فلا بد أن نحطم رءوسهم، وإلا فسد نظام الكون، واضطربت أمورنا في مكة». .

قال وحشي بن حرب قاتل حمزة، والذي نال حريته ثمنًا لجريمته: «نعم الرأي رأي هند».

وتمتم عكرمة بن أبى جهل: «إن فلسفة الضعف والخور تتسرب إلينا، وتلوث فكرنا كلما مرت الأيام.. الصرامة والعنف هما القادران على كبح جماح العامة، أترى إذا تمسكنا بحقوقنا، وببنود الاتفاقية المعقودة بيننا وبين محمد نكون قد امتهنا كرامتنا وكرامة الإنسان؟؟؟ أى قول هذا يا خالد؟؟؟ التزم خالد جانب الصمت، ولم يعلق بكلمة واحدة.. وفى مكة خلق كثير يؤمنون بالله الوحد القهار، ويحلمون بالانطلاقة الرائعة إلى يثرب أرض النور، يظلون الليالى الطويلة يتخيلون الجياد تنهب بهم الأرض نهبًا، يحدوها الشوق العارم، ويدفعها الحنين الجارف إلى رجال الله الأتقياء، حيث الأخوة الصادقة والعدل والرحمة والتواضع.. والنظام.. حيث ينمو الأمل ويتعاظم ويورق بالخير والعطاء والسعادة.. كانوا يتحسسون أنباء أبى بصير فى لهفة، فقد يكون نجاحه بداية عهد جديد لهم، وهم لا شك تمزقهم الحيرة والخوف، فإما أن يقبله محمد ويرفض ذلك البند الجائر فى نصوص اتفاق الحديبية، ويطالب قريشًا بإلغائه، وإما أن يعيد أبا بصير إلى موطن الكفر والقسوة والانتقام، وذلك كارثة ما بعدها كارثة».

الفصل [٢١]

وانطلق أبو بصير عبر الصحراء المترامية الأطراف، يغالب الإرهاق والظمأ والحر الشديد، ونوازع الخوف فى نفسه، يستطيع الآن أن يقول أنه قد قهر وساوس الضعف والخوف، كان لا بد أن يبدأ حياته الجديدة، والخطوة الأولى تحتاج إلى جرعة مضاعفة من الشجاعة والإرادة، وفى كلمات محمد وسيرته وحياة رجاله ومعاركهم.. فيها ألف ألف جرعة لمن يريد، وابتسم أبو بصير فى رضى على الرغم مما يعانيه من وحدة وتهديد وظمأ وجوع، كان فى الإمكان أن يمضى فى دروب الحياة المملة السقيمة كما يمضى آلاف غيره فى مكة وأن يجنب نفسه الكثير من العناء والمخاطر، ولم يكن الرجل يقاسى من بؤس كثير على أية حال، لكن كيف؟ أية حماقة يرتكبها وهو يتجنب النور، ويخوض فى أشواك الظلام وأوحاله؟؟ والفرق جد رهيب بين ما يحدث فى يثرب وما يجرى فى مكة، والهوة سحيقة بين حقائق محمد المجلوة

المقنعة، وسخافات أبي سفيان وصحبه.. هل أصبت بالعمى حتى أركن إلى حياة العفن والفوضى والكبرياء الفارغة وأسد أذني عن دعوة الله؟؟».

وأبو بصير يشعر براحة كبرى.. راحة الرجل الذي يفكر في اطمئنان وأمان، ثم يختار عن طيب خاطر أن تمارس ما تشاء، وتعتنق ما تؤمن به.. شيء رائع.. رائع للغاية.. تلك هي الحياة الحقة، على الرغم مما يشوب ذلك من أخطار.. أية أخطار؟؟ أبو بصير سيفه في غماده وحياته ملك يمينه، ولن تستطيع قوة في الوجود أن ترغمه على شيء.. الموت ولا ذلك.. ثم ما هو الموت؟؟ الموت هي أن تحيى مسلوب الفكر والإرادة والحرية والاختيار بين قوم قساة حاقدين، وقد أغلقوا مسامعهم ونوافذ عقولهم عن أي كلام..

وفي نهاية المطاف بدت له يثرب بنخيلها وهدوئها وجلالها كالجنة.. قد لا يرى فيها إنسان آخر ما يراه أبو بصير..

وأبو بصير قد يجد السعادة القصوى في خيمة صغيرة على الطريق، ويرى مساحتها الضيقة، وبضع ثمرات فيها، أبهى من قصر كبير يغص بالمتع والنعيم.. إن خياله يضفي على الأشياء المادية والعفوية صورة جديدة تمامًا نابعة من فكره وأشواقه.

يثرب هي الجنة، ومن فيها هم ملائكة أطهار، ومحمد هو الأمل والرجاء، ومعقد الكرامة والحب والخير والفضيلة،

والجحيم هو الماضي بكل ما يحمل من هموم وحيرة وفوضى وعبث . .

- «السلام على أهل الحي . . » .

- «عليك سلام الله ورحمته وبركاته . . » .

- «أبو بصير جاءكم ينشد النور، ويهرع إلى ظلال الإلهية . . » .

أشرقت الوجوه بالنور : «حسنًا فعلت . . » .

- «جئت أشد الرحال إلى أرض الأطهار . . » .

- «لأنت أخ كريم حباك الله بفضله . . » .

تلفت يمنة ويسرة، ثم قال في سعادة : «دلوني على محمد . . » .

- «لكن يبدو عليك الظمأ والجوع والإرهاق . . انتظر لحظة . . لسوف نأتي لك بالماء والزاد . . » .

شرد وعيناه تفصحان عن مشاعر لا يمكن وصفها .

- «أين الطريق إلى الحبيب؟؟» .

وأفاق من شروده على كأس من الماء البارد، وسطل من اللبن الحليب، وطبق به ثمرات شهية . . وتمتم بعد أن سرت

الحيوية فى جسده، وتبدى جبينه ببضع قطرات من عرق: «عندما أراه، سألقى تحت قدميه بالماضى وأحزانه، وأسلمه روحى وحياتى، وأقول له: أبو بصير قد وهب الله حياته وكل ما يملك.. وما أملكه قليل..».

- «بشراك يا أبا بصير، والرسول يسعد بعبد أتاه مسلمًا أكثر من سعادته بملء الأرض ذهبًا وفضة..».

- «لا تتحدثوا عن الذهب والفضة، بل عن المعدن الغالى الأصيل الذى غطاه التراب..».

- «أى معدن يا أبا بصير؟».

- «معدن الإنسان.. ذلك الذى جلاه محمد، وأزاح عنه التراب والجحود والعذاب..».

- «صدقت».

وقال أبو بصير فى انفعال: «دلونى عليه..».

وقدم إليه رجل وقال: «إليك فخذ شاة ورغيفًا».

- «أشاح بوجهه عن الطعام وقال: يا صحاب.. دعونى أمضى.. فما بى حاجة إلى دليل.. سأجده هناك.. إنه ينتظر.. وما بحث عنه إنسان إلا وجده.. فهو ملء السمع والبصر والمكان، إنه حقيقة كبرى فاضت بها رحمة الله..».

- «وامتطى ناقته ومضى في هرولة، وصاح من خلفه رجل: «ستجده بالمسجد يعبد الله أو يحدث الناس. .».

وتهامس الجالسون: «هذا رجل صالح. . فيه خير كثير. .».

لا يستطيع أبو بصير أن يصور لحظات اللقاء الحلوة، إنها فيض من أشواق وحب وذوبان، ومشاعر لا حصر لها. . تطلع إلى وجه محمد، وعلى الرغم من إحاطته به إلا خيل إليه أنه يملأ المكان، ويعبر عن كل المعاني النبيلة التي طالما حلم بها. .

- «أبطأت المسير إليك يا رسول الله، وخذلتني إرادتي فترة طويلة. . وأخيراً أتيت إليك أقدم ندمي على ما فات، وأنشد المغفرة وأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله. .».

وابتسم الرسول، وفي ابتسامته تنسكب فيوض الرضا والغفران والترحيب.

- «ولن أعود إلى موطن الكفر مهما كان. .».

وأبدى الرسول ارتياحه وسروره البالغ لما أصابه أبو بصير من هداية، وما أظهره من حسن إيمان وجلس أبو بصير يروي قصته، وكم كانت دهشته حينما وجد ظلاً من حيرة يطوف بوجه الرسول الكريم.

لحظة حاسمة، وعلى الفور وثب إلى ذهن أبي بصير «صلح

الحديبية» وما فيه من شروط، وتصور نفسه عائداً إلى مكة، وحشود تنصب عليه من كل مكان، أيمكن أن يحدث ذلك؟؟ مستحيل وقال أبو بصير: «ماذا ترى يا رسول الله؟؟».

وأرجأه الرسول بعض الوقت، وبعد أيام قليلة، وفد إلى يثرب رجل من بنى عامر، يحمل كتابًا إلى الرسول، يطالبه فيه برد أبى بصير الذى هرب من مكة.. دون موافقة مولاه، حسبما تقرر بنود اتفاقية «صلح الحديبية..».

لم يستطع عمر بن الخطاب أن يخفى غضبه، ويكرر ما قاله من قبل وهو أن ذلك الشرط شرط مجحف، وما كان يصح أن يوافق عليه الرسول، وأخذ الصحابة يتهامسون فى حيرة، وأبو بصير جالس وهو لاهث الأنفاس، مضطرب الأعصاب، لا يكاد يتصور ما سيحدث، وأخيراً قال الرسول:

- «يا أبا بصير، إنا أعطينا هؤلاء القوم ما علمت، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك..».

هب أبو بصير واقفًا وقد شحب وجهه، وارتجفت أوصاله وقال: «يا رسول الله، أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟ إنهم لن يرحموا مولى هاربًا من كفرهم وفسادهم..».

ودارت الأرض بأبى بصير، لسوف يعود إلى مكة..

سيسير موكبه في شوارعها مجللاً بالذل والاحتقار ، تواكبه اللعنات الحارة ، سيكون مشهداً مخزيًا ، وسيحرص المجرمون على إحاطته بكل ألوان الأذى والهوان حتى يكون عبرة لغيره . . مستحيل أن يحدث ذلك ، الموت أهون من هذا الذل ، وأبو بصير قد آمن بالله ورسوله ، ولا يمكن أن تفتنه عن دينه أية قوة كائنة ما كانت . . وأفاق أبو بصير من شروده على صوت الرسول وهو يكرر ما قاله آنفًا . . فلم يجد بدًا من أن ينصاع لأمر الرسول ، ويمضي خافض الرأس مع رجل بني عامر رسول مكة إلى محمد ، ومعه مولى آخر يرافقه في الطريق .

لشد ما حزن الناس وهم يرون أبا بصير يشد الرحال عائدًا إلى مكة ! ! ولم يستطيعوا أن يعلقوا بشيء سوى : «هذا أمر الله ورسوله ، ولسوف يجود الله على أبي بصير وأمثاله بالفرج العاجل . . » .

كان يمضي متثاقل الخطى ، واهن الجسد ، كسير النظرات ، وقلبه يضج بالثورة والألم العتيد ، أليس من حقه أن يفكر ، وأن يؤمن بما يشاء ؟ ؟ إن الله لا يرضى أن يعترض الطريق إليه شيء . . حتى ولو كان صلح الحديبية . . أستغفر الله . . لعل وراء ما يحدث حكمة عليا تجل عن الأفهام .

لكن لماذا لا يبحث أبو بصير بنفسه عن مخرج . . ؟

الفصل [٢٢]

ها هو من جديد يشعر بالقهر، ويضطر للإذعان، أكان واهمًا حينما تخيل أن له حق الاختيار كمخلوق يميز الخبيث من الطيب، والحق من الباطل، والنافع من الضار؟؟ أيخرج عن أمر الرسول، لكن الرسول نفسه لا يرغم أحدًا على فعل شيء يكرهه، لكن لماذا فعل الرسول مع أبى بصير ذلك؟؟ إن أبا بصير كان يقرأ فى عينى الرسول النابضتين معانى كثيرة لا يستطيع فهم ما وراءها. . أفاق أبو بصير على صوت العامرى المرافق له يقول: «لم نسئ إليك يا أبا بصير».

- «وهل هناك إساءة أبشع من أن تسوقوا الناس سوقًا إلى عقيدتكم».

- «هذا أمر لا قيمة له، أو تظن أن تشبث سيدك بحقه فيك يعتبر إساءة؟؟ إن ذلك الدين الجديد قد بدل الكثير من البديهيات».

- «وما البديهيات يا عامرى؟».

- «تراث الآباء والأجداد، وقيم ارتضاها الجميع».

- «لكن فيه كثير من الزيف».

- «ليكن يا أبا بصير. لا أنا ولا أنت نملك حق التغيير.. إن في ذلك إهانة لتراثنا.. وتنكر لنظامنا».

وبدا الاشمئزاز على وجه العامرى وهو يقول: «لست أدرى لماذا تفر إلى ذلك النبى؟؟ إن با لمدينة قيودًا لا تقرها نفس حر».

- «أية قيود؟؟».

- «هم لا يشربون الخمر، ولا يأتون النساء كيفما يشاءون، ولا يستمتعون باللعب والقمار، إنهم يحرمون المتع بلا معنى».

قال أبو بصير ساخراً: «وفى إمكانك أن تضيف أنهم يساوون بين السادة والعبيد، ويضعون نظامًا - أعنى قيودًا - لكل شىء حتى الطعام والنوم والصلاة والزواج والطلاق».

تجهم العامرى قائلاً: «أتسخر منى؟؟ أجل.. إن كل ما يعلمه محمد لأصحابه لا أكاد أطيقه، إنه سجن مقيت لا أستطيع أن أعيش بين جدرانه لحظة».

وصمت أبو بصير، إن لكلٍّ منطقه، وله الحجج التى يوهم

نفسه بصحتها، فالدعارة حق، واحتقار العبيد حق، وسوق الناس إلى الكفر والفوضى حفاظ على تراث الآباء.. فليصمت أبو بصير فإن ما بينه وبين العامرى بعد ما بين السماء والأرض، وضحك أبو بصير، وانقلبت ضحكاته إلى قهقهات عالية، فالتفت إليه العامرى قائلاً: «ماذا جرى؟؟».

- «أضحك على نفسى».

رماه العامرى بنظرة استغراب، بينما ابتسم المولى المرافق لهما دون أن يعلق، وقال أبو بصير: «لست أدرى لماذا أدس أنفى فيما لا يعنينى؟؟ إن هذا الزمان عجيب.. جد عجيب.. كل صاحب عقيدة يعتقد أنه على صواب.. فليصطرعوا ولترق الدماء، أو تنعقد اتفاقيات الصلح.. ما شأنى بهذا كله؟؟ ما أنا إلا مولى ضعيف، لن أرجح كفة من الكفات.. الحقيقة أننى أخطأت خطأ كبيراً بفرارى إلى محمد.. ومحمد قبل إسلامى، لكنه رفضنى.. وهذا يعنى أن هناك تواطؤاً من نوع ما بين رجال الأديان، برغم ما يشتعل بينهم من حروب».

بدا الارتياح على وجه العامرى وقال: «لقد بدأت تدرك الحقيقة يا أبا بصير».

- «نزوة عابرة أوردتنى موارد التهلكة..».

- «أجل..».

- «أو تعتقد يا عامرى أن قريشًا سوف تعفو عنى. .».

فكر العامرى برهة ثم قال: «لقد ساءنا ما فعلت حقيقة، ولا بد أن النية معقودة للقضاء عليك، لكن رضوخك للحق واعترافك بأن ما ارتكبته كان حماقة كبرى قد يجفف الكثير من غلواء القوم فى مكة».

قال أبو بصير فى هدوء: «ليس لقريش الحق فى عدوانها علىّ. .».

- «هذا أمر غير قابل للنقاش. . من أنت؟؟»..

- «إنسان. .».

- «أعرف. . لكن هل كل الناس متساوون؟؟».

- «أجل. .».

حتقن وجه العامرى وقال: «أنت مثلى؟؟».

- «لا فرق يا عامرى بيننا. . كلنا لآدم وآدم من تراب. .».

- «هذه نبرة البلهاء من رجال محمد. .».

دارت الأرض بأبى بصير، لكنه أفاق على ضربة قوية، وجهها إليه العامرى بقبضة سيفه، فأصابت أنفه وأسالت دمه.

وجن جنون أبى بصير، وكاد يثب على العامرى كنمر مفترس، إلا أن الأخير قد اعتصم بسيفه ووقف مستعدًا أمام

الجريح الذى لا يملك سلاحًا . . وجفف أبو بصير دمه، ثم ابتسم، وقال فى مسكنة: «ما كان يصح أن تفعل ذلك يا أخا العرب».

- «إن التمرد والخيانة يمرحان فى دمك النجس».

طأطأ أبو بصير رأسه فى أسى وقال فى صوت خفيض: «إنى أعتذر. . أحيانًا تنتابنى بعض الحماقات، فأعبر عما أريد تعبيرًا خاطئًا، فأنا لا أؤمن أن السادة والعبيد على قدم المساواة، وإنما أردت أن أقول إننى جد مخلص لمولاى، وإخلاصى يفوق إخلاص أى سيد كبير. . رغم مولى من الموالى».

تراخت يد العامرى، وقل خفقان قلبه، وابتسم: «إنكم لا تفيقون من غيكم إلا إذا عوقبتم».

وفى لمح البصر، انقض أبو بصير عليه، وجرده من سيفه، وتراجع خطوات والسيف فى يده، وتحسس أبو بصير الدم الذى ما زال يتقاطر من أنفه ورمى العامرى الخائف بنظرة حارقة: «الآن أستطيع أن ألقنك درس الحياة. . كى تعلم أن الموالى والعبيد بشر مثلك، وأنهم قد يفوقونك إنسانية ونبلا وقوة».

قال العامرى وهو يرتجف: «تريد أن تقتلنى؟؟».

- «أستطيع ذلك بكل بساطة».

- «إننى أطلب الرحمة».

- «أيها الثعبان . . الموالى والعبيد لا يملكون فضيلة».

- «لكن فى إمكانهم أن ينبذوا الخيانة».

- «إن بقاء مثلك على قيد الحياة انتكاس للإنسانية».

- «أبا بصير».

- «ماذا تريد أن تقول؟؟».

- «أنت لا تجرؤ على فعلها، إن مكة كلها ستخرج عن بكرة أبيها طلبًا للثأر . . وسيمثلون بك أشنع تمثيل، لن يقبلك محمد، ولن تفلت من قصاص مكة . . تعقل».

- «وفكر العامرى، إن الاستجداء والاستعطاف لن يؤثرا فى هذا المولى المتمرد، بل إن التهديد والتخويف قد يكونان أنفع وأجدى».

- «يا أبا بصير . . أنت أحقر من أن تفعلها».

وأخذ أبو بصير يصر على أسنانه غيظًا، ويقول: «قل ما شئت، فلن أسلم رقبتى لسيف الجلاد فى مكة».

- «أتهرب ثانية أيها السافل الجبان».

غلا الدم فى عرق أبى بصير، وطافت سحابة حمراء بعينيه، ورفع سيفه، وأهوى به على عنق العامرى الذى تهاوى إلى الأرض ينزف دمًا، والرعب القاتل يمتزج بنظراته الغاربة وصاح المولى الآخر المرافق لهما، وأخذ يبكى فى رعب، ويجرى صوب المدينة:

«لفظ العامرى آخر أنفاسه، ورقد بلا حراك، وجلس إلى السيف والعرق يتقاطر على جبينه الأسمر، وجسده كله يرتجف.. لم أكن أريد قتلك أيها الأحمق كنت أنوى الذهاب بعيدًا لا غير، كلماتك كانت أقسى من الحراب على قلبى.. حقرت إنسانيتى.. حاولت إرضاءك جاهدًا، ونطقت بما لا أؤمن به، لكنك كنت وغدًا جاهلا، كنت ألعن أداة فى أيدى شياطين مكة أيها المغرور، أنا ما قتلتك.. ولكنى قتلت الظلم وأن الانحراف والقيم المتعفنة».

وصلت أنباء أبى بصير إلى «يثرب» وتحدث بها الناس فى كل مكان، بين مؤيد لفعله، ومتوجس من ذلك خيفة، فالمؤيدون يرون أن الرسول قد أبرأ ذمته، وأن ما حدث أمر يخص أبا بصير وحده، والموجسون يؤمنون بحرفية الاتفاقية، ويرون أن مكة لن تسكت على هذا التصرف، وسيظن المشركون أن وراء أبى بصير قوة محرضة».

وعلق عمر بن الخطاب قائلاً: «كنت واثقًا أن ذلك البند من اتفاق الحديبية والخاص برد كل من أتى مسلمًا دون موافقة مولاه بند مجحف، سيجر العديد من المشكلات..».

فابتسم الرسول دون أن يقول كلمة واحدة.

وقدم أبو بصير إلى رسول الله قائلاً: «يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتنى بيد القوم، وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه، أو يعبث بى».

واقتنع الرسول بمنطق أبى بصير، وتحمس له كبار الصحابة، وحظى بالتأييد الكامل من عامة المسلمين بالمدينة، بل إن الرسول قد أبدى إعجابه بأبى بصير، وتمنى أن يكون معه رجال آخرون يستخلصون حريتهم بأيديهم، ويناقحون عن حقهم فى الحياة الشريفة».

ومال أحد المسلمين على أبى بصير قائلاً: «إلى أين تذهب؟؟».

- «أرض الله واسعة يا أخا الإسلام.. ولكنى سوف أذهب إلى العيص».

- «العيص؟؟».

- «أجل.. على ساحل البحر.. هناك الطريق بين مكة والشام.. أنا أعرف أن «اتفاقية الحديبية» تلزم الرسول بفتح

الطريق أمام تجارة قريش . . ولكنى الآن «وحدى» سوف أذهب إلى هناك . . وسيتبعنى خلق كثير من مكة . . وهناك سنقطع الطريق على المشركين . . ونريهم الانتقام الرهيب . . عندئذ يعلمون أنه لا حق لأحد فى أن يصادر حريات الآخرين، أو يلوى أعناقهم كى يعتنقوا دينًا لا يريدونه».

- «إنك تخوض معركة شاقة يا أبا بصير».

هز أبو بصير رأسه قائلاً فى ثقة : «هذا هو المخرج . . هذا هو المخرج . . والرسول عنه راضٍ . . بل تمنى أن يتبعنى رجال آخرون . . أو كنت تظن أن الرسول يرتاح إذ يُردُّ المؤمن الذى جاءه إلى أرض الكفر والاضطهاد مرة أخرى بعد أن من الله عليه بنور الإسلام».

وتمتم الرجال فى إعجاب : «نعم الرجل أبو بصير ! !».

□□□

الفصل [٢٣]

شعر أهل مكة بغير قليل من الغيظ، إن رجلاً تافهًا كأبى بصير قد استطاع أن ينفذ إلى ما يريد وأكثر مما يريد، أراق دمًا حرًا، هكذا قالوا، واعتنق ما شاء من مبادئ، وأفلت من أيديهم، وأرغوا كثيرًا وأزبدوا، وزعموا أن محمدًا يسخر منهم حينما يعلن رضاه عن صعلوك كأبى بصير، والأدهى من ذلك أن الغرور قد ركب رأس أبى بصير، فظن أنه قادر وحده على أن يعترض طريق التجارة من مكة للشام، فيفسد على قريش تجارتها، ويهدد أمنها.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فقد أخذت مكة تعيد التفكير فى سياستها نحو مواليها وعبيدها، هل تزيد من قسوتها على هؤلاء وتفتح عينيها جيدًا على تحركاتهم وأفكارهم، أم تحاول استرضاءهم والإحسان إليهم حتى ينصرفوا عن تلك الدعوة الخطرة التى يحمل محمد لواءها؟؟ والغالبية العظمى من رجالات مكة لم تفكر كثيرًا فى الأمر،

فطريقة معاملة الموالى والعبيد معروفة منذ قديم الزمان، وليس هناك ما يدعو إلى تغيير هذه الطريقة، العناد فى مكة سليقة فى قلوب الكبار، وخلق يرتبط بكرامتهم وفخارهم، وأخطاء العبيد والموالى لن تكون مدعاة للتخفيف عليهم، أو الشفقة بهم. . وقال خالد بن الوليد: «أرى أن الكلمة الطيبة قد تكون أفعل من ألف سوط على ظهر عبد».

ورد أبو سفيان: «إنك عميق النظرة، عاقل الفكر».

وزمجر عكرمة: «لا تقيموا وزنًا لهؤلاء العبيد والموالى، فهم أحقر من أن يغيروا مجريات الأمور أو يؤثروا فى الأحداث».

وهزت هند رأسها فى ضيق قائلة: «إن أمر محمد عجيب . . إنه ينفذ بنود الاتفاقية ولا ينفذها فى الوقت نفسه. . ».

قال خالد: «محمد لا لوم عليه، رفض الرجل الهارب، ورده إلينا، ماذا نريد منه بعد ذلك؟؟ أكان من الضرورى أن يضعه فى القيود والأغلال ويسوقه إلينا سوقًا؟؟ من العار أن نطلب منه ذلك».

وتسامع الناس فى مكة بما جرى لأبى بصير، وهزتهم سعادة خفية، فكثيراً ما يطرب الضعفاء المقهورون، وهم

يستمعون إلى سيرة رجل منهم وهو يمرغ شرف الكبار فى الرغام، ويتحداهم، ويسخر من سلطانهم، ولا يكاد يمر يوم حتى ترهف مكة أسماعها كى تستمع لقصة جديدة، عن رجل من الضعفاء أو الموالى والعبيد يفر إلى ساحل البحر نحو «العيص» كى يلحق بأبى بصير».

وفى يوم من الأيام وقف أهل مكة مشدوهين أمام أنباء لا تكاد تصدق.. فقد جاء رجل فوق ناقته، يجرى ويصيح: يا أهل مكة.. ضاعت تجارتكم.. يا أهل مكة.. قتل رجالكم، وسلبت أموالكم.. يا أهل مكة.. أبو بصير ورجاله يقطعون الطريق إلى الشام».

وقف الناس مذهولين، وأصحاب الأموال احتقنت وجوههم، وسادهم غيظ قاتل، وصرخ أحدهم بصوت أجش: «لنجرد له جيشاً».

وقهقه خالد بن الوليد قائلاً: «مهلاً يا عكرمة!! هل نسيت؟؟ أتجرد جيشًا لحرب أبى بصير.. إنه تافه لا يستحق ذلك كله».

وأدرك عكرمة أن خالدًا يقرعه ويسخر منه، ويشير إلى حديثه السابق عنه، فتمتم: «أتهزأ منى يا خالد؟؟».

- «أى عكرمة إن الجيش لن يجدى فى مثل هذه الأمور..

لن تجد صفوفًا تقف قبالك . . ولا حشودًا منظمة تواجهها . . إن أبا بصير ورجاله مبعثرون فوق قمم الجبال وفى المغارات . . ينقضون فرادى أو اثنين كالصقور . . إنهم يربكون أى جيش ، ولن يطولهم» .

ودق عكرمة الأرض بقدميه وقال : «أنستسلم لمولى آبق تافه؟؟ ماذا تفعل إذن؟؟» .

- «إنك ترفض وجهة نظرى» .

- «أتريد يا خالد أن نحمل الهدايا والقرابين ، ونتقدم خاشعين راكعين لابن اللئيمة؟؟» .

قال خالد وهو يبتسم : «ليس هناك سوى حل واحد» .

- «ما هو؟؟» .

- «افتحوا الطريق أمام الناس ، فمن شاء فليبقَ معنا ، ومن شاء فليذهب إلى محمد . . دعوا الناس يختارون . . إنه حقهم المقدس» .

- «هذا كلام لا يقوله عاقل ، إنه علامة ضعف واستسلام لا تخفى عليك . . لو نفذنا كلامك لهرول الألوف صوب يثرب» .

قهقهه خالد وقال : «إذن كيف تطمئن إلى رجال يتحرقون شوقًا ليثرب؟؟ ألا تعتقد أن هؤلاء قد يخذلونك إذا حمى الوطيس ، وجد الجد؟؟» .

ضرب عكرمة كفًا بكف، وقال: «إننى فى حيرة لا أدرى ماذا أفعل؟؟».

- «الطريق واضح لكن كبرياءك تمنعك».

- «وهل بقى لنا غير الكبرياء؟».

- «بل بقى العقل يا عكرمة، ندبر به أمورنا لو أردنا، أنا لا أدير المعارك بكبريائى وعاطفتى.. لو فعلت ذلك لحاقت بى الهزائم، والعقل عصمة يا عكرمة.. وأؤكد لك أنك لو فتحت الطريق أمام الذين يرغبون فى اللحاق بمحمد لما ذهب إليه غير عدد قليل، إن الأسوار التى نقيمها حول الفكر، والسيوف التى نشهرها فى وجه الراغبين فى التصرف بحرية، تزيد من عدد الهاربين والمتمردين.. صدقنى يا عكرمة، فأنا قد أكون أدرى بخبايا النفوس منك.. ليس فى الأمر ضعف وهزيمة كما تتصور، إنك تتصرف بحكمة كى تبلغ أقصى ما تتمنى من نجاح».

هز عكرمة رأسه فى أسى وقال: «إن رأيك يا خالد جدير بالنظر والتمحيص.. فلنذهب إلى أبى سفيان».

الناس ينظرون ما يجرى فى حيرة، أية قوة وهبت لهذا المولى المسكين الذى دوخ قريشًا، ووقف لها «بالعيص» يهدد أرزاقها، ويدمر أحلام تجارها وأثريائها؟؟ إن أبا بصير ليس

نبيًا، لكنه يثير ضجة كبرى، ويعجز الكبار عن التصدى له، أو تلقينه درسًا فى الأدب، أصبح هو ورجاله سبعين فردًا، لكنهم بعثوا فى نفوس القادة المكيين من الغيظ أكثر مما يبعثه جيش لجب، إن محمدًا هو المسئول عن هذا كله، إن تربته تنبت المتمردين والعصاة، وتصنع الذعر الذى يؤرق نوم السادة وأمنهم.. وعندما التقى عكرمة وخالد مع أبى سفيان، قال خالد: «الحل ليس لدى أبى بصير أو محمد».

قال عكرمة: «أين يكون؟؟».

- «عندنا».

- «كيف؟؟».

- «بالشجاعة».

- «لا أفهمك.. إنك رفضت خروج جيش لتأديب المارقين».

تنحنح خالد وقال: «أتوافقون على التنازل عن شرط من شروط الاتفاقية المعقودة بيننا وبين محمد فى الحديبية؟؟».

- «أى شرط؟؟».

- «نقول لمحمد: إننا لا نريد منه أن يرد إلينا الهاربين دون موافقة سادتهم.. فليقبلهم وليقبل أبا بصير ورجاله.. عندئذ

يظل طريق التجارة إلى الشام مفتوحًا . . وعندئذ نستطيع أن نحاسب محمدًا إذا اعتدى أحد رجاله على الطريق».

قال أبو سفيان وهو يهز رأسه فى تفكير: «الرأى ما رأيت يا خالد».

زمجرت هند زوجة أبى سفيان وصرخت محتدة: «أرى أن محمدًا بدهائه يبتز منكم حقوقكم واحدًا تلو الآخر . . كنت واثقة أن صلح الحديبية لن يجنى ثمرته سوى محمد . . ماذا جنيتم من هذه الاتفاقية؟؟ لقد استطاع محمد فى ظلها أن يقضى على حلفائكم اليهود قضاء مبرمًا، وأن يستميل إليه بعض القتال، ويخضد شوكة البعض الآخر، تارة بالتهديد وتارة بالقتال، ثم إنه الآن ينتزع منكم الموافقة على قبوله أى لاجئ إليه، وفى هذا تشجيع كبير للمتمردين والعصاة . . فلا تستغربوا إذا أصبحتم يومًا ووجدتم أغلب الموالى والعبيد قد فروا إليه، ولن يبقى لكم غير الندم والحسرة». والأدهى من ذلك أنه قريبًا سوف يستدير العام . . ويأتى محمد ورجاله ليزوروا البيت الحرام . . ويدخلوا مكة تحت سمعكم وبصركم . . وستخرجون أنتم إلى قمم التلال والجبال المجاورة . . وتتركونه يؤدى شعائره وصلواته . . آه . . لقد كان صلح الحديبية كارثة كبرى بالنسبة لنا ونصرًا مؤزرًا لمحمد».

قال أبو سفيان فى ضيق: «وماذا كنا فاعلين غير ذلك؟؟».

- «كنتم تميلون عليه بسيوفكم وتبيدونه هو ورجاله عن آخرهم. . السيف وحده العويصة. . ولا شيء غير السيف».

قال خالد في برود: «لن يجدى البكاء على ما فات. . هيا لنكتب لمحمد».

نزعت هند نفسها من الحجرة غاضبة وهى تنصرف قائلة:

- «افعلوا ما شئتم. . لقد أضعتم كل شيء».

عندما تلقى الرسول رسالة قريش بموافقتها على إيوائه من يأتى إليه هاربًا، ابتسم الرسول والتفت إلى عمر بن الخطاب. إن عمر كان من أشد المعارضين للاتفاقية، وكان يظن أن المسلمين قد قبلوا الدنية حينما وافقوا على إرجاع من أتى مسلمًا دون موافقة وليه. . وها هى الأيام تثبت صدق الرسول، وصواب تصرفاته، وتصدق آيات القرآن حينما اعتبرت صلح الحديبية «فتحًا مبينًا».

على الفور أرسل الرسول بعض المسلمين كى يستدعوا أبا بصير ورجاله إلى المدينة، وتمتم أبو بصير -وقد بلغته رسالة النبى- قائلاً: «السمع والطاعة يا رسول الله، هذا هو المخرج. . صدق الله ورسوله».

الفصل [٢٤]

- «استدار العام يا أبتاه» هذا ما قالته حفصة لأبيها عمر بن الخطاب ليلة السفر الكبير، ثم استطردت قائلة: «إننى أختزن فى قلبى شوقًا عارمًا لمكة ورؤيتها، وأحن إلى الشوارع والبيوت، إلى مهد الصبا والذكريات.. ليتنى كنت معكم يا أبت.. غدًا فى ألفين من الرجال، والرسول فى المقدمة على ناقته القصواء.. قاصدين مكة الحبيبة، ستطوفون بالبيت الحرام، وتنحرون الإبل والشاة، وتهتفون: لبيك.. لبيك إنها لحظات حلوة.. ليتنى كنت معكم.. لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق.. لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين، لا تخافون.. وأشرق وجه عمر ابن الخطاب بالفرحة، وشرد إلى بعيد.. إلى أيام العناد والقسوة حينما كان يتصدى لدعوة الله، ويرفع فى وجهها السيف، ويشارك الجبابرة فى تعذيب المسلمين الأوائل، إنها حقبة من العمر يكرهها عمر، ويتمنى أن تنمحى تمامًا من

سجل حياته . . لكن هيهات . . ثم يتذكر عمر لحظة النور الذى تدفق فغمر قلبه وروحه، حينما استقبل عقله الحقيقة الكبرى بما تحتويه من صدق وإقناع وقوة ومنذ ذلك التاريخ لايحيا إلا لله، ولا يقصد فى عمل يعمله إلا وجه الله، وهاجر . . وحارب . . وانتصر وهزم . . لا لم يهزم، إن لحظات التراجع بما فيها من تضحيات ودماء غالية كانت تحمل فى ثناياها انتصاراً من نوع ما، ونمواً مطرداً لقوة الفكر والروح والجسد . . وها هو يتجه إلى مكة بعد سنوات فى ظل اتفاقية «صلح الحديبية» الاتفاقية التى رفضها فى البداية، وهاجمها بشدة والتى أثبتت الأيام أن الرسول كان على حق ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وعمر يشعر بانتعاشة مفاجئة ، وهزة شجية لهذا السفر، إنه سيطوف بالبيت العتيق، ويؤدى الشعائر، وأئمة الكفر يقتعدون رءوس الجبال، وأسطح المنازل يشهدون قافلة النور تهلل وتكبر، وعمر يذكر جيداً ما فعله مشركو مكة ، وما سببوا للمسلمين من كوارث وتضحيات . . لكم يحلو له أن يطوف بالبيت، وأن يرفع عقيرته بالتكبير والتلبية والتسبيح، بحمد الله، وهو يعلم أن ذلك سوف يبعث الغيظ فى قلوبهم الصدئة، وسيجعل منهم صغاراً تفهاء أمام عامة الناس فى

مكة، إن المشهد كله سيوحي للجميع بأن محمداً انتصر، وأن مكة تتخبط كمخمور، أي نصر قد حققه الله للمسلمين!!» .

والحقيقة أن عمر يتشوق لمكة، لأهلها وشوارعها ومبانيها. . ربما لا يفكر عمر في الأرض بقدر ما يفكر في المبدأ أو العقيدة، أجل . . الفكر هو عالمه ومناخه . . وما الأرض إلا وعاء فإن كانت يثرب قد فتحت ذراعيها لاستقبال الداعية الجديد والمضطهدين من رجاله ، إذن فهي الوطن، وهي المكان الغالي، وكان عمر يردد ذلك ويعلنه، غير أنه شعر أن شوقًا يشده إلى مكة حيث بيت الله الحرم، وحيث الذكريات بحلوها ومرها، إنها أيام حياته الأولى، مكة هي المكان والزمان في الماضي وشيء عجيب أن يمتزج الزمان والمكان، فيخلق وحدة من المشاعر صعبة التفسير . . هو يحب مكة، ويتمنى أن ينطلق إليها على عجل . . ما أعجب قلب الإنسان !!! وأفاق عمر من شروده على قولة قالتها حفصة ابنته : «أبت . . ألا تخافون أن يفاجئكم الغدر، وأنتم بين ظهرانيهم؟؟» ابتسم عمر قائلاً : «إن توكلنا على الله لا يعني الاستهتار والتواكل، الله معنا ياحفصة، والسيوف في القرب، وعلى مشارف مكة عدد من فرساننا خارج نطاق الحرم . . ثم . . » .

- «ثم ماذا يا أبتاه؟؟» .

- «إن خبرة أبيك بالناس والسفارات قد علمته الكثير . . » .

- «ماذا تعنى؟؟».

- «لو كان أهل مكة على قلب رجل واحد لما عقدت اتفاقية الصلح . . إن لى رأيًا غريبًا بعض الشىء، إن أبا سفيان وبطانته يخافون أهل مكة، وهذا ضمان رائع . . ».

- «كيف؟؟».

- «إن ما تجمع لدى من أنباء واستقراءات يؤكد لى ميل عدد كبير من أهل مكة للإسلام، فإذا ما قامت معركة فقد يكون عدد المنحازين إلينا من أهل مكة أكثر من المنحازين لأبى سفيان . . لسنا من السذاجة يا حفصة بحيث نقامر بحياتنا ومستقبلنا فى مأزق حرج . . نحن نعرف أين ومتى نخطو . . والله معنا . . ».

هزت حفصة رأسها موافقة وأضافت: «لشد ما أرتاح بالى للقضاء على اليهود . . إن قوتهم -قبل يوم خيبر- كانت تشكل خطرًا دائمًا . . أما الآن فقد انعزلت مكة، ووقفت وحدها مترددة فى مواجهة المسلمين . . ».

وابتسم عمر وقال مداعبًا: «أعرف أنك لست راضية تمامًا عن كل ما جرى فى خيبر . . ».

قالت فى دهشة: «كيف يا أبت؟؟».

- «عندما عاد الرسول منتصرًا وفى يده زوجه الجديدة صفية، أصابتكن يا زوجات الرسول غضبة ظاهرة . . ».

قالت حفصة وقد بدا الضيق على وجهها: «أنا لا أغار منها، عائشة هى التى لا تطيق رؤيتها..».

قال عمر وهو يسدد نظرات فاحصة إلى ابنته:

«وأنت؟؟».

- «إنها يهودية قلبًا وقالبًا..».

- «لكنها أسلمت وحسن إسلامها..».

- «أبتِ.. دع هذا الحديث فإنه يثيرنى.. الناس كلهم يتحدثون عنها وعن قصتها، حتى لكأنه ليس للرسول زوجات سواها.. هل نسوا أن أباها حيى بن أخطب أعدى أعداء الإسلام وأن زوجها كنانة بن الربيع الذى أمر الرسول بسفك دمه، وأن قومها فى بنى النضير وقريظة وخيبر قد أساءوا للاسلام أبلغ الإساءات؟؟».

ابتسم عمر ثانية وقال: «كان رد صفية بسيطًا مفحمًا حينما ردت قائلة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

حاولت حفصة أن تكتم انفعالاتها، لكنها وشت بكلماتها عما يعتمل فى صدرها حين قالت: «بعض النسوة يخفين وراء حسنهن، وبراءة مظهرهن، وحلو أحاديثهن السموم الناقعات..».

- «تلك هى الغيرة بعينها . . » .

- «من العار أن أغار من امرأة كهذه . . » .

صاح عمر فى حدة : «اصمتى يا بنت عمر . . إنكن تشغلن وقت الرسول بتفاهات وترهات لا معنى لها . . والله لو أمرنى الرسول بضرب عنقك لما ترددت ، أنتن لا تدركن فداحة التبعة الملقاة على عاتق الرجال . . » .

وأطرقت حفصة دامعة دون أن تجيب . وصمت عمر برهة ثم قال : «إن الرسول لا يقدم على أى عمل من الأعمال لدنيا يريدها ، ووراء تصرفاته وأعماله حكمة عالية قد لا تدركها عقولكن القاصرة . . » .

ردت حفصة قائلة : «أنا لا أنكر ذلك ، لكنكم تنسون أننا نساء . . » .

- «لستن مجرد نساء عاديات ، بل زوجات الرسول . . إنكن تؤدين دورًا ضخمًا لو تتعمقن النظر والتفكير ، ولقد جلبتن على الرسول فى الأيام الأخيرة متاعب لا حصر لها ، يجب أن تعلمن أنه صلوات الله وسلامه عليه ، يقضى أيامًا عصيبة شائكة ، برغم ما يجود به الله علينا من توفيق وانتصارات . . يجب أن تكن القدوة الحسنة لنساء المسلمين . . » .

أطرقت برأسها قائلة : «حق ما تقول . . » .

الفصل [٢٥]

لم يزل «عبد الله بن أبى» طريح الفراش منذ ذلك الحادث الذى لن ينساه، وهو سقوط «خيبر»، يومها أظلمت الدنيا فى وجهه، وأربدت ملامحه، وكاد عقله يذهب من هول الفجيعة، وعبد الله يعرف كيف يميز الأحداث الكبار فى معناها، ويدرك مراميها وأبعادها، وسقوط خيبر لم يكن حادثًا صغيراً بالنسبة له، فقد كان يحمل أكثر من معنى، فمثلاً سقوط اليهود نهائيًا وهم حلفاؤه وأذكى وأخبث قوة مناوئة لمحمد، أمر بالغ الخطورة وانكماش الجبهة المعادية للنبى أمر يقرب آماله ويحقق من أهدافه، وسقوط اليهود إنذار لقريش ومن يحالفهم. . إن ما حدث كارثة كبرى لم تتحملها أعصاب عبد الله المتوترة، ولا صحته المتهاوية، لقد جلس ينتظر الأنباء على أحر من الجمر، وفى كل يوم يذهب خارج المدينة يتنسم الأخبار، يمد خطاه بعوده النحيل، ونظراته القلقة، والعيون ترمقه ساخرة. . ما أشبهه بملك ضليل لا تكاد الحسرة تفارقه

على ملكه الضائع، أحلام مجده المنهار، وكلمات قاسية تصفح مسامعة، «لم يزل يحلم بالتاج والخرز».

- «شيخ المنافقين يتمنى كارثة تحط على رأس المسلمين».

وأحيانًا يصمت فلا يعلن بكلمة واحدة، ويبدو وكأنه لم يسمع شيئًا، وأحيانًا أخرى يثور، ويرميهم بالجهل والحماقة والتجنى.. «أيها الأغبياء، أنتم كالببغاوات، ترددون ما تسمعون دون أن تفقهوا حرفًا، إننى لا أفكر إلا فى أمنكم وسلامتكم، مصيركم يقلقنى دائمًا، لكن قصور عقولكم يجعلكم ترمون التهم جزافًا..».

ولم يطل تنطسه للأخبار، فقد عاد ذات مساء كابيًا حزينًا، وجسده يرتجف، ثم دلف إلى البيت شاحب الوجه، لاهث الأنفاس، ولمحته زوجه من بعيد فهرولت إليه وهى تقول: «لقد انتصرنا على خيبر».

ألقى بجسده المنهك وسط باحة البيت، ووضع يمناه على صدره، وقال فى إجهاد ظاهر: «إنى أختنق.. قبضة فى صدرى.. إنى لأظنها النهاية..».

اقتربت منه فى حزن ووضعت يدها على جبينه البارد الذى يندبه العرق، ونظرت إلى عينيه المحملقتين، ووجهه الشاحب، وفمه المفتوح وقالت: «وامصيبتى!! ماذا جرى لك يا عبد الله؟؟».

- «إن يداً خفية تعتصر روحى خلف الضلوع . . ».

- « كيف؟؟».

- «لا أدرى . . حدث الأمر هكذا فجأت . . ».

- « لكل شىء سبب . . ».

- « إلا شقائى وعذابى فأنا لم أجد لهما سبباً . . إلى بجرعة ماء».

وأسرعت لتحضر له ما يريد، وأخذ عبد الله يتمتم: «آه . . قتلنى محمد . . لم يشرع فى وجهى شيئًا، ولم يسدد إلى قلبى سهمًا . . وليته فعل ذلك . . لو فعل لأراحنا منذ زمن بعيد . . أجل قتلنى بسخرياته وعطفه وعفوه . . آه . . كان عفوه أقسى من السيوف والنار . . تسفيهه لآرائى عذاب ما بعده عذاب . . احتقاره لنصائحى هو الموت بعينه . . المصيبة أن الأيام أثبتت صوابه وخطئى . . لماذا أعيش؟؟ ألأراه يغزو وينتصر . . وتتسابق نحوه الجموع، ويتساقط أعداؤه كما يتساقط الذباب، واكرباه!! لو مت قبل ذلك لاسترحت ولكانت ميتة شريفة . . آه . . لقد سقطت دولة الشوامخ . . انتهى عصر الرجال الكبار ذوى الحسب والنسب والرأى والمكيدة، وجاء محمد بأمور عجيبة، وأخلاق أعجب، ورجال مبهورين بحكمته ومبادئه . . ألعن ما فى هؤلاء الرجال أنهم أسقطوا القداسات

القـديمة، وجـعلوا من أنفـسـهـم أشـراف الأرض ونبـلاءها، والأنكى من ذلك أنهم يثقون فى تصوراتهم ثقة لاحد لها . . ويح قلبى!!! سقطت خيبر، وانهار سلطان أذكى قوة فى بلاد العرب، وغنم محمد حصونهم وأموالهم وسيوفهم . . وحتى نساءهم . . لئن بقيت مكة نائمة، هانئة باتفاقية «صلح الحديبية»، سعيدة بأن تجارتها تروح وتجىء بين الشام والحرام . . فستكون النهاية لقريش، وستكون بداية للملك الصعاليك والمفتونين بالنبوات . . » .

– « الماء يا عبد الله . . » .

جرع الماء، وتنهد فى حزن، وألقى برأسه على جذع نخلة قديم، وأخذ يجوب السماء الداكنة بنظرات شاردة، وقال : «أيموت الناس هكذا فجأة؟؟» .

– «لمَ تفكر فى الموت؟؟» .

قالتها زوجه فى ضيق ممتزج بالخوف : «الموت قضاء لا فكاك منه . . » .

– «أعرف أنه حق، لكنه مر . . » .

– «أصبحت أشك فى كل حق فى هذه الدنيا . . » .

– «لن يزيدك هذا إلا ألما . . » .

- «إننى يا امرأة لا أجد مبرراً لكل ما يحدث، أى منطق يسير أمور الحياة، لماذا يموت هذا؟؟ ويطول عمر ذاك؟؟ ولماذا عمرو ينتصر وينهزم زيد؟؟

لماذا . . لماذا . . ؟؟ إن آلاف علامات الاستفهام تطحن رأسى، وتثقل على قلبى . . ».

قالت زوجه فى رضا: «الله فى خلقه شئون، لا يسأل عما يفعل و يسألون . . »

- «هذا تفسير السذج والبلهاء . . ».

ثم جذبها من كمها وقال بصوت جريح: «لماذا انتصر محمد على خيبر؟؟».

قالت بسرعة: «لأنه على حق . . »

صرخ فى حدة: «أيتها الحمقاء، ولماذا هزم يوم أحد؟؟».

- «لأنه . . لأنه . . ».

قاطعها قائلاً فى سخرية: «لأنه ليس على حق؟؟».

- «ماذا جرى يا عبد الله . . هذا كفر؟؟».

- «إننى أتساءل . . أريد أن أعرف الحقيقة . . ».

- «محمد على حق دائماً».

- «فى حالة النصر أو الهزيمة؟؟».

- « أجل يا عبد الله . . يجب ألا يكون هذا موضع نقاش لمن آمن بالله واعتنق الإسلام دينًا . . وأنت مسلم برغم ما تبديه من عدم رضا عن بعض ما يحدث، يجب ألا يجرك ذلك إلى الكفر . . ».

تنهد يائسًا وتمتم: «لو كان لى إيمان كإيمانك!!».

- «إنك ترفض . . أقمت حياتك الجديدة دون أن تتخلى أنقاضك القديمة، وتحسن من وضع الأساس.»

زمجر فى عناد: «ليس لى حياة جديدة . . أنا كما كنت لم أتغير . . الإيمان بالله ليس أمرًا جديدًا تمامًا».

وابتلع ريقه ثم عاد يقول: «لو وجدت إجابات واضحة مقنعة على تساؤلاتى لاستراح بالى . . ».

- «لن تجدها».

- «ألا أجدها عند محمد».

- «لن تجدها».

- «لماذا؟؟ أهو العجز عن إقناعى؟؟».

- «كلا».

- «ماذا يا امرأة؟؟».

- «الإجابات الصحيحة لن تقنعك.. لن يقنعك شيء.. المشكلة ليست أسئلة وإجابات عند محمد..»

ثم أشارت إلى قلبه مستطردة: «المشكلة هنا، فى قلبك أنت.. إنه يأنف من أن يؤمن..».

ابتسم عبد الله وقاس زوجته بنظرات فاحصة، وقال: «إنك لا تقلين كفاءة وذكاء وإخلاصًا عن أى داعية كبير من دعاة محمد».

- «أعلم ذلك.. إيمانك يوحى إليك بما تقولين.. هذا أمر بالغ الخطورة.. هناك دعاة يرددون فقط ما يلقنهم إياه معلمهم.. أما أنت فتبدعين إبداعًا لا مثيل له.. أنت وولدى عبد الله.. ما أشقانى!! إنه لون من سخرية الأقدار لا أكاد أطيقه، أليس نكبة كبرى أن أفشل فى إقناع زوجتى وولدى بما أعتقده؟؟».

قالت زوجه فى فرحة طارئة: «لا قيمة للقربى أوصلة الرحم فى أمر كهذا..».

- «آمن بمحمد البعداء، وكفر به الأقرباء.. الأمر أمر قلوب وعقول..».

تململ عبد الله فى مكانه وقال: «أشعر أن اليد الخفية تتسلل خلف الضلوع، وتخنق روحى لا أستطيع التنفس، إننى جائع إلى مزيد من الهواء..».

قالت فى ارتباك وهى تجلس وتقوم دون هدف: «إنك تتكلم كثيراً وهذا يزيد من متاعبك».

وظل عبد الله فى فراشه لا يغادره، وازداد وجهه شحوباً ونحولا، وملأ الضيق نفسه، إن العجز البدنى مضافًا إلى عجزه النفسى يزيده كربًا وأسى، وفى عزلته لم يكف عن التفكير، يذهب بفكره بعيداً إلى مكة، هل سيتحركون؟؟ هل سيستسلمون لتلك الاتفاقية الملعونة؟؟ هل نامت المعارك وانطفأت شعلة الحرب وساد السلام؟؟ ومحمد ينتصر فى ظلال السلام انتصارات متلاحقة.. لا.. لا بد أن تشتعل الحرب، لو لم تشعلها قريش لأشعلها محمد.. لكن الموت قريبًا يا عبد الله بن أبى!! ترى هل ستموت قبل أن ترى اليوم المشهود؟؟ أصابنى الداء يوم أن بلغتنى أنباء خيبر، وازداد بى الأسى حينما سمعت أن محمداً عاد وفى يده «صفية» زوجة كنانة بن الربيع، وابنة حيى بن أخطب الصديق الصدوق.. يا هول ما أرى!!

وانطوى عبد الله على أحزانه، حاول مراراً أن يهرب من فراشه، ويستأنف نشاطه العادى، ويمشى فى الشوارع

والأسواق، ويذهب إلى المسجد كعادته، لكنه لم يستطع، فما يكاد يبلغ عتبة بابه حتى تشتد ضربات قلبه، وتتلاحق أنفاسه، ويصبح فريسة للاختناق الحاد الذى يكاد يزهق روحه . .

وعندما علم بمسيرة المسلمين إلى زيارة بيت الله الحرام حسب نصوص «صلح الحديبية» استبد به الفضول، وثارت برأسه الأفكار العديدة، وأخذ يتصور احتمالات الموقف المختلفة، إن الأمل لم يخب فى قلبه العليل بعد . . وفى اليوم الموعود سمع ضجة عالية وصخبًا، فتحامل على نفسه، وذهب إلى كوة صغيرة فى جدار منزله تطل على الطريق العام . . ورأى حشود المسلمين تحث الخطى يتبعها عدد كبير من المودعين من الشباب والأطفال والكهول . . وفى مقدمة الركب محمد فوق ناقته القصواء . . والوجه الشاحب النحيل يرقب الموكب . .

- «آه . . أخيراً سيدخل مكة زائراً . . هكذا البلهاء من كبار رجالات قريش يتصورون، ليس زائراً بل غازيًا . . سيراه الناس هناك بابتسامته الآسرة، وكلماته الساحرة، ووجهه الذى لا يبدو عليه أثارة من تعب أو خوف أوتردد، سيرونه على هذه الصورة فيتسابقون إلى التمسح به، والإعجاب بأسلوبه، والسير فى ركابه . .

لئن لم يخرج من صفوف المكيين رجل قدير، ويحرضهم على القتال، ليقضوا القضاء الأخير على محمد، فستفوت الفرصة إلى الأبد.. إلى الأبد.. أين أنت يا خالد بن الوليد؟؟، أين أنت يا عكرمة بن أبى جهل ؟؟ أين؟؟ أين؟؟ هل تعجز مكة عن أن تدفع برجل مغوار يشعل النار، ويغير مجرى الأحداث؟؟.

وأفاق عبد الله من شروده على صوت يهتف فى شوق ظاهر: ليتنى كنت معهم.

والتفت خلفه ليرى زوجه تمشى كالمسحورة، ودموع السعادة عالقة بأهدابها:

صاح بها: «أى لذة فى ذلك؟؟ ألم تزورى البيت مرات قبل ذلك؟؟».

- «كان ذلك أيام الجاهلية يا عبد الله.. أما اليوم فإن له معنى آخر، وعقيدة أخرى لو رأيت الحبيب فوق ناقته القصواء، ووجوه المهاجرين والأنصار تشرق بالسعادة.. لبيك.. لبيك.. لا شريك لك لبيك.. كما تخيلت المشهد شعرت بانفعالات لا يمكن التعبير عنها.. إنه لشىء رائع مثير.. ومكة صامتة تنظر.. وأهلوها فوق قمم الجبال وهامات الشجر.. بعد سنوات من القطيعة.. آه يا عبد

الله.. إننى لا أعراف ماذا أقول.. لا شك أنه حدث كبير..»

وارتسمت على ثغره الابتسامة الساخرة الصفراء وتمتم: «فلندع الله ألا تغدر بهم مكة..»

- «وهل يجرؤ أحد على أن ينتهك حرمة البيت الحرام؟؟»».

تنهد قائلا: «لا تستبعدى شيئًا.. نحن فى زمن الأعاجيب..».

◻◻◻

الفصل [٢٦]

«أهدر الرسول دمك يا حويرث . . ».

هذا ما قاله عكرمة بن أبن جهل، وعندما سمع الحويرث ذلك رفع إلى عكرمة وجهًا شاحبًا، وعينين قلقتين، وقال في توتر: «أعرف ذلك، لكن ليس لتهديد محمد أى أثر حقيقى علىّ».

- «كيف يا حويرث؟؟».

- «إنه تهديد لا قيمة له إلا إذا كان محمد قادرًا على تنفيذه، نحن لنا القوة والمنعة، ومن ثم فإن قراره قرار موقوف . إن محمدًا إذا قدر على الحويرث فمعنى ذلك أنه قد دانت له العرب . . وهيهات أن يحدث ذلك!!».

ضحك عكرمة فى خبث وقال: «ألم تساورك الوساوس على حياتك؟».

- «إن الأمر واضح كل الوضوح . . ».

- «أعرف، لكن ألا تخاف؟؟».

هاج الحويرث وماج وقال فى ضيق: «محمد يغزوكم بالرعب، ولست أنا ممن تنطلى علىَّ حيله.. وأنت يا عكرمة ألا تظن أنه سوف يهدر دمك؟؟».

ابتسم عكرمة فى استهتار وقال: «سيفى فى يدى، وصلابتى فى رأسي، وحقدى وكراهيتى لدينه لا تتزحزح من قلبى، وسأبقى حاملا على محمد حتى النصر أو الموت، لقد حددت موقفى ومستقبلى بالنسبة لهذا الأمر.. ولم تعد تساورنى أية هواجس».

- «يسعدنى أن تكون كذلك».

صمت الحويرث برهة، ثم قال: «أنا لم أرتكب جرمًا يذكر، لقد شاركنا جميعًا فى إيذاء المسلمين».

لوح عكرمة بيده وقال: «حنانيك.. إن أمرك جد مختلف، أنت الذى تسببت فى إيذاء زينب بنت الرسول، وزوجة أبى العاصى بن الربيع وتسببت فى إجهاضها.. إنها لم تزل مريضة حتى الآن، ولم تزل تنزف دمًا حتى اعتلت صحتها.. وأشرفت على الموت».

قال الحويرث وقد استبد به مزيد من الضيق: «إن كنت قد آذيت زينب فأنتم آذيتم أباها.. محمد نفسه.. فلا غرابة فى الأمر..» ولعل عكرمة أراد استثارته، أو بث مزيد من المخاوف فى قلبه لمجرد التسلى حين قال: «لكنها امرأة يا حويرث».

هب الحويرث واقفًا وقال فى غضب: «لم نكن نفرق بين رجل وامراة آنذاك».

وترك الحويرث مجلسه ومضى ثائرًا، إن ما فعله الحويرث بزينب كان حماقة لاشك فيها، فعلى الرغم من طرب أعداء محمد لما حدث، إلا أن أغلبية أهل مكة سخطوا على التصرف وحملوا عليه حملة شعواء، كان الحويرث يدرك ذلك، بل كانت أذناه تلتقطان بعض التعليقات الهامسة أحيانًا والصاخبة أحيانًا أخرى، فقد كان احترام المكيين لزينب احترامًا كبيرًا، فهم يعلمون دماثة أخلاقها، وتقديسها البالغ لحياتها الزوجية، وانحيازها لجانب زوجها برغم كفره وإسلامها، كانوا يقولون: «نعم الزوجة زينب» وكانوا يقولون أيضًا: «نعم الرجل أبو العاصى» الذى رفض أن يطلق زينب تحت ضغط وإلحاح أئمة الكفر فى مكة..

كانت قصة حب نبيلة بين زوج وزوجة فرقت بينهما العقيدة، بل إن الزوجة كان أبوها الذى يحمل لواء العقيدة الكبرى ويحمل لواء أكبر تغيير شهدته الحياة فى تلك الأرض المقفرة».

تمتم الحويرث وهو فى طريقه الى منزله: «كان عملا قبيحًا لا شك.. وأنا أقدمت عليه على بينة.. كنت ومازلت أكره

محمداً. . ولا أحمل فى قلبى عاطفة تذكر من لحقد على أحد سواه. . كنت أتمثله وأنا أغرى السفهاء بابنته زينب. . وشعرت بالسعادة القصوى حينما جاءتنى الأنباء تروى عن حزن محمد وغضبه. . إنه لشىء عظيم أن أغيظ رجلا كمحمد. . لكنه لن يقتلى. . لن يستطيع ذلك ولو أتيحت لى فرصة أخرى لإيذائه أو إيذاء أحد من أقربائه لما ترددت» وتذكر الحويرث أن محمداً قادم بعد يوم وليلة لزيارة البيت الحرام حسب شروط اتفاقية «الحديبية» فثار فى نفسه غم قاتل، كيف يدخل هذا الرجل مكة؟ وكيف يصبر الحويرث على رؤية الرجل الذى أهدر دمه؟؟ ولماذا لا يفكر فى تسديد طعنة إلى قلب محمد؟؟ لاشك أنه لو فعل ذلك لحدث اضطراب هائل، ولغرقت مكة فى بحر من الدماء وماذا فى ذلك؟؟ فلتغرق مكة فى بحر من الدماء، فلن يناله أكثر مما سيناله على يد محمد إذا ما تم الأمر للمسلمين فى يوم من الأيام.

وراقت له هذه الفكرة، وشعر بقلبه يخفق فى لذة مجنونة، سيكون ذلك حدثًا ضخمًا لا شك، وسيغير مجرى الأمور، وسيكون اسم الحويرث على كل لسان، إذا كان إغراؤه السفهاء بزينب قد أقام الدنيا وأقعدها، فماذا يحدث إذ قضى على حياة محمد؟؟

لكن خاطرًا طارئًا أزعجه، وأثار الضيق فى نفسه مرة

أخرى، أيمكن أن يكون محمد نبيًا حقاً؟؟» إن صح ما زعموا فقد تحرسه الملائكة، أو يطيش الله سهم أعدائه، أولعل السهم يصيبه دون أن يقضى على حياته.. أسئلة واعتراضات يثيرها الحويرث أمام نفسه لأول مرة.. وعندما بلغ الحويرث بيته، دلف إلى مخدعه صامتًا شاردًا، جاءت زوجه وقالت له:

- «ما بك؟؟».

تحول نحوها ببطء وشمل وجهها بنظراته القلقة، ثم قال بصوت خفيض: «أو تعتقدين أن محمدًا نبى؟؟».

لم تكن تتوقع السؤال، فهزت كتفيها فى حيرة وقالت: «أنت تعرف..».

صرخ محتدًا: «أنا لا أعرف شيئًا».

- «غير معقول.. أنت تحاربه. وتفند دعواه، وتحمل عليه فى عنف، وتسببت فى إيذاء ابنته».

دفعها فى عنف قائلاً: «لا تذكرى هذا الحادث الملعون..».

ثم تحول عنها وهو يقول: «إنه لشىء تافه أن أؤذى امرأة لو كان هذا الإيذاء موجهًا لمحمد نفسه أو لرجل من رجاله لما ضايقنى أمره؟؟».

وصمت برهة، ثم قال: «أجيبى عن سؤالى . . أيمكن أن يكون نبيًا».

قالت دون أن تزايلها حيرتها: «وما قيمة ذلك يا حويرث؟؟ لم تكن تفكر كثيرًا فى هذا الأمر من قبل».

- «أليس لديك فكرة ما عن الأمر».

«لم يكن يعنينى كثيراً . . لقد حبستنى فى دائرتك، ولم أكن أفكر أو أؤمن إلا حسبما تراه أنت».

كان يريدها أن تقول شيئًا، وتخفف من أساه وحيرته، ماذا لو كذبت عليه، وأكدت له أن محمداً ليس نبيًا، إنها لن تخسر شيئًا، لكنها سترد إلى زوجها قدراً من الثقة واليقين».

وأفاق من هواجسه على صوت زوجه تقول: «الأمر جد غريب يا حويرث، إن الرجل يقول كلامًا حلواً أشبه ما يكون بالسحر، وحياته كلها ليس فيها ما يشين».

قال وقد احتقنت عيناه: «ليس فى هذا شىء خارق للعادة. . إن بعض البشر من الشعراء والحكماء تنطبق عليهم مثل هذه الصفات، وهل هذه الصفات كافية لأن تعطى مواصفات من الأنبياء».

همست فى ارتباك: «لا أعرف».

- «ولم لا تعرفين . . أصبح هذا الأمر شغل حياتنا الشاغل . . من أجله خضنا الحروب، وسفكنا الدماء، وضحينا بالكثير . . وأمام رجالنا طريق طويل من المشاق والعناء والدماء».

قالت فى خوف : «لو كان الأمر أمرى لانصرفت عن هذا الموضوع كلية».

- «لماذا يا امرأة؟؟».

- «لأريح نفسى من عنائه».

قال وهو يصر على أسنانه فى غيظ. «كلامك ليس فيه عناء، ومنطقك منحط بارد مثلك . . اغربى عن وجهى يا امرأة . .».

قالت وهى تخرج : «ماذا دهاك؟؟ دائمًا تقحم نفسك فيما هو أكبر منك».

بصق نحوها، ثم لم شعثه، عازمًا على الخروج . .

- «إلى أين يا حويرث؟؟».

قال دون أن يلتفت إلى زوجه : «إلى الجحيم».

قال فى غضب : «أعرف . . إنك ذاهب إلى عاهرتك يا من تتساءل عن الله والنبوات . . والحق». ومضى فى طريقه، هناك فى أطراف مكة سيجد تلك العرافة، إنها تجيب دائمًا عن

أى سؤال، ما قصدها فى شىء إلا وعبرت عن رأيها، كان يسألها عن الحب والقلوب والخروج فى الغزوات والتجارات، وكانت دائمًا توجهه، لا يهمه إن كانت تصدق أو لا تصدق، بل كثيراً ما كان ينسى نبؤاتها فى خضم الحدث الذى يغرق فيه. . لكنه هذه المرة يريد أن يوجه إليها سؤالا واحداً محدداً، ويريد إجابة محددة، ولدى هذه العرافة قد يسكن اضطرابه، وينال قطرات من يقين. . وعندما بلغ العرافة العجوز أسقط فى يدها بعض القطع الذهبية وقال: «سؤال واحد لا غير».

قالت العجوز بصوت راعش واهن: «خذ ذهبك».

- «سؤالك أولاً».

جمع ذهبه وقال: «باختصار. . أريد أن أعرف، هل هو نبى أم لا؟».

قالت: «محمد؟؟».

قال: «أجل».

أطرقت العجوز وقالت: «حسبتك أتيت تسأل هل تخلص لك أو تخونك؟؟».

- «من؟؟».

- «زوجتك».

- قال وقد ارتجفت أوصاله : «أهناك شىء مزعج حقًا؟؟» .

- «بالطبع لا . . لكنك أول رجل يأتى ليسأل عن نبوة نبى؟؟» .

- «هذا هو كل ما أريده» .

رفعت وجهها المغضن، وقد برزت شعيرات بيضاء أعلى جبينها الشاحب الضامر وقالت : «أتؤمن به لو كان نبيًا؟؟» .

هتف فى حنق ظاهر : «مستحيل . . لا يمكن أن يكون نبيًا مهما قال» .

قالت وهى تبتسم فى سخرية : «ولم أتيت تسأل إذن؟؟» .

- «لمجرد المعرفة» .

هزت رأسها قائلة : «وما قيمة المعرفة إذا لم تكن أساسًا لموقف جديد» .

- «الموقف هو هو يا قارئة الغيب . . لا تتغير . . لكنى أريد أن أعرف» .

- «إنك تتخبط يا حويرث . . أمثالك دائمًا يهربون من مواجهة الحقائق، ولا تزيده المعرفة إلا خبالا وتخبطًا» .

نظر إليها فى رعب وقال : «وكيف عرفت ذلك؟؟» .

- «أنا عرافة» .

- «ومحمد؟؟».

سعلت وقالت بعد لهاث: «ولا شأن لى بأمر كهذا، ولو أبرزت لى ألف ألف قطعة من الذهب..».

قال وقد انتابته دهشة كبرى: «ولماذا؟؟».

- «العرافة الصادقة، إن صح التعبير لا تتخطى مجال كونها.. إننى أرى رجالا وسيوفًا ودماء، وعالمًا مائجًا بأحداث كبرى، وأنا أضعف من أن أحشر نفسى فى هذه المعمعة.. أنا عجوز واهنة القوى».

صرخ محتدًا: «هل هو نبى؟؟».

- «علمنا محدود».

- «تكلمى وإلا..».

- «النبوات لا تعرف عن طريقنا يا حويرث».

- «دلينى على الطريق إذن».

- «اذهب وسل محمدًا».

وثب كنمر مفترس، ثم انقض عليها، وأمسك عنقها بيد متشنجة، حتى كاد يزهق أنفاسها، لولا أنه أفاق إلى نفسه، وارتعدت مفاصله، وتصبب العرق على جبينه، ثم سحب يده فى ذهول، بنهما شهقت المرأة شهقة طويلة، ثم زفرت،

وقالت فى هدوء: «لقد نجوت بنفسك.. إن قتل عرافة معناه لعنة أبدية».

قال وهو يلهث: «وقتل نبى».

قالت وهى تهب واقفة فى ضعف: «اخرج من بيتى ياحويرث».

جر ساقيه جراً، ومضى فى الطريق العام، وجمرة من النيران تتقد فى رأسه، وعيناه لا تكادان تبصران شيئًا عبر الظلام، وتمتم: «محمد قادم فى ألفين من رجاله، فرسانه على مشارف مكة، ينتظرون، أية لمحة من غدر، فيهبطون التلال والوديان، ويعملون السيوف.. آه لن يعثروا على القاتل مهما كان.. فسأختفى فى الكهوف، أو أعبر الصحارى إلى أرض أخرى متنكراً.. سأجعل الجميع يصطلون بجحيم الجريمة، ويدفعون ثمن نقمتى.. الحويرث قتل محمداً.. فإما أن يوضع فوق رأسى تاج، أو تقدم أشلائى طعامًا للطيور أو وحوش البرية.. إنى مقتول إن انتصر محمد، الأمل الوحيد أن ينهزم أو أضرب ضربتى لأنجو وأسحق عدوى ليس هناك طريق ثالث.. لكنى أريد أن أعـــرف: أهو نبى؟؟ برغم كراهيتى الشديدة له، واحتقاري لمن أسلم، برغم كل هذا أشعر بجوع شديد للمعرفة، «المعرفة المجردة.. العرافة، المجرمة

طعنتنى فى الصميم حينما سخرت من طلبى . . المعرفة يتبعها موقف محدد . . لكنى لست فى حاجة إلى موقف جديد» .

ولم يكن قد مضى عليه سوى فترة قصيرة منذ أن ترك بيت العرافة ، حتى فوجئ بصوتها ينبعث خلفه ، وهى تتوكأ على عصاها ، بظهرها المقوس ، وخطواتها الكليلة ، وهتفت به : «يا حويرث . . كل ما أعرفه أن نجمه سيعلو ، وأنه سيملك سلطانًا ما كان لأحد فى العرب من قبل ، وستعنو له جباه الملوك ، سينتصر ، يا حويرث ، وأرى على الطريق رءوسًا كبيرة مهشمة . . وأرى السوقة يرتفعون . . وسيحظى بحب كأنه العبادة» .

تراجع خطوات ، ثم قرب وجهه من وجهها وصرخ قائلاً : «تعسًا لك . . ألهذا جئت؟؟» .

ثم دفعها ، فارتمت على الأرض لاهثة الأنفاس . . وتركها ومضى فى طريقه .

«التعسة قالت كلامًا فارغًا ، لاينكر أحد أن لمحمد سلطانًا كبيرًا على يثرب وما حولها ، لكن هذا السلطان معرض للدمار فى أية لحظة ، فما إن تحشد مكة قواها ، وتوحد صفوفها حتى ينتهى أمره إلى الأبد . . أما الرءوس الكبيرة المهشمة فقد حدث هذا فعلا يوم بدر . . ليكن . . فالأبطال الشجعان هم الذين يخوضون المعمعة وينتصرون . . أو يسقطون شرفاء» .

وفكر الحويرث، أين يذهب؟؟إلى بيته؟؟ تلك الزوجة الغبية الباردة تثير حنقه، وتطفئ لهيب فكره وعواطفه . .

لشد ما يكرهها! أيذهب إلى أحد أصدقائه؟؟ هناك السخريات . . وإهدار محمد لدمه، وترديد ذلك الحديث السمج . . آه . . ليذهب إلى تلك الراقصة الحبشية فى أطراف مكة من ناحية الجنوب . . هناك الخمر والرقص والغناء حتى الصباح، ورءوس الرجال لا تفيق . . السكر لا يفتح مجالاً لحديث جاد، وفى وسط ذلك الضجيج يستطيع أن يصيح ويعربد ويسكر دون أن يحاسبه أحد . .

- «يا بحر النسيان الخالد، إننى أعبدك . . إن كأسًا من الخمر أحلى مذاقًا من ألف حكمة، وألف كتاب منزل . . وليكن ما يكون» .

انفتح باب صغير، فانحنى ومر إلى الداخل . . فصاحت أنفه راحة الخمر والشواء والهواء البارد، فى ذلك القبو الغريب . .

- «مرحبًا . . مرحبًا» .

❑❑❑

الفصل [٢٧]

- «لؤلؤة. . إلىّ يا أحلى كأس ذاقته شفتاى. . ».

قالت وهى تميل نحوه فى دلال، وتلفحه بعبيرها، وتلامس وجهه بشالها الأخضر الصارخ: «الخمر المعتقة غالية الثمن يا حويرث. . ».

قال ولعابه يسيل: «معى ذهب كثير، إنك أحق به من عرافة حمقاء. . ».

ضحكت فى خلاعة، وقربت وجهها من وجهه قائلة: «إنك تهذى، ما شأن العرافة بنا الآن. . ».

- «لا شـأن لك بذلك. . أريد أن أرخى العنان لأهوائى. . ».

ويدا الجد على وجهها وهى تقول: «ما لكم جميعًا تنتهبون اللذة؟؟ لكأنكم تخافون نهاية مفزعة. . ».

- «إننى هكذا دائمًا. . ترى هل جد جديد. . ».

عـادت تمرح وتضـحك وتقـول: «سـمـعت أنه أهدر دمك..».

صرخ كمن لدغه عقرب: «اصمتى يا حقيرة..».

- «ماذا؟؟هل أسأت القول؟؟ هذا ما سمعته..».

- «حتى هنا تتحدثون عن هذه الأمور، ومن هو حتى يهدر دمى؟؟ أنا الحويرث وأنا الذى أعلن إهدار دمه..».

وصدرت قهقهة من ركن قصى: «مهلاً يا حويرث، فلن تطولك يد محمد، إن سيوفنا أطول منها بكثير..».

التفت الحويرث نحوه فى استبشار وقال: «طاب مساؤك يا عكرمة..».

- «أقبل فلدينا خمر معتقة بلا ثمن.. ودعك من لؤلؤ الآن..».

وهتف رجل آخر: «إن الحويرث يرغى ويزبد، ويثور ويعربد، لكنه لا يسلو لؤلؤة، حتى ولو مزقت نعالها فوق رأسه..».

وانطلق الجميع يقهقهون، وشاركهم الحويرث مرحهم، وقد أخذت سحابة الحزن تنجاب رويداً عن روحه المثقلة بالهموم، وما إن تبادل بضعة كئوس حتى شعر بحرارة

جسده، وبفوران دمه، وأخذ يتطوح من السكر ويهذى:
«العجوز التى أصابها الخرف تزعم أن نجمه سيعلو.. ها.. ها.. أيها السادة أنا رجل أقبل على أى عمل وأمارسه بإخلاص لا مثيل له.. كرهت محمداً.. لو تجمع كرهكم فىّ أنا لرجح حقدى عليكم.. دائمًا أعرف كيف أتفانى فى أحاسيسى وتصرفاتى كلها.. انظروا من هذه النافذة.. ليس هناك نجم واحد يعلو النجوم كلها.. ألف ألف نجم تبدو بعيدة بعداً رهيبًا.. بل إن أضوءِ الكواكب وأبهرها هو الأقرب منّا.. استمعوا إلىّ جيداً وانظروا إلى القمر.. ومع ذلك فأنا أكره القمر.. ما أروع أن يسود الظلام، ويطمس معالم الأشياء.. عندئذ تنزلق نظراتى الوهنة وتلامس الكائنات لمسًا هينًا، ولا يرهقها التمييز أو المفارقات.. لماذا تضحكون؟؟ تلك هى الحقيقة.. ما قصدت إيذاء زينب بل تمثل لى محمد على وجهها ففعلت ما فعلت.. لكن أيها الحمقى، كيف تسمحون لمحمد أن يطأ ثرى هذه البلدة وأنا على قيد الحياة.. اللعنة على كل العهود والمواثيق.. ابحثوا لأنفسكم عن طريق جيد.. لقد فقدتم القدرة على الحكم الصادق.. إن شيوخ مكة وجبناءها قد أصيبوا بالخبال.. إنهم لا يتمتعون بأى قدر من الحكمة أو البراعة.. تمردوا على فكر هؤلاء المخرفين.. واعتصروا عنق محمد بأيديكم القوية.. السلام مع محمد معناه أن نفقد عهد اللذة والهوى والكبرياء والحرية.. لا يصح

أن تكونوا على استعداد لأية تنازلات . . لقد خلقكم الله هكذا، فلا تتركوا الفرصة لأحد كى يغير من حياتكم شيئًا . . ثم استدار صوب لؤلؤة وقال: «اضربى على الطبول بعنف . . وارفعى عقيرتك بأقوى غناء . . وارقصى كما ترقص الشياطين . . صفقوا أيها السكارى الأغبياء . . ».

وأخذت لؤلؤة ترقص فى عنف، تلف وتدور بخطوات سريعة، وحركات متلاحقة منسقة، وفى يديها قطع معدنية لامعة ذات رنين شجى يتسق وخطواتها وحركاتها وتصفيق الحاضرين، وحاملو الطبول يدقون دقات رتيبة عالية النبرة، وعازف الناى يطوح رأسه وعنقه الطويل المندى بالعرق مع حركات لؤلؤة، والعيون الزائغة ترمق المشهد وكأنها فى حلم صاخب الدوى، والحويرث يقف بعوده الفارع فاتحًا ذراعيه، يتطوح فى مكانه، يصرخ الاشتهاء فى عينيه وفمه، ككلب جائع . . وساد الهدوء المؤقت بعد ساعة، وارتمت لؤلؤة على وسادة حريرية تلتقط أنفاسها، وتجرع رشفات من كأس مذهب، ووجهها الأسود الفاتن يغرى بالحماقة والاندفاع والعبث . . وحبا الحويرث نحوها على أربع . . رجلين ويدين . . ثم تحسس ذراعها البضة، فدفعته فى جبهته ساخرة . .

وقال عكرمة محتجًا: «لست وحدك يا حويرث. . ألا تعبأ بمشاعر أحد؟؟».

فكان رد لؤلؤة على هذا التعليق أن مسحت على رأس الحويرث، وجذبته، إلى جوارها وقالت: «هذا رجل شجاع لا يهاب أحدًا. . ».

أضاء وجهه المحتقن المتوتر بإشراقة مفاجئة وقال: «لؤلؤة وحدها تعرف أقدار الرجال. . إن أسعدكم حظًا هو أكثركم قربًا إلى مجلسها وإلى ريحها العبق. . لا تصدقوا أدعياء النبوة. . فما خلق الله هذا الكون ليكون تحت سيطرة أحد. . الجمال واللذة لهما السلطان على هذا الوجود. . حتى الحيوانات تعرف ذلك بغريزتها. . ».

أسرعت لؤلؤة وضمته إلى صدرها ضمة شديدة، بينما صدرت عن الحاضرين كلمات اعتراض، وعلا الضجيج والاحتجاج حينما طبعت على جبينه الملتهب قبلة خاطفة. وهمس الحويرث فى أذنها بانفعال: «لا توجد أية قوة فى الوجود تستطيع التفريق بينى وبينك. . حتى ولو كان نبيًا مرسلاً من السماء حقًا. . ».

- «إنك عنيد يا عاشقى الولهان. . ».

- «ما تعودت أن أكون ذيلاً لأحد. . ».

- «عشت لى . . ».

- «طول حياتى أقرر مصائر الناس، ولا أسمح لأحد بأن يقرر مصيرى . . ».

قالت لتثيره: «لكنه أهدر دمك . . ».

رفع رأسه فى عناد وتحدٍّ وقال: «وأنا أهدرت دمه، ولنرَ ما سيحدث . . ».

- «تعامله كند صعب المراس . . ».

- «لست دونه . . أعطنى شفتيك . . ».

- «ليس الآن . . إنهم ثائرون . . ».

وصاح أحد الحاضرين: «ما هذه الهمسات؟؟ إما أن تكون البهجة مشاعة أو ننصرف . . ».

وتجمهروا حولهما، هذا يمسك بذراعها، وذاك يلامس شعرها، وثالث يجر الحويرث بعيداً عنها، واثنان آخران يتضاربان والضحك والفوضى تشمل المكان، ولؤلؤة تبتسم لهذا وتغمز لذلك، وكل واحد يتصور أنها لا تهتم إلا به، ولاتكنّ الحب إلا له . . وصاحت فجأة: «استمعوا إلىّ جيداً . . ».

تركزت عليها العيون وأحاطوا بها من كل جانب، وبدا

الاهتمام على وجوههم، وأنصتوا لما تقول: «لئن حاقت الهزيمة بمحمد وجيشه فى يوم من الأيام، فإنى سأنذر جسدى لكل وافد، وأبذله قرابة شهر . . ».

وصفقوا وطربوا أيما طرب لتلك الفكرة الرائعة، لكن الحويرث اكفهر وجهه وقال فى ضيق ظاهر: «وما هى المكافأة التى تعطينها لمن يقتل محمداً بيديه؟؟».

قالت وهى تمط عنقها، وتضيق من فتحة ثغرها، وتهز رأسها يمنة ويسرة: «روحى وحياتى وجسدى . . ».

واتسعت ابتسامته، وتأرجحت نظراته كثعبان حبيس جائع وقال: «ذلك هو النعم بعينه، ولا نعيم غيره . . ».

واستطال الليل وامتد السهر، وأخذوا ينثلون واحداً إثر الآخر، ولم يبقَ إلا الحويرث، وأخيراً قالت لؤلؤة وهى تستلقى منهكة على حشية لينة نظيفة: «لقد آذن الليل بالرحيل . . ألا تسير إلى بيتك أنت الآخر؟؟».

رماها بنظرات جائعة وقال: «ليس لى بيت، أينما تحلو الحياة يكون مستقرى ومقامى . . ».

- «لكن لك زوجة . . ».

- «اتركى هذا الغم . . ودعينا ننهل رحيق الحب والحياة . . ».

شردت بضع لحظات وقالت: «لشد ما أنا خائفة..».

- «ممن؟؟».

قالت فى تنهد: «محمد!! أنا أتصور أن تنهار هذه الحياة التى أحياها.. عندما ينفض الرجال من حولى أشعر بفراغ قاتل، وخوف مبهم، قالت لى امرأة عجوز إن بى مرضًا خبيثًا.. وزعم بعض الرجال ذلك.. إنهم يكذبون.. إننى أستمتع بالحياة على أروع صورة، وأعطى من أشاء وأمنع من أشاء.. الكبار يأتون إلى بيتى أذلاء صاغرين.. إننى قادرة على أن أمنحهم المتعة الفائقة.. أشعر أنى ملكة متوجة، لى سلطان كبير على الجميع.. ما طلبت من أحد طلبًا إلا وأجاب.. أيمكن أن ينتهى هذا كله، وينقطع سيل الذهب الذى يتدفق فى حجرتى، وأصبح امرأة فقيرة، فى كنف رجل واحد قد يكون هو الآخر فقيراً.. ثم تذبل الأضواء من حولى، وينفض السامر، ويحل الصمت محل الضجيج والمرح والاستمتاع؟؟ ترى لماذا أتى محمد فى هذه السنين با لذات؟؟أليدمر مجدى ويحطم حياتى؟؟».

قال وهو يتمدد إلى جوارها: «ما هذه الخواطر السوداء إن غرور المسلمين سيجرهم إلى الفناء لا شك، إنهم خرافة سرعان ما تنطوى كما انطوت عشرات الخرافات من قديم..

أبعدى الخواطر القاتمة عن رأسك . . وهيا نهيم فى أودية الحب الخضراء اليانعة . . ».

قالت دون أن تستجيب لتحريضه : «خبرنى يا حويرث ، لماذا تكره محمداً؟؟» .

قال دون تردد : «لأنك تكرهينه . . » .

- «أعطنى سبباً آخر . . » .

- «حسناً . . ولأنه . أهدر دمى»

- «قبل ذلك أريد أن أعرف الحقيقة ، لماذا اعتديت على ابنته . . » .

قال وهو لم يزل يتململ فى خبث : «الحق أنى أكره العفة وأدعياءها . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «لأنها شئ فوق طبيعة البشر . . » .

- «أيها القذر . . إنك صفيق غريب الطبع . . » .

ومضى فى تخبطاته : «وأكره الحكمة والحكماء . . ليس هناك شىء اسمه الحكمة ، هناك أمر واحد ، أن يتصرف الإنسان من قلب الموقف المفاجئ ويستجيب لطبيعته . .

القواعد الجامدة التى يرسمها الحكماء ليسير إليها الناس تطفل وفضول سخيف . . إننى حر . . هذا ما أعرفه . . ».

قالت فى شرود: «ثم ماذا؟؟».

-«أتريدين المزيد يا لؤلؤة؟؟».

-«أجل . . ».

- «الصبح أوشك، ونريد أن نغرق هذه الهواجس فى بحر اللذة العظيم . . ».

هتفت فى حدة: «تكلم . . ».

- «حسنًا يا لؤلؤة . . وأكره أن يتساوى السادة والعبيد . . ».

قالت فى دهشة: «كيف؟؟ أنت تهذى من أثر السكر يا حويرث . . ».

وهل يعقل أن يتحاب الناس ويتآخوا جميعًا؟؟ لا بد أن يكره الإنسان ويحب، وينفر من هذا ويقبل على هذا . . ».

وعادت تتنهد وتقول: «ثم ماذا؟؟».

- «وأكره أن تكون الخمر محرمة، وألا يستمتع الرجل بالمرأة إلا فى ظل الزواج، وأن تكون حياتنا كلها حسب قواعد تحدد كل شىء . . أليس هذا مرعبًا؟؟».

وطوقها بذراعيه، لكنها دفعته في رفعه قائلة: «ألا يمكن أن يكون محمد على حق..».

- «مستحيل..».

- «وما وجه الاستحالة؟؟».

- «الدليل هو أنه لا توجد قوة في الأرض تمنعك مني الآن يا لؤلؤة..» وغمت الرؤى، وعوت الذئاب، واشتد الوهج، وأنس القلق في دوامة من الحذر المؤقت وأشرقت الشمس على قيثارة حزينة، وطبلة وناي كلها ملقاة إلى جوار جسدين شبه عاريين يغطان في نوم عميق، ولم يستطع النوم أن يبدد ما على الوجهين من قلق وحزن ودفين..».

□□□

الفصل [٢٨]

كان «الحويرث» ساخطًا ناقمًا، يتساءل بينه وبين نفسه: لماذا لا تضرم مكة النيران، ويؤججون المعركة حتى يحترق محمد وأتباعه إلى الأبد؟؟ وتستبد به الحيرة أكثر حينما يرى أهل مكة - غالبيتهم - تطرب للحدث الجديد، وتتشوق لرؤية محمد والمسلمين وهم يطوفون حول البيت العتيق، وحاول تفسير ذلك، هل أهل مكة سذج بلهاء يحنون لرؤية أى شىء جديد مثير كى يتخلصوا من ركود حياتهم، وما يدب فيه من ملل وقلق؟؟ أم تراهم فرحين بأن البيت الحرام لهم، والعرب جميعًا، بما فى ذلك أعداؤهم، يشدون إليه الرحال صاغرين؟؟ أو ربما يكون الأمر لا هذا ولا ذاك، لعله أخطر ما يتصور الحويرث، أو يمكن أن يكون أغلب أهل مكة قد ملوا العداوة والحقد والتهديد الدائم، وأنسوا للموادعة والسلام؟؟ إن صح ذلك، التفسير الأخير فسيكون ذلك داهية الدواهى، فمسألة محمد - حسبما يعتقد الحويرث - جريمة كبرى لا

تغفر، فيه التمكين له، أو على الأقل إتاحة الفرصة لدعوته كى تنتشر ويتكاثر أتباعها فى طول الجزيرة وعرضها، حتى تنعزل مكة، وتخر فى نهاية الأمر راكعة مستسلمة تقبل أقدام محمد، وتقدم له فروض الطاعة والولاء، أما التفسير الأخير الذى لا يمكن أن يتصوره الحويرث هو أن يكون أهل مكة قد مالوا إلى الإسلام، وأصبحوا يتوقون إلى اعتناقه، وفى هذه الحالة فالموت أروح من الحياة، ولا قيمة إذن لأى شرف أو كبرياء، أو مجد.

وانزعج الحويرث أيما انزعاج للخاطر الأخير . . ولعن مكة وسكانها وكبراءها وتفكيرها . . وكيف يتصور أن قلوب الناس قد خلت من الحقد على محمد، وأنها فى طريقها إليه لتلبى دعوته، وتعانق أفكاره؟؟».

وهتف الحويرث بامرأته قائلاً: «إلىَّ بأحدث ما لدىّ من حراب ورماح . . ».

قالت والدهشة مرتسمة على وجهها: «على قدر علمى بأنه ليس هناك تفكير فى حرب . . فالناس يستعدون للخروج واللجوء إلى قمم الجبال والتلال حتى ينهى محمد شعائره وعبادته لأيام ثلاثة . . ».

صرخ فيها محتداً: «الحماقة طبعك، والغباء سيقتلك . .

أذهبى ونفذى ما أمرتك به. . ». . ومضت المرأة لتحضر له ما أراد دونما حماس أو اقتناع. . كانت مندهشة لتصرفات زوجها. ولا تعرف فى كثير من الأحوال سببًا وجيها لأغلب تصرفاته، يغضب فى مواطن البهجة. . ويبتهج إبان الغم والأحزان، ويستعد للحرب والناس يترنمون بأنغام السلام، ويسهر حيث ينامون ويثور وهم هادئون. . ».

قال وهو يزيل الصدأ عن حرابه: «الفضيلة نابعة من الخوف، والشرف ترجمان العجز، والسلام أمنية الواهين وأصحاب المصالح المادية. . الفضيلة المجردة خرافة. . ».

تمتمت فى صوت خفيض: «أقسم إنى لا أفهم شيئًا. . ».

بالطبع. . هذا دأبك، لكنك تستطيعين أن تفهمى إذا شرحت لك الأمر بأسلوب آخر. . الفضائل فى عالمنا ليس صادقة ولا حقيقة ولا تعنى التسمية التى اخترناها لها، فمثلاً. . «صلح الحديبية» هل هو صلح فعلاً. . كلا. . لقد رأت قريش أن مصلحتها الصلح المؤقت، ورأى محمد الرأى نفسه لأسباب أخرى، كلاهما سيكسب من وراء هذا الصلح فعقدا صلحًا مدته عشر سنوات. . أليس مضحكًا أن يكون الصلح موقوتًا؟؟ ليس لهذا سوى معنى واحد. . هو أن العداء القديم كما هو، والأحقاد لم تندثر، لأن دماء الضحايا من

الطرفين مـا زالت تلهب القلوب، وتصرخ بالثأر.. أتفهـمين الآن؟؟».

هزت رأسها متظاهرة بالفهم، لكنها قالت: «لماذا تفكر هذا التفكير الآن؟؟».

ابتسم فى خبث وقال: «التساؤل معناه أنك ترغبين فى تفهم الحقيقة وهذا أمر عظيم.. حسنًا.. إذا كان الحقد والعداء كما هما، وإذا كان الصلح زائفًا مؤقتًا.. فلماذا أنخدع مع هؤلاء الحمقى؟؟ سأحاول أن أكون الشخص الوحيد الذى يدرك الحقيقة ويعمل بمقتضاها.. سأحارب..».

انتفضت وتوترت أعصابها، وهتفت: «أتحارب وحدك؟؟ إننى أرى مكة كلها لا تفكر فى شىء من هذا..».

- «كان محمد وحده فى البداية، وكنا نضحك ونسخر منه، واليوم يحيط به الآلاف..».

- «الأمر جد مختلف يا حويرث، إن خوضك الحرب وحدك معناه الانتحار، ولا تكلف المسلمين سوى ضربة سيف تنهى حياتك، ولن يلومهم أحد أو يتهمهم بالغدر، بل إن مكة نفسها قد تجهز عليك احترامًا للعهد المكتوب، وإنقاذًا لحياتها من الاضطراب والمخاطر..».

قـهـقـهـه فى سـخـرية وقـال: «هذا جـانب واحـد من التصور. . ».

- «وما هو الجانب الآخر؟؟».

قال فى ثقة: «أن ينسى الناس الزيف. أعنى الصلح المزعوم، وينصاعوا للحقيقة والواقع، فيدركوا أن المعركة مستمرة، وأن من الحماقة تأجيلها بضع سنين. . وعندما يراق الدم يا امرأة، ويخضب لونه الأحمر الرمال الصفراء، تنطلق صيحة الثأر والجنون، وتخرج السيوف من أغمادها، ويسقط الزيف. . أنت تعرفين من نحن، إن حادثًا صغيرًا أو كلمة عابرة، أو بيتًا من الشعر قد يقلب الموقف رأسًا على عقب، فتشتعل المعركة. . ذلك هو الجانب الآخر الذى لا تعرفينه» سددت الزوجة إليه نظرات مستغربة. . ولم تنطق بحرف، بينما استطرد الحويرث وهو لم يزل يحمى آلات الحرب، ويجلو عنها التراب والصدأ: «البعض يسخر منى لأنى اعتديت على امرأة هى زينب بنت محمد. . اللعنة على هؤلاء الساخرين. . ما قصدت إيذاء امرأة. . ولكنى أردت أن أوجه طعنة إلى قلب محمد وأستثيره، لم يكن فى ذهنى وأنا أحرض عليها سوى صورة أبيها. . هى لا شيء بالنسبة لى. . ومحمد ذكى لا يخفى عليه ذلك. . ولهذا. . أهدر دمى. . هاهاها. . ».

ردت الزوجة فى سذاجة: «ويسخرون منك أيضًا بسبب ارتمائك فى أحضان لؤلؤة.. قهقه حتى كاد يستلقى على قفاه، وتمتم: «أيتها الخبيثة.. ليس هذا عيبًا.. إنه سمة من سمات الرجولة، لكنك فى الحقيقة تغارين..».

صرخت محتدة: «أغار من هذه الساقطة الداعرة..».

- «بالطبع..».

- «ولم؟؟».

- «الكبار يرتمون تحت قدميها، وهى لا تأنس لأحد كما تأنس لى.. أشعر إلى جوارها بمزيد من الرجولة والكبرياء والقيمة..».

هتفت محنقة: «أتستمد كبرياءك وقيمتك من هذه السافلة؟؟ إنها تخدعك..».

- «ولم لا؟؟ أنا أعرف ما أريد منها، وهى تعرف ما تريده منى، إننا نتعامل عن تبصر..».

ثم استدرك قائلاً: «لكن لماذا تجريننى للحديث عن هذا الأمر؟؟».

وانصرف الحويرث عن زوجه، كان يفكر فى الذهاب إلى دار أبى سفيان حيث يلتقى نخبة من رجال الرأى والحسب

والنسب، كـان يريد أن يناقش الأمـر هناك ويحـاول إقناع الموجودين بالانقضاض على محـمـد، فربما ينصاعون لرأيه، فيتحقق ما يصبو إليه، ويحلم به . . وفى الطريق إلى بيت أبى سفيان، كان يرى بعض الناس، يضعون أمتعتهم فوق الجمال والحمير، كى يهرعوا إلى جبل «أبى قبيس» أو «حراء» مبكرين قبل غيرهم، لعلهم ينتخبون أحسن الأماكن وأفضلها حتى يطلوا من هناك على مـواكب المسلمين وهم يدخلون مكة، ويطوفـون بالبيت الحـرام، وتمتم الحـويرث بينه وبين نفسه : «هؤلاء المأفونون يفرون إلى رءوس الجبـال، ويخلون بيوتهم ومـدينتـهم باسم الوفـاء الأحـمق لعـهـد «الحـديبية» الملعون . . يسمونه وفاء وهو فى الحقيقة جبن وفرار ذليل . . وفى بيت أبى سفيان وجد حشداً كبيراً من الرجال . . هذا عكرمة بن أبي جهل، ويليه خالد بن الوليد، وجبير بن مطعم ووحشى بن حرب، العبد الذى تحرر بعد أن قتل حمزة، وهو الآخر مـهـدور الدم، وهناك رجـال من بنى هاشم وربيعـة وغيرهما . . كان الحديث يدور فى فتور وهدوء كئيب، وسمع الحويرث أبا سفيان يقول : «لسوف تنتهى الأيام الثلاثة ويعود كل شيء كما كان . . وأنا لا أتوجس خيفة من شيء فمحمد لن يغدر بعهده معنا، إنى واثق من ذلك، فهو لا يبغى سوى أن يزور البيت الحرام، وهذا حقه وحق كل عربى، ولقد رفضنا

فى العام الماضى أن يدخل علينا مكة عنوة ليؤدى شعائره، فعاد الرجل من حيث أتى. . ومحمد بالتأكيد لم يأت محاربًا. . أعرف أن له بعض الفرسان على مشارف مكة خَارج نطاق الحرم، لكن الرجل لا يقصد شراً، إنه يحتاط للأمر، وليس فى ذلك شىء يخل بالاتفاق. . وخلاصة الأمر أن محمداً لن يدخل على الرغم منا، وإن ما حدث كان باتفاقنا ورضانا، ولن تستصغر العرب قدرنا لذلك، بل على النقيض تمامًا، ولقد تألم كثيرون من رؤساء القبائل لأننا منعناه فى العام الماضى. . وقالوا: إن زيارة البيت حق لجميع العرب. . أيها السادة، الأمر بسيط غاية البساطة، وليس فيه ما يشين مطلقًا، ونحن نرفض أى خروج على نصوص الاتفاقية، ومن حاول خرقها مزقناه بسيوفنا. .».

وارتفع صوت وسط الهدوء الفاتر يقول: «لن أتركهم يدخلونها آمنين. .».

وتركزت الأبصار على الحويرث الذى استطرد قائلاً فى ثورة: «إن الرجل الذى سفه آلهتنا، وقتل الأشراف من رجالنا، وسخر من عقائدنا ونظامنا لا يجوز أن نفتح له أبواب مكة، أو ندعه ليطوف بالبيت الحرام».

ظن الحويرث أن كلماته ستثير لغطًا وضجيجًا، أو ستكون

كالحجر الذى ألقى فى ماء ساكن، وكم كانت دهشته، حينما وجد الهدوء الفاتر يسود المكان، وليس على وجوه الحاضرين أية انفعالات أو استجابة، وأفاق من ذهوله على صوت أبى سفيان يقول: «يبدو أنك قادم لتوك يا حويرث.. لقد تكلم بمثل هذا الكلام بعض الرجال، ولم يلقَ الأمر قبولا لدى ذوى الرأى فينا، وأصبحنا جميعًا متفقين على التمسك بالاتفاقية، وإتاحة الفرصة لمحمد ورجاله كى يقضوا أيامهم الثلاثة هنا، بل حمايتهم أيضًا..».

زمجر الحويرث قائلاً: «تخافون على أموالكم وتجارتكم، وتخافون على حياتكم، أما كبرياء العرب وشرفهم فلا يؤبه لهما..».

قال أبو سفيان فى هدوء: «الشرف والكبرياء هما الوفاء بالعهد، وفتح بيت الله لكل قاصد..». ألا وإن أى خطأ لن يقع وزره على فاعله وحده، بل سيشمل مكة بأسرها، ويجر عليها الوبال ولن يستقيم أمر جماعة من الناس إلا إذا استناروا بالرأى، وسكنوا إلى الروية والحكمة، والتزموا نصح ذوى الرأى فيهم..».

لم يسكت الحويرث وإنما انطلق يردد آراءه وأفكاره، وإصراره على الانتقام من محمد، لم تكن آراؤه تختلف عما

قاله لزوجه وأصدقائه وعشيقته الراقصة السمراء، لكنه كان يصرخ في واد، ويخطب في صم بكم لا يسمعون أو يتكلمون، أو هكذا خيِّلَ إليه، وبعد أن هدّه التعب، وبح صوته آثر السكون، وهو يخفي في قلبه وروحه براكين تتفجر من الغيظ والنقمة . . وعندما هموا بالانصراف مال على أذن عكرمة بن أبي جهل قائلاً: «كيف يمضي الأمر على هذا المنوال يا عكرمة؟؟».

- «إنني أشعر بأسى وحزن عميق يا حويرث. . لكن ما الحيلة؟؟».

- «لا بد أن نضرب ضربتنا يا عكرمة. .».

قال عكرمة وجبينه يتفصد عرقًا: «القائد الماهر. . يتراجع لينقض، ويراوغ ليسقط عدوه في الكمين. . والقائد البارع يختار الوقت المناسب والمكان المناسب. .».

قهقه الحويرث في سخرية: علموك اللعب بالألفاظ، وأوعزوا إليك بفلسفة الضعف. .».

وقف عكرمة، ثم استدار نحو الحويرث، وسدد إليه نظرات قاسية وقال: «ليس في مكة ما يمكن أن يسمى جيشًا يعتمد عليه يا حويرث. . تلك هي الحقيقة المرة، التي يحاول الجميع كتمانها. . إن الذين يميلون إلى محمد الآن أكثر من أي

وقت مضى، والمعركة اليوم معناها فقدان كل شىء. . تلك هى الكارثة. . دع الصلح جانبًا. . إننا نتمسح فى الصلح لأننا لسنا متأكدين من كسب جولة اليوم. . أتفهمنى؟؟ حذار أن تفكر فى ارتكاب عمل طائش، العمل الطائش معناه تسليم مكة والمستقبل كله والنصر العظيم لمحمد والمسلمين. . فهل تجهل ذلك؟؟».

قال الحويرث بوجه شاحب، وشفة مرتجفة: «لا. . ».

- «إذن فلترضخ لأمر أبى سفيان يا حويرث. . ».

خفض الحويرث رأسه، وسدد نظرات إلى الأرض، وهمس بانفعال: «لكن محمداً أهدر دمى. . ».

- «لا تفكر فى ذلك يا حويرث. . ».

- «ومرغ اسمى فى الأوحال. . ».

- «إنك تبالغ يا حويرث. . ».

- «والناس تهفو إلى كلماته، وتتقاطر نحوه يا عكرمة. . ».

- «قد ينقلب الأمر يومًا ما. . فالناس سوف يفرون من المهزوم. . ».

- «هزيمته يا عكرمة أصبحت شاقة. . ».

ابتسم عكرمة وقال فى ثقة: «فى خلال عام أو عامين سيتغير

كل شىء . . سنحشد الرجال ونمعن التفكير . . ونعد لكل شىء عدته ، وسنعقد الأحلاف مع القبائل . . إن هوازن وثقيفًا ومكة - لو اتفقت كلمتها - تستطيع أن تحطم محمداً وصحبه . . وانتظر ولا تتعجل . . نحن لا ننام . . ولا نلهو ، عندما أنام يا حويرث يتراءى لى دم أبى والسخرية التى لحقت به . . وعندما ألهو يا حويرث فأنا أحاول أن أنسى المهانة والعار . . لكن دم أبى المراق يظل يصرخ بى . . لم أعد أفكر فى حق أو باطل ، وهل محمد نبى أم لا . . وإنما أفكر فى الثأر ، والانتقاماً . وأتخذ من الروية عاصمًا لى من الخطأ ، لكنى أحيانًا أضعف وأتهور . . الثأر يا حويرث لا ينام ولا يخبو . . » .

عاد الحويرث إلى بيته ، وألقى نظرة على الحراب والسهام ، وباقى أدوات الحرب ، ثم صرخ بزوجه ، فأتت مسرعة ، فقال بنبرات واهنة : «ارفعى هذه الأشياء وعودى بها إلى مكانها . . » .

ففعلت ما أمرها به صامتة ، وعندما بلغت باحة البيت قالت وقد استدارت بوجهها نحوه : «هل ستخرج الليلة أم ستبقى معنا . . » .

قال فى غيظ ، ونظرات عينيه المحتقنتين تعبر عما يجيش فى صدره : «سأذهب إلى لؤلؤة . . هل استرحت أيتها اللئيمة الغبية ؟ ؟ » .

ومضت دون أن تنفرج شفتاها عن كلمة واحدة . .

الفصل [٢٩]

شعر الحويرث بذلة ما بعدها ذلة وهو يحمل متاعه وخيمته، ويعلو جبل «أبى قبيس» . . إنه يساق سوقًا لفعل شيء لا يرغبه، ويخيل إليه أن محمدًا يسخر منه ومن أفكاره وحنقه، وماذا يفعل الحويرث؟؟ إنه مضطر، أن ينصاع لرأى الكبار فى مكة، ويلتزم بنصوص الاتفاقية، وفى اليوم المعهود تطلع إلى المشهد الذى لن ينساه أبد الدهر . . محمد فوق ناقته القصواء، يأخذ بخطامها ابن رواحة . . وصحابة الرسول يلتفون من حوله، ويتبعه رهط كبير من المسلمين يناهز الألفين، وتجلى البيت العتيق بروعته وإشراقه، فانهمرت دموع الرجال الذين هاجروا منذ سبع سنوات، وانطلقت ألسنتهم هاتفة . . «لبيك . . لبيك . . » هتافات تصدر من الأعماق، ممتزجة بالحب والشوق والخشوع معطرة بالإيمان الصادق، واقشعر بدن «الحويرث»وانتفض جسده، وفاض قلبه بالأسى والحزن . . هذه هتافات رجال لا يخافون، تبدو فى نبراتهم

الثقة والعزم الذى لا يفل. . «لبيك . . لبيك» إنها تكاد تزلزل الجبل من تحتى، كما تقذف بالحسرة فى روحى الممزقة القلقة، وهمست زوجه: إنهم طيبون يا حويرث. . لا يبدو عليهم شىء من الشر أو الغدر. . ».

ورنت صفعة على وجهها، قال الحويرث بعدها فى حقد: «أيتها الملعونة. . هؤلاء الطيبون أهدروا دم زوجك. . ».

قالت والدموع على خديها: «لم أفكر فى ذلك، ثم ألا يكون هذا مجرد خبر كاذب؟؟».

- «إن إساءتى لبنت محمد لا يمحوها إلا الدم. . ».

وعاد الصمت يرين عليهما من جديد حينما نادى ابن رواحة كما أمر الرسول: «لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. . ».

وسمع الحويرث صوت خالد بن الوليد يهتف من خلفه: «هذه كلمات قوم قد تفانوا فى الله. . ».

قال الحويرث فى ضيق: «كيف عرفت يا خالد؟؟».

- «يتغنون بعبوديتهم لله، وينسبون كل نصر إليه، ويفتخرون بأنهم جنده. . ».

- «ليس الأمر كلمات تقال. . ».

- «أجل . . لكن إذا أضيفت إلى الكلمات أعمال وسلوك معبر ، فلن يكون هناك مجال لشك . . » .

رفع الحويرث إليه وجهًا ثائرًا وقال : «ماذا تعنى؟؟» .

- «لم أعنِ سوى ما قلت . . » .

- «إنى أشم فى كلماتى فارس قريش تخاذلاً . . » .

- «ليس فى كلماتى شىء من هذا ، لكنى أحاول تفهم الأمور فى ضوء الوقائع . . » وعاد الصمت وهم يرون محمداً وصحبه يهرولون فى همة ونشاط بين ركن الحجر الأسود والركن اليمانى ، والعيون كلها ترمقهم من فوق الجبال والتلال والأشجار ، مشهد لم ترَ قريش له مثيلاً من قبل . . » .

- «لا أرى فى الرجال بادرة ضعف أو خور ، إنهم تجسيد لكل مظاهر القوة والإصرار الذى لا يهزم . . ألا ترى ذلك ياحويرث؟؟» .

زمجر الحويرث قائلاً : «إننى لا أرى يا خالد سوى مشهد مصنوعًا محبوكًا قصد به التأثير على الضعفاء ولفت نظر البلهاء . . » .

- «تحكم على الأمور من خلال أحقادك . . » .

- «لى الشرف أن أتخذ الحقد مركبًا . . » .

- «لكن لا تزيف من خـــلاله الحكم على الأمـــور وتقييمها . . » .

تمتم الحـويرث : «إن قلبى يتمـزق أسى إذ أرى قـريشًـا قـد انتـابهـا الخـور ، وفل عـزيمتـهـا الملل والحنين الفـارغ للمهاجرين . . » .

- «الأمر أعمق من ذلك يا حويرث . . » .

- «كيف؟؟» .

- «محمد يملك شيئًا عظيمًا يا حويرث . . » .

- «ماذا؟؟» .

- «يملك المبادئ الأصيلة التى تشد الرجال ، ويملك الفكر الذى يحرك العـقـول ، ويملك العـزيمة والإرادة . . باخـتـصـار مـحـمـد يعـرف مـا يفـعل . . أمـا مكة فـتـملك عـشـرات الآلهة ، وعديدًا من المبادئ التافهة ، لها مائة اتجاه واتجاه . . » .

ولا تكاد تجتمع على قلب رجل واحد . . » .

قال الحويرث فى خبث : «ولم لا نفعل مثله؟؟» .

- «التقليد غير الأصالة يا حويرث . . » .

تنهـد الحـويرث سـاخطًا وقـال : «إن كـان نبـيًا فـلا فـضل لمحمد ، فما يفعله فهو عند الله ، وإن كان مجرد بشر ، فإن مكة

لن تعدم رجلاً ذكيًا مثله، يحشد قواها، ويخطط لها، ويحقق لها النصر . . ».

قال خالد . . «لقد لمست يا حويرث أخطر نقطة . . ».

- «كيف؟؟».

- «هل محمد نبى أم بشر ذكى؟؟ هذا هو السؤال الذى لا بد أن نبحث له عن جواب».

بان الضيق فى عينى الحويرث وقال: «هذا سؤال أجبنا عنه منذ زمن بعيد . . ».

- «لكنه يحتاج إلى نظر من آن لآخر . . الأحداث تجرى، والأمور تتضح، والجمود ليس من طبيعة الفكر النشط المتسائل . . ».

- «إنك تتنكر لبطولتك وجهادك القديم يا فارس أحد».

وسمع الحويرث زوجه تصيح قائلة: «انظر يا حويرث . . . إنهم يتجهون إلى الصفا والمروة . . . ».

التفت إليها فى غيظ، كانت نظراتها مركزة على المشهد الكبير المؤثر، ووجهها ينطلق بشرًا وفرحًا، لم ترَ نظراته النارية، ووجهه الشاحب، ولم تفق إلا على صوته يهتف بها محنقًا: «عودى إلى الخيمة أيتها الحمقاء . . ».

وبعد فترة صمت قال خالد بن الوليد: «حاربت محمداً دون أن أجهد فكرى فيما وراء دعوته، كثيراً ما كنت أمارس الحرب كواجب أو كصناعة برعت فيها، لكن الأحداث شدتنى إلى معمعان آخر. . حيث لا سيف ولا مداورة. . إننى الآن أخوض معركة فكرية. . لم يتبلور اتجاهى بعد، لكنى أتساءل ولى الحق، وأناقشك وأناقش الآخرين. . إن الشجاعة فى خوض القتال ليست هى الشجاعة الوحيدة يا حويرث وهناك أيضًا شجاعة مواجهة الحقائق والتفكير النزيه. . إنها أعلى مراتب الشجاعة حسبما أعتقد. . ولعل هذا هو السر فى استماتة محمد ورجاله، لقد ارتضوا قيمًا معينة وآمنوا بها كل الإيمان، ولهذا لم يبالوا حينما أحاط بهم اثنا عشر ألفًا من الجنود فى غزوة الخندق، وهم لم يكونوا سوى ألف محصورين داخل المدينة. . الأمر أخطر مما تتصور يا حويرث. .».

شرد الحويرث لحظات، ثم انفجر قائلاً: «ماذا لو تسللت الآن إلى مكة، وانقضضت على محمد وغيبت خنجرى فى قلبه؟؟».

قهقه خالد قائلاً: «تحاول الهروب إلى أحضان الجريمة. .».

قال الحويرث ساخراً: «أنا أرفض نبوة محمد ولست أشقى بأى اضطراب فكرى مثلك..».

- «تخدع نفسك..».

التفت إليه الحويرث وصرخ: «لقد أهدر دمى..».

- «تلك قضية أخرى».

- «أنتم تفكرون ببرود، لا أحد يعرف ما يعتمل فى قلبى من أسى..».

ابتسم «بلال بن رباح»، وأضاء وجهه الأسمر بفرحة غامرة، ونظر إلى السماء، ثم دار بنظراته فى جميع الأنحاء، كأنما يستوعب المشهد الرائع ويتشربه بكل ذرة فى كيانه وتمتم فى ابتهاج: «لشد ما أحب هذه الديار!!».

قال له عمر بن الخطاب: «عجيب أمرك يا بلال!!».

- «وأى عجب فى أن أعشق الأرض التى شهدت مولد النور، ودوت فى جنباتها لأول مرة صيحة الحق والحرية والتوحيد. إن هذه الأرض تحتضن أروع ذكرياتى».

ابتسم عمر وقال: «أية ذكريات يا مسكين!! هل نسيت السياط وهى تشوى جسدك، وهل نسيت وهم يجرونك عارياً فوق الرمال المتقدة، ويكتمون أنفاسك حتى تنطق بكلمة الكفر؟؟».

- «لم أنسَ ذلك يا عمر. . إننى أتذكر هذه الأيام القاسية بكل فخر وإعزاز، لم يستطع عتاة مكة وكبراؤها أن يرغمونى على الكفر، كنت أردد سعيداً: «أحد. . أحد. .» وكنت أتلذذ بما أعانيه من عذاب فوق الطاقة. . هل هناك فخر وسعادة أعظم من هذا. .».

قال عمر فى رضى: «صدقت. .».

بينما أردف بلال: «واليوم ندخل مكة زائرين، ونسعى بين الأركان والصفا والمروة، ونهتف باسم الله عاليًا دون خوف، لا يجرؤ صوت على أن يرتفع فى وجهنا باحتجاج أو سباب. .».

ثم ابتلع ريقه، وأردف وقد ازداد وجهه الأسمر إشراقًا: «إن أعظم متعة أن تدع القوم الذين شهدوا عذابك وصمودك أن تدعهم يرون انتصارك وفشلهم. . هذا فضل من الله ونعمة. .».

وهمّ عمر بالحديث، لكن بلالاً استمر فى حديثه قائلاً: «وغداً أصعد أعلى قمة فى البيت الحرام. . أنا بلال العبد الحبشى. . وأهتف بأعلى صوتى مؤذنًا: الله أكبر. . أشهد أن لا إله إلا الله. . أى مجد أروع من هذا. . وسينظر إلىّ أهل مكة، ويفتحون آذانهم على الرغم منهم لتلقى هذا النداء الخالد، دون أن يجرؤ أحدهم على رفع سوطه علىّ. . لك

الحمد يا رب . . » .

تمتم عمر : «الحق يا بلال أننى أدرك ما يعتمل فى قلبك من سعادة ورضى ، فقد عوضك الله خيراً أى خير . . » .

وعاد بلال يقول : «والآن لعلك تقتنع يا عمر بصدق عاطفتى نحو هذه البلاد . . أقسم لك يا عمر لو أن ألد أعدائى أتى مسلمًا مؤمنًا ، لأمحى من قلبى كل عداء له أو نقمة عليه ، فإنا أحب المرء لا أحبه إلا لله ، وأكرهه لا أكرهه إلا لله ، كما علمنا الرسول . . وقلبى يحدثنى يا عمر أن مكة اليوم غيرها بالأمس ، وأن قلوب غالبية أهلها يميلون للإسلام . . ولن يمر وقت طويل حتى يتعانق الرجال منا ومنهم ، وتتجاوب الأمانى والنداءات . . ويمضى الجميع تحت لواء واحد يدعون لله فى شتى أنحاء الأرض . . » .

قال عمر : «أعلم أن الرسول يأمل كثيراً فى أن يثوب أهل مكة إلى الحق ، ويرجعوا عن غيهم وجحودهم . . » .

***

ظل الحويرث يجرى هنا وهناك حتى وجدها ، وصفق قلبه طربًا حينما رآها تجلس وحدها فى خيمة منعزلة ، وإلى جوارها كئوسًا فارغة ، وهتف «حفيت قدماى فى البحث عنك يا لؤلؤة» . هتفت فى غيظ : «لا أريد أن أراك . . » .

- «لم؟؟ ماذا جرى؟؟».

- «أنت ممن يقولون ما لا يفعلون.. جلست أنتظر النبأ الذى يهز الدنيا، فإذا بمن يأتينى ليقول لى إن الحويرث جالس يستمتع برؤية المسلمين وهم يطوفون ويلبون ويكبرون..».

قال وقد أطرق ساهمًا: «الحياة سقيمة تافهة، أتفه ما فيها ألا تستطيع أن تفعل ما تريد..».

- «الرجال لا يعجزون عن إثبات وجودهم، وركوب المخاطر..».

- «لكن زعماء مكة قيدونى بمنطقهم العاجز، وتهديدهم الرخيص..».

وصمت برهة ثم قال: «دعى هذا الأمر.. ودعينا ننس الأحزان..».

- «نفدت الخمر وأكاد أجن..».

- «تعالى نلهو، فاللهو أفعل من الخمر..».

- «المسلمون يعبدون الله، ويتردد صدى هتافاتهم فى كل الأنحاء، ونحن نعربد فى استهتار..».

- «نحن أحرار يا لؤلؤة..».

- «ليس بى رغبة سوى أن أجلس وحدى..».

- «لكنى لن أنصرف . . » .

- «سيان أن تبقى أو أن تنصرف . . وجودك كعدمه . . » .

أمسك بزندها العارى وجذبها نحوه قائلاً : «كفِّى عن هذا الهراء . . » .

- «أنت لم تأت حبًا فىّ ، وإنما لتغرق أساك بين أحضانى ، بحثًا عن السلوى والعزاء ، إننى أداة ترفيه؟؟» .

- «يا مجنونة ، ما أحببت أحدًا فى الوجود مثلك ، أنت توأم روحى ، وحياة قلبى . . ألا تعرفين؟؟» .

- «حسنًا يا حويرث . . ماذا تريد؟؟» .

قال : «الليل أوشك أن يغمر التلال ، ويغطى معالم الأفق . . لنخرج ونمضى بعيدًا . . بعيدًا . . حتى نجد مكانًا آمنًا ، ننسى فيه الحزن والهوان . . » .

تمتمت : «ألا تخاف الوحوش؟؟» .

- «كل شىء فى سبيلك يهون يا لؤلؤة . . حتى الحياة . . » .

قالت وهى تهم بالوقوف : «لكن زوجتك تنتظر . . » .

- «دعى هذا السخف . . كانت تتسلى بمشهد اليوم كالأطفال البلهاء . . الجميع لا يفكرون فى شىء سوى الحادث الكبير . . » .

- «استطاع محمد يا حويرث أن يفرض على الناس أمره . . مسلمهم وكافرهم . . ونحن نبحث عن مكان أمين نمارس فيها طقوس المجون . . » .

- «هذا أروع ما فى الوجود . . » .

قالت : «صدقت . . لكن التناقض الذى نعيشه يلوى أعناقنا وأفكارنا . . » .

ثم خطت خارج الخيمة قائلة : «هيا بنا . . » .

□□□

الفصل [٣٠]

استمع العباس عم الرسول إلى كلمات زوجه فى اهتمام بالغ، وسدد إليها نظرات مستفسرة، إنه لا يكاد يصدق ما يسمع، قد كان الأمر قريبًا ومفاجئًا بالنسبة إليه، لقد قالت له زوجه: إن أختها «ميمونة» قد مال قلبها إلى الإسلام، وإنها لن تتوانى عن إعلان إسلامها مهما كلفها الأمر، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن «ميمونة» تأمل أن تتزوج من الرسول، وكان العباس عم الرسول لم يزل على دين آبائه وأجداده، لكنه فى الوقت نفسه يبخل بأى جهد أو عون على ابن أخيه محمد، بل أصابه غم شديد حينما تواترت إليه الأنباء غير الصحيحة عن هزيمته فى خيبر، وعندما علم بانتصاره لبس أفخر ثيابه وأخذ يطوف بالكعبة، ثم واجه قريشًا يومها وأعلمهم بالنبأ الصحيح وأخذ يتحدث عن انتصارات ابن أخيه فى فخر واعتزاز وسعادة.. وعلى الرغم من مفاجأته ودهشته لأنباء «ميمونة» أخت زوجته إلا أن الأمر لم يضايقه أو يحزنه،

بل طرب له، وانتشى لسماعه، وتمتم العباس لزوجه: «كيف تم تحولها هكذا فجأة يا أم الفضل؟؟».

قالت الزوجة: «وهل في محمد شيء يُعاب يا رجل؟؟ إنه صادق أمين، عطوف، كلماته تنفذ إلى القلوب والعقول كالسحر..».

وابتلعت ريقها قائلة: «ومن منا لم يتأثر لمشهد المسلمين وهم يلبون ويطوفون ويجيئون بين الأركان، وبين الصفا والمروة؟؟ إن قريشًا كلها تتحدث الآن عن محمد ودعوته حديثًا عجيبًا..».

ألا ترى رجال ابن أخيك كيف يتحركون، وكيف يتعبدون، وكيف يتعاملون؟؟ إنهم نماذج فريدة للأخوة والكمال والخلق والتفاني في تأدية الواجب.. الناس جميعًا يتحدثون عن ذلك..».

شرد العباس بضع لحظات وأخذ يتمتم: «كلماته ترد الروح، وتغرس في النفوس الكرامة والأمل، وتملأ القلب باليقين، وتقود العقل إلى آفاق فساح.. هذا حق لا شك فيه.. إن ابن أخي - لو تم له النصر - سيجلب الفخر لقريش أبد الدهر..».

قالت أم الفضل ولقد طأطأت رأسها في حيرة: «يلح عليّ سؤال أتمنى لو سألتك».

قال وهو باقٍ على شروده: «ما هو؟؟».

رفعت وجهها إليه مستجمعة شجاعتها: «تتكلم عن ابن أخيك بعاطفة القرابة.. لكن، لماذا لم تؤمن؟؟».

هز رأسه دون انفعال وقال: «أجل.. هذا هو السؤال.. ماذا أقول؟؟ لم يأتِ الوقت المناسب بعد».

- «أعرف أنها خطوة حاسمة قد تثير قريش، وتهز أرجاء مكة، وأعرف أنك رجل مجامل، وترعى بعض التقاليد ذات الاعتبار الهم، لكن يا زوجى العزيز.. الحق فوق كل اعتبار..».

أدار ظهره نحوها، وتمتم: «تنطقين بالصواب..».

وصمت برهة ثم قال: «سبقتنا «ميمونة» إلى الفضل يا أم الفضل..».

وطرقت ميمونة الباب، ودخلت خاشعة..

- «مرحبًا بك يا ميمونة..».

- «مرحبًا بكما.. الحق أننى فى عجل من أمرى، ولا بد أن يتم الأمر قبل أن يرحل محمد عن مكة.. فإن قبلنى زوجة فهذا غاية المنى.. وإن اعتذر، فيكفينى توفيقًا وسعادة أن يقبل إسلامى..».

قال العباس ووجهه ينطلق بشراً: «سأفاتحه فى الأمر الليلة، وابن أخى لم يرفض لى طلبًا.. نعم الرجل هو!! ودارت بنظراتها من حولها، وكأنها فى حلم جميل رائع..».

- «علم الله أن قلبى ليس به مكان لأحد سواه، وأنه ملأ روحى وحياتى ويقظتى أصبح كل شىء أبحث عن كلماته فى مظانها، وأترنم بها وحدى كأجمل لحن فى الوجود، وأحفظها عن ظهر قلب، وألبث الساعات الطوال وأنا أتلوها، وكأنه أمامى يستمع إلىَّ.. وفاجأهما فى مجلسهما هذا خالد بن الوليد، وميمونة خالته وكذلك أم الفضل زوج العباس، وألقى عليهم التحية، ثم دار بنظراته بينهم، واتجه بالحديث نحو ميمونة: «إن خلف تعبيرات وجهك كلمات كثيرة...».

ثم نظر إلى العباس، وإلى أم الفضل، وقال: «إنكم تناقشون أمرًا مهمًا على ما يبدو..».

واستطرد فى غير قليل من الأسى: «وأستطيع أن أرجح أنكم تتدارسون أمر محمد..».

قال العباس: «كيف عرفت؟؟».

ضحك فى ألم: «وهل للناس فى مكة حديث سواه؟؟ إن زيارته قد أبهجت قلوب الأصدقاء، وأسخطت نفوس

الأعداء، وما أراه سيترك مكة إلا ويترك وراءه تطاحنًا وصراعًا لا مثيل لهما . . ».

هتفت ميمونة فى حماسة : «وماذا فى محمد يؤخذ عليه؟؟».

ابتسم خالد قائلاً : «أنا لم أنل منه أو أهاجمه يا خالة . . ».

- «إن موقفك يوم «أحد» ينسى . . ».

تنهد فى حسرة : «يا له من يوم!! ومع ذلك فقد كنت أؤدى واجبى كمحارب لا شيء غير ذلك يا خالة . . ».

- «أو تظن أن ذلك مدعاة للفخر . . ».

قال وهو يحاول استثارتها ليعرف ما وراءها : «النصر فخر لا شك . . ».

- «أن تقتل، أو تطمس الكلمات المضيئة، فإن هذا عار أى عار . . ».

قال فى هدوء لم تتوقعه : «حنانيك يا خالة . . لم أكن أفكر فى ذلك . . ».

صاحت فى حدة : «ومتى تفكر؟؟».

قال جادًا : «الآن؟؟».

خاف العباس أن يدب بينهما خلاف، فقال لكى يضع الأمور فى نصابها: «لا تتضايق يا خالد، فإن خالتك ميمونة قد قررت اعتناق الإسلام، هذا أمر يخصها وحدها، وما أرى حدتها إلا نابعة من هذا الموقف.. وهذا هو التفسير الكامل للأمر..».

صمت خالد برهة ثم قال: «أحدث هذا حقًا يا خالة؟؟».

قالت متنمرة، وعلى وجهها أمارات التحدى والإصرار: «هو ذلك، ولن تستطيع قوة فى الوجود أن تطفئ النور الذى أضاء محمد سراجه فى قلبى.. وما قيمة الحياة فى ظل الجهل والكفر والخوف؟؟ الرجال فى مكة -يا للعار- أحفظهم الغرور والتقاعس، فلم يستطيعوا أن يخطوا الخطوة الحاسمة..».

ولوحت يدها فى مزيد من الحماسة: «قيمنا تافهة.. عداوتنا لمحمد لا معنى لها.. مواقفنا المتخاذلة تثير الدهشة والاشمئزاز.. الرجل يدعو إلى الإخاء والحب والعدل والمساواة.. ويدعو أولاً وأخيراً إلى توحيد الله.. ماذا فى ذلك؟؟».

قهقه العباس، وأردف: «فى ذلك الشئ الكثير

ياميمونة . . إن ابن أخى يجعل عاليها سافلها ، ويقلب صورة الحياة ونظامها قلبًا . . إن أمرًا كهذا جد خطير . . » .

- «ليكن يا أبا الفضل . . الأمر الجدير بالتفكير هو : هل محمد على حق أم لا؟؟ وهل دعوته لصالح الناس أو لغير ذلك ، وهل كلماته وحى من السماء أو ابتداعات عقل وقّاد ذكى؟؟» .

هتفت أم الفضل : «إن النور الذى تدفق فى قلب ميمونة أعطى كلماتها معنى رائعًا ، على الرغم من أنها تصغرنا سنًا . . تتكلم وكأنها أميرة مكة بأسرها . . » .

قال العباس معلقًا : «بإذن الله . . ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، صدق الله العظيم . . » .

ثم قالت لخالد : «ما دمت تعرف أن النصر له ، فلماذا لا تؤمن برسالته؟؟» .

- «أنا لن أؤمن به لأنه سينتصر . . » .

- «ولماذا تؤمن؟» .

- «لأنه على حق . . » .

وقهقه خالد قهقهة عالية أودعها كل توتره وقلقه ، وعبر بها عن الصراع العنيف الذى يحتدم فى قلبه . .

□□□

الفصل [٣١]

المكيـون يتناقلون عن المسلمين حكايات كـالأسـاطيـر، ويروون هذه الحكايات فى حـمـاسـة، ويكررونهـا دون ملل، بعضهم يسخر منها، ويرى فيها افتعالاً ومبالغة سخيفة، والغالبية العظمى تنظر إليها فى إعجاب، وترددها فى شغف، ويتمتمون: «ما سمعنا بهذا من قبل» فالمتحدثون يزعمون أن بلالاً يناقش عمر وعثمان وأبا بكر مناقشة الند للند، وقد يأتى برأى يخالف رأيهم جميعًا، وربما يؤيده الرسول فى رأيه، فينصاع الجميع له دون ضيق أو نفور، وهو العبد الحبشى صاحب التاريخ الطويل فى الإذلال والقهر، وصاحب البشرة السوداء الفاحمة.

والمتحدثون يؤكدون أن المسلمين يعيشون عيشة تكافلية، الغنى يعطى الفقير، ويشاركه الطعام والشراب، والأشراف والعبيد يتناوبون الخدمة سواء على قدم المساواة، والجميع يقفون فى صف واحد، أثناء العبادة، وبلال يتقدم غيره من

السادة أشراف مكة الأقدمين وأشراف المدينة، لكأنما استطاع محمد أن يمزجهم ويخلق منهم عجينة واحدة ثم سواهم بشراً من جديد، ينصاعون لأمره، ويتقبلون كلماته فى خشوع، ويتسابقون إلى الموت فى فخر. . لقد اندثرت القيم القديمة لزائفة فيما بينهم، وهم يعيشون الآن فى ظل مبادئ جديدة يهرعون إليها مشغوفين سعداء. . ليس عجيبًا ألا يتساقوا خمراً، أو يدب بينهم شحناء، أو يعلو صوت قوى على صوت ضعيف، وقد ظن عكرمة بن أبى جهل أن هؤلاء قد خسروا كثيراً من فخارهم وكبريائهم حينما قبلوا هذه الأوضاع الجديدة الغريبة، وخفضوا جناحهم للعبيد والفقراء الذين لاذوا بالرسول، لكن خالد بن الوليد قال ساخراً: «لقد جانبت الصواب يا عكرمة، لم يخسر أحد شيئًا. . الجميع كسبوا أيما كسب، إن من تسميهم الأشراف قد تذوقوا حلاوة الإيمان والتضحية، فداسوا أطماعهم القديمة، وتطلعاتهم العتيقة التى نشأوا عليها. . إن مساواتهم مع المساكين والضعفاء يعتبرونها قربى إلى الله، وطريقًا إلى الخلاص والجنة. . إنهم ينظرون إلى الأمر بغير العين التى تنظر بها أنت الآن. . هل نسيت أنه ليس هناك من يرغمهم على ذلك السلوك، وأنهم اختاروا الطريق بمحض إرادتهم؟؟».

ودق عكرمة كفًا بكف وقال: «وهذا ما يحيرنى. . كيف

حدث ذلك؟؟ إنهم يتنازلون عن حقوقهم كشرفاء.. تلك الحقوق المقدسة الموروثة.. من يصدق؟؟؟».

وقطع عليهم الحويرث حوارهم حينما قدم فى اضطراب وقال: «انظروا.. ابن السوداء يعتلى أعلى قمة فى البيت العتيق.. ويؤذن للصلاة.. وكأنه يسخر من أصنامنا المتراصة».

وبان الضيق فى وجه عكرمة وهو يرى بلالاً يؤذن للصلاة بصوته الندى والآلاف من أهل مكة يستمعون إليه فى إعجاب ممزوج بالعطف والشغف، بينما ابتسم خالد دون أن يبدو عليه أى أثر للانفعال، وتمتم: «وماذا فى ذلك؟؟».

صاح الحويرث: «إنها كارثة كبرى!! إن هذا المشهد المثير سترتسم صورته فى أذهان أهل مكة أبد الدهر، إنه عار أى عار!! إن محمداً يتعمد السخرية من آلهتنا، ويتخذ كل طريق لاستثارتنا.. لو كان عندنا ذرة من كرامة لوثبنا وثبة رجل واحد.. وأمسكنا بابن السوداء، وقذفنا به إلى الحضيض محطم الجمجمة، مكسور العنق..».

- «لم تكن هذه الإهانة بمتوقعة..».

ردخالد: «لهم ثلاثة أيام يفعلون خلالها ما شاءوا من شعائر وعبادات..».

هدر الحويرث : «سندفع الثمن غاليًا جزاء تهاوننا واستسلامنا . . » .

وانصرف الحويرث عنهما غاضبًا ، وصورة بلال وهو يؤذن من فوق الكعبة لا تفارق خياله ، يحاول أن يصرفها عن ذهنه فلا يستطيع ، إن الأقدار تفرض التحدى على فكره وخياله ، وأحيانًا تتحول صورة بلال المؤذن فى ذهن الحويرث إلى ابتسامة عريضة ساخرة ، أو قهقهة شامتة ، فيرفع يده متوهمًا أنه يصفعه ، فإذا بيده تشق الهواء ، وتتدلى هى الأخرى إلى جواره عاجزة ، وأخذ يتمتم وهو يسير فى طريقه المتعرج المليء بالحصى : أنا خصيمك يا محمد حتى الموت . . لو أمكننى أن أكفر بدعوتك قبل أن أراك ، وقبل أن تدعو الناس إليها لفعلت . . الأمر ليس منطقًا أو إقناعًا . . إننى أعترف . . أنا أكرهك ، وأكره أن أخلع نفسى من جذورها وماضيها وتقاليدها . . لا معنى لأى شيء جديد ما دمت سعيدًا بما أنا فيه ، ولو كان كل الناس منغمسين فى الشقاء والعذاب . . هذا هو منطق السادة والأقوياء ، هل أتيت يا محمد لترفع الحقراء والأدنياء إلى مرتبة الشرف؟؟ لن يكون شرفًا إذا تساوى الناس وأصبحوا جميعًا متماثلين فى الشرف؟؟ لا بد أن يظل الشرف حكرًا على فئة معينة من الناس وإلا فقد صفته ، أو تضاءلت قيمته . . البلهاء يتسابقون إليك ويصفون مبادئك بصفات

العدالة والرحمة والمساواة والأخوة. . أما أنا فأعتبرها استرضاء لعواطف العامة والفقراء، وخداعًا لمن مالأك من الشرفاء. . إنك يا محمد تغير من القيم والمبادئ لتنشئ لنفسك ملكًا يرضخ لإرادتك، وأنا لست أقل منها شأنا وشأوًا. . ».

وصدرت من خلفه قهقهة عالية، فانتفض، والتفت إلى مصدر الصوت، وهتف: «أنت؟؟».

- «فيما تفكر يا مسكين؟؟».

- «أوه يا لؤلؤة!!! أتسخرين منى؟؟».

- «ما بك؟؟ إنك تبدو شاحب الوجه، هائم النظرات. . يبدو أن السهر الطويل وكثرة الشراب قد نالا منك. . ».

طأطأ رأسه فى حزن وقال: «ابن السوداء يعتلى الكعبة ويؤذن للصلاة. . ».

- «وماذا فى ذلك؟؟».

-«إنه العار الأبدى. . ».

- «أما أنا فقد طربت لذلك. . لا تنسَ أن ابن السوداء هذا من جنسى. . هو حبشى. . وأنا حبشية. . ».

قال فى ارتباك: «أعرف. . فرق كبير بينكما. . هو مسلم حقير، وأنت. . ».

ضحكت فى استهتار، وأردفت: «وأنا مشركة حقيرة..».

ثم لوحت بيدها ضاحكة: «وهناك فرق كبير بين حقارته وحقارتى.. حقارتى من نوع مقبول.. حلو المذاق.. أتنكر ذلك؟؟».

التفت إليها فى دهشة وقال: «يبدو أنك قد عاودت الشراب فى الصباح..».

- «بالتأكيد.. هذه أيام عاصفة مثيرة.. لا علاج لها غير الإكثار من الخمر..».

ثم تمتمت فى شرود: «الحقيقة أن هذه حسنة من حسنات محمد..».

- «ماذا؟؟».

- «أن يجعل من بلال مناديًا للصلاة، وأن يلبى دعوته المسلمون، كبارهم وصغارهم.. أليس هذ أمرًا غاية فى الغرابة؟؟ لم أرَ فى بلال أية سمة من سمات العبودية..».

أنصت إليها فى دهشة، وأخذ يجعل نظراته هنا وهناك حائرًا، ثم تمتم: «يحابى العبيد والفقراء والضعفاء لأنهم يشكلون غالبية الناس، ولأنهم يحملون السيوف، ويحققون له النصر، ويمتطيهم إلى غاياته..».

قالت لؤلؤة ساخرة: «لا تفكر فى الأمر بهذا العمق، ومع ذلك فإن كلماتك فيها كثير من الكذب والخداع.. إننى صريحة ولا أخاف أحداً، وأحب أن أسمى الأشياء بأسمائها.. أنت كاذب.. حسنًا.. كيف؟؟ إن أتباع محمد من الفقراء والأغنياء، ومن الضعفاء والأقوياء على حد سواء.. ثم إن محمداً لم يتخذ الفقراء والضعفاء وحدهم ليغدق عليهم ماله، ويشتريهم بهباته.. تلك حقيقة.. أتباعه يغرمون أكثر مما يغنمون..

أو تنكر ذلك يا حويرث؟؟ ومحمد ليس لديه من ذهب، أوأودية من الإبل والشاة ليشترى الناس.. إنهم يهرعون إليه بأنفسهم.. ويغرمون.. أليس ما أقوله هو الحقيقة؟؟».

طأطأ رأسه، وتفصد جبينه عرقًا، ثم رفع إليها وجهًا مكدوداً متوتراً وقال: «هل أنت معى أم مع محمد؟؟».

قالت دون تردد: «بالطبع معك!!».

- «فلم هذا الكلام إذن؟؟».

- «إنه لن يغير من موقفى ولا موقفك..».

- «لكنه يعنى ضلالنا وخطأنا، وقد يوحى بأن محمداً على حق..».

ابتسمت قائلة: «محمد له عالمه، ولنا عالمنا..».

- «ولكنى أرفض أن يدافع عنه أحد..».

- «ليس ذلك دفاعًا، ولكنه تفسير للأمور..».

- «تلعبين بالألفاظ يالؤلؤة.. فالتفسير يخدمه، ويبرر من تصرفاته..».

هزت لؤلؤة كتفيها دون اكتراث وقالت: «هل بلغتك آخر الأنباء؟؟».

لوى رأسه نحوها، وهتف: «أهناك جديد؟؟».

- «سيتزوج محمد من ميمونة خالة خالد بن الوليد، وشقيقة أم الفضل..».

- «أنت تكذبين..».

- «ليس لى مصلحة فى ذلك..».

- «هذه بداية المصائب، تجرأت امرأة وأعلنت إسلامها، وتقدمت شجاعة للتزوج من محمد، فماذا سيفعل الرجال بعد ذلك؟؟» هذا ما كان يردده الحويرث بينه وبين نفسه، وتمادى فى أفكاره: «ولسوف تندم قريش أيما ندم، وستعلم بعد فوات الأوان أن فرصتها الوحيدة الباقية قد ذهبت إلى غير رجعة.. أسلمت ميمونة دون أن يردها خالد، ودون أن يردعها

العباس، قريش تقابل ذلك التصرف المشين بالصمت والجبن . . إذن لمحمد الحق فى أن يسخر منهم، ويهرول بين الأركان، ويتردد صدى تكبيراته وتلبياته هو ورجاله فى جنبات البيت العتيق، وفى أرجاء مكة . . يا للهوان!!».

- «حويرث . . ».

- «نعم . . ».

- «لاأريد أن أراك الليلة . . فلتذهب إلى زوجك . . ».

قال وقد دق قلبه فى عنف: «لماذا يا لؤلؤة؟؟».

- «كنت بالأمس خائر القوى، بارد الجسم . . إن كثرة التفكير قد نالت من روعتك وبهائك . . لم تعد الحويرث الذى أعرفه . . وأنا لا أطيق الضعف والهموم والفكر المستمر . . ».

أمسك بيدها فى حزن عميق، وقال والدموع توشك أن تطفر من عينيه: «ما هذا الذى تقولين؟! إنك تنالين من كبريائى وشرفى . . أقسم إن هذه الكلمات أقسى على نفسى من الأنباء التى سمعتها حينما أهدر محمد دمى . . إنك تقسين علىّ يالؤلؤة . . ولست أنا على الصورة التى تتخيلينها . . ».

قالت وهى تميل برأسها فى دلال: «لا أريد أنصافَ رجال . . إننى أهوى القمم . . الملذات الناقصة تورثنى عذابًا

رهيبًا . . اسمعنى جيدًا . . الرجال فى حضرتى يجب أن يأتوا بكل كيانهم . . أنا أعرف من تجربتى . . ما أضاع الرجال سوى الشك والفكر العميق . . ».

قال وقد تدلت شفتاه فى بلاهة : «لكننا جميعًا نفكر . . ».

– «يجب أن يكون ذلك على مستوى سطحى لا يؤثر فى أمزجتنا وقوانا . . ».

زحف على ركبتيه، وقال فى ذلة : «لك ذلك يا لؤلوة . . ».

ضحكت فى خلاعة، وبدا فى عينيها الواسعتين وهج خبيث، وهتفت : «اعترف لى . . إنك تحبنى بجنون . . ».

– «أو تشكين فى ذلك؟؟ أنت حياتى ودينى ونعيم وجودى . . ».

شردت بنظراتها فى حزن وقالت : «هذه أيام شك رهيب . . ».

ثم عادت وربتت على رأسه وظهره فى ود وقالت : «والمستقبل يشوبه قلق وخوف . . ».

ثم التفتت إليه ثانية وقالت فى شراسة : «لكن علام نخاف؟؟».

– «لا شىء . . ».

- «إذن فلنرقص ونغنِّ ونشـرب.. ونسـتـمـتع حـتى النهاية..».

وضحكت فى نزق..

وضحك.. ثم تمتم وهو يقبض على كفها بشدة: «حتى النهاية..».

□□□

الفصل [٣٢]

رحب الرسول باقتراح عمه العباس، وأبدى رغبة أكيدة فى إتمام الزواج من ميمونة ذات الستة والعشرين ربيعًا، وسعدت ميمونة بهذه الموافقة سعادة كبرى، وأخذت تحلم باللحظة الخالدة التى نقترب فيها بنبى الله، الذى أحبه قلبها بكل ما فيه من عاطفة جياشة، وبدا لها كأنما قد حازت الدنيا بكل ما فيها ونالت أعظم ما تحلم به امرأة فى حياتها، وتجسمت لها قيمها ومبادئها الجديدة فى الإنسان الكبير الذى اختاره قلبها يثب إلى هناك.. إلى حيث يجلس محمد وسط صحابته، يحدثهم حديث القلب والروح، وينير لهم آفاق الدنيا والآخرة، ويرسم لهم السلوك النظيف، وحمل الأمانة، وإذاعة كلمة الحق بين الناس.. لشد ما بدت لها الساعات القليلة التى ستلتقى بعدها بمحمد، بدت طويلة شاقة على أعصابها!!

وسعد أيضًا بذلك عمر بن الخطاب، وابتسم حينما تذكر أن ابنته حفصة زوج الرسول سوف تثور، وقد يشتد بها الغضب،

لكن محمداً كان أحب إليه من ابنته ومن الدنيا بأسرها . .
وفكر عمر . . لشد ما تغيرت مكة ، ولشد ما تغير أهلوها ! !
الكثير من العداوة والأحقاد فى قلوب المكيين قد ذابت أو توارى الجزء الأكبر منها ، وليس بين مكة والإيمان بمحمد ورسالته إلا خطوات قليلة ، لكنها خطوات حاسمة تحتاج إلى شجاعة فائقة ، وهكذا دائمًا تكون الأمور الحاسمة ، وبدا لعمر واضحًا أن عامة الناس فى مكة فى جانب وقادتها فى جانب آخر ، وأن الصراع الخفى بين الطرفين يكاد يبين عن نفسه ، بل إن هذا التقسيم التقريبى لا يظهر الحقيقة كلها ، لأن قلة من الكبار تميل هى الأخرى لمحمد ، وقلة من العامة لم يزل يلفح الجهل والحقد عقولها ، فتتنكر للدعوة الإسلامية عن عمى . .
ذلك هو الوضع القائم فى مكة ، أليست هناك طريقة إذن للاستفادة من هذا الوضع ، لعل مكة تفتح قلبها وأبوابها لدعوة الرسول حينما أخبر أصحابه بأنه ينوى أن يقترح على أهل مكة أن يتركوه يتزوج من «ميمونة» بعد انقضاء الأيام الثلاثة ، فإن وافقوا ، فليطعمهم الطعام ، ولتقم الأفراح البسيطة التى تشمل الفرقاء ، وفى هذا الجو المتفتح الهادئ ، يمكن أن يبدأ الرسول حوارًا أخويًا رقيقًا معهم ، فقد يستجيبون لدعوته ، وينتهى ذلك الصراع المرير الطويل ، وتنطوى صفحة الحقد الأسود التى يحرسها الطواغيت من كفار مكة . . وكان عمر يأمل أن

تنجح الخطة، فيحقق الإسلام من ورائها نصراً هيناً لدعوة الله، وأبدى حماساً بالغاً لذلك.. وحانت اللحظة الحاسمة حينما جاء رجلان من مكة هما سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى فى نهاية الأيام الثلاثة.

واستقبلهما الرسول أحسن استقبال، وأبدى سعادة كبرى للقائهما، ومحبة واضحة تكاد تذهب كل ما مضى من صراع وخلاف، قال أحد الرجلين: «يا محمد.. إنه انقضى أجلك فاخرج عنا..»

ابتسم الرسول فى رقة، وشعت نظراته بالحب والأمل والتسامح وقال: «ما عليكم لو تركتمونى، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه».

قال الحويطب، وردد سهيل بعد كلامه: «لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنا..».

ومال الحويطب على سهيل قائلاً فى صوت خفيض لا يكاد يُسمع: «يريد محمد أن يلتقى بأهل مكة، ويجرب سحره فيهم من جديد، كى يستولى على قلوبهم، ويجذبهم إلى دعوته، لو فعلنا ذلك ووافقنا على اقتراحه لرمانا قومنا بالسذاجة، وضيق الأفق، وسوء التصرف، ولكنا فيما يجد من أحداث خطيرة..».

واتجه عمر بن الخطاب نحوهما، وقال: «لقد عقدنا صلحًا موقوتًا، ماذا لو انتهت الحروب، وتآخى الناس، وتركت لهم حرية الاختيار؟؟ لسوف يسعد العرب، ويسود السلام والحب جميع الناس. .».

قال الحويطب، وكان حاد الطباع، صلب الإرادة: «تريدون أن تبتلعوا المدينة لقمة سائغة، وتهدموا كل مجد بنيناه، ليس بيننا وبينكم إلا ما نص عليه صلح الحديبية. . الناس على رءوس الجبال يقفون، وينتظرون أن يعودوا إلى ديارهم. . ويستأنفوا حياتهم الطبيعية. .».

وعاد سهيل هو الآخر يكرر: «لا حاجة بنا إلى طعامكم فاخرجوا عنا. .».

وأردف الحويطب: «وتستطيع أن تأخذ ميمونة وتعرس بها فى مكان آخر خارج مكة، فلم يعد باستطاعتنا أن نتحمل ونصبر أكثر من ذلك».

وتمتم عمر: «علم الله أن رسوله لا يترك فرصة للسلام والتصالح إلا وانتهزها، ألا إن مطلب الرسول هين يسير، لا يختلف عليه عاقلان وهو أن تترك للناس حرية الاختيار. . وهذا حقهم. .».

قال الحويطب فى حزم: «ليس بيننا وبينكم إلا الاتفاقية

المعقودة . . فدعونا وشأننا، ولا تحدثونا عن حقوق أهل مكة فى الاختيار والحرية، فنحن نعرف ما يريدون، وهم يعرفون حقوقهم جيداً . . ».

وابتلع ريقه، وجفف عرقه، ثم استطرد: «الناس ينتظرون على أحر من الجمر، هل تنصرفون أم لا؟؟ من حقنا أن نأمركم بالرحيل على الفور . . ».

ولم يكن أمام المسلمين، بعد أن صمت مكة - بل كبراؤها الحاقدون - أذنيها عن دعوة الخير والسلام والمصالحة، لم يكن أمام المسلمين سوى الرحيل، تحرك ركبهم خارج البلد الحرام، عائدين إلى المدينة تتبعهم ميمونة فى هودجها . . وعلى جبل حراء وأبى قبيس والتلال المحيطة بمكة، كان المكيون فى حركة دائبة، وترقب لاهث، ماذا يجرى؟؟ هل يرحل محمد أم يبقى؟؟ وإذا لم يرحل فماذا سيحدث؟؟ أسئلة أثارت القلق والذعر فى النفوس، أتنشق مكة إلى جبهتين: إحداهما توالى محمداً والأخرى تحاربه، وفى داخل النفوس صراعات عدة مختلفة . . فهناك رجال قرروا أن يخوضوا المعركة ضد عتاة مكة، ويفاجئوهم بإعلان إسلامهم عندما تحين اللحظة الحاسمة، وآخرون قرروا أن ينسحبوا إلى دورهم لا يودون أن يشتركوا فى صراع لا يتبينون نتيجته سلفًا، وآخرون ربطوا

مصيرهم وحياتهم بقهر المسلمين ودعوتهم من أمثال عكرمة وأبى سفيان وهند والحويرث . . » .

وعاد الهدوء النسبى بعد أن جاءتهم الأنباء بموافقة محمد على الرحيل وقد انتهى الأجل المتفق عليه . . تنهد أبو سفيان فى ارتياح ، وحمد الآلهة ، وتمتم : «لو لم يرحل محمد لانطلقت فتنة مدمرة لا يدرى أحد مداها . . » .

ردت عليه زوجه هند فى ضيق : «ليته أصر على البقاء . . » .

- «كيف؟؟» .

- «لو حدث ذلك لجردتم السيوف ، ولقضيتم على الألفين من رجاله ، وأخذتموه أسيراً . . لكن الأقدار لا تريد أن تجركم إلى المعركة المناسبة أبداً . . لعل ذلك انتقام من الآلهة لتقاعسكم ووهنكم . . » .

ولم يعلق أبو سفيان ، فقد كان أبعد نظراً ، وأدرى بالموقف على حقيقته . . أما خالد بن الوليد فقد كان شارداً لا يكاد يهتم بما يحدث ، إن أمر محمد ودعوته تشغلانه ، لا يفكر فى معركة ، ولا يهتم بصلح ، إنه يقرر مستقبله من خلال فكره . . ينظر إلى بعيد . . ماذا يفعل؟ إنه يبحث عن موقف حاسم

نهائى. هل يعادى محمداً حتى النهاية، أم يؤمن بدعوته ويسارع إليها؟؟

وعكرمة بن أبى جهل برغم إدراكه لما يجرى فى مكة، والتحولات الخطيرة التى تحدث فيها، والأفكار المتصارعة فى جنباتها، إلا أنه لا يفكر إلا فى شىء واحد، أن يحمل سيفه وينزل إلى أية معركة ليقتل من المسلمين انتقامًا لأبيه وذويه . .

وهرول الحويرث إلى خيمته، وأعد متاعه، وأركب زوجه وأهله على إبله، وهتف بهم: «إلى البيت من جديد!!».

هتفت زوجه: «وأنت؟؟».

- «لا شأن لك بى. . سألحق بك بعد وقت قصير. .».

وأدار نحوها ظهره وانصرف . .

وظل يحث الخطى حتى بلغ مهجع لؤلؤة . .

كانت مضطجعة على فراشها، مغمضة العينين، يقظة الحواس، وأدرك ذلك على التو، فهتف: «عمت صباحًا يالؤلؤة . .».

قالت فى فتور: «اجلس . .».

- «ألن تعودى إلى مكة؟؟».

- «فيم العجلة يا حويرث؟؟».

- «لقد رحل المسلمون . . » .

تنهدت فى كسل وقالت : «كنت متبرمة بهذا المكان ، أشعر بضيق بالغ ، لكن أصبحت آلف هذا المكان ، إن ما به من انطلاق وهواء وبراح وسعة ينعشنى إلى أبعد حد ، ويريح قلبى . . إن القبو الذى أعيش فيه فى مكة قد أنسانى القمر والنجوم والسماء الصافية . . » .

ثم ضحكت واستطردت قائلة : «الآن علمت لماذا كان محمد يلجأ إلى هذا الهدوء الصافى ، حى نزل عليه الوحى فى غار حراء . . » .

شاركها الحويرث الضحك وقال ساخراً : «وأنت ، ماذا تنتظرين هنا؟؟ هل تتوقعين وَحْيًا أنت الأخرى؟؟» .

قالت فى استهتار : «إن الملائكة على ما يبدو تأنف رائحة الخمر والقذارة . . الهدوء وحده ليس كل شىء . . » .

وفكر الحويرث لحظة ، ثم دار بنظراته فى شتى الاتجاهات ، وهتف : «إنه لحلم رائع حقًا . . » .

قالت فى تشوق : «ماذا؟؟» .

قال : أن نبقى هنا وحدنا فى أحضان الهدوء والحب والنشوة العارمة . . نشرب الخمر ونلتهم الخراف ، وننام

ونلهو، ونجرى هنا وهناك بلا رقيب أو حسيب . . أليس هذا حلمًا رائعًا . . ».

قهقهت وقالت: «أنت جامح الخيال، خرب المخ».

- «لماذا؟؟».

- «قد تفاجأ بزوجتك وصياحها المزعج إذا طال بك المقام هنا، ثم إننا نريد الخدم والمال الكثير والحرّاس . . ».

قال فى حماس: «لا تحملى همًا لزوجتى، أما ما بقى فأنا كفيل بتدبيره . . ».

- «نسيت أمرًا مهمًا . . ».

- «ما هو؟؟».

- «قد يأتى محمد فى أى وقت بجيوشه ليحطم عشنا الجميل . . ».

- «لن يستطيع . . ».

- «وما دليلك . . ».

- «أنا على يقين من ذلك . . ».

قالت وهى تتململ فى اضطجاعاتها: «على العموم . . أنا أرفض حلمك . . الرائع . . ».

- «وما السبب؟؟».

-«أريد عددًا كبيراً من الرجال.. لو عشت معك وحدك فلسوف أملك وأمقتك.. وقد أقتلك..».

هتف فى دهشة: «تقتليننى؟؟».

- «أجل.. لأتخلص من قيود الملل..».

قال ضائقًا: «إنه مزاح ثقيل..».

- «أليس أشرف لك أن أقتلك بدلاً من أن يقطع جنود محمد رقبتك..».

احتقنت عيناه وصرخ: «لن يستطيعوا..».

وأخذ قلبه يدق بشدة، وأنفاسه تتصاعد متلاحقة، وقال بحزم: «هل سترحلين؟؟».

قالت: «أجل.. أسرع وعد العدة للرحيل..».

□□□

الفصل [٣٣]

كلمات وداع . . لا ينطقها اللسان، ولكنها ترف فى القلوب، وتهتف بها العيون، وتلمسها فى حركات الناس ولفتاتهم وهم يشهدون محمداً ورجاله يرحلون عن مكة بعد الأيام الثلاثة المشهودة . . وتمتم خالد بن الوليد بينه وبين نفسه: «إلى اللقاء . . أيها الرجال الصادقون . . » وكادت تطفر من عينيه دمعة، لولا أن خالداً صعب الدموع، متمالك لأعصابه وانفعالاته . . وتطلع خالد حواليه، نفسه تطفح بكراهية شديدة لكل ما حوله، إنه يشعر الآن بنفور شديد للناس والأرض والمبانى فى مكة ويسمع حوار القوم وصخبهم، فتموج نفسه بضيق بالغ، واشمئزاز لا حد له، أصبح يشعر بغربة قاتلة . . أجل . . غربة . . والضجيج من حوله، والأصدقاء يلقون عليه التحية ويبتسمون له، وأبو سفيان يبش له، ويحدثه عما تطورت إليه الأمور، وعكرمة يجادله فى أمر الأيام القادمة، والمعارك المقبلة التى سيشب أوارها حتمًا بين

مكة والمسلمين، وخالد يرد ردوداً مقتضبة، وكلمات فارغة لا معنى لها، إنه زاهد فى كل شىء يكره أن يتكلم أو يأكل أو يشرب أو ينام.. لا شىء يقدر على إزالة شعور الغربة الراسخ فى روحه وعقله، لكأنه كان فى حلم صاخب حافل بشتى الأعاجيب، فإذا به يصحو فجأة، فتصدمه الحقيقة المرة، ويرى نفسه غريبًا وحيداً، يقاسى من العزلة والضيق.. حسنًا.. فليذهب إلى بيته، هناك زوجه وأهله.. بينهم ينسى ما اجتاحه من انفعالات غريبة مزعجة.. ودخل البيت ذاهلاً شارد النظرات، يشوب وجهه شحوب خفيف.. يا للمأساة!! البيت أيضًا يبدو أمام عينيه كسجن ضيق مقيت، لا يتنسم فيه ريح الألفة، أو يتروى قلبه برحيق المؤانسة.. وهتفت زوجه: «ما بك؟؟».

تمتم فى شرود: «لقد رحلوا..».

قالت دون أن تفهم شيئًا: «من؟؟ أنا لا أفهم شيئًا..».

وأدرك على التو أنه تسرع، وأن الكلمات خرجت من فيه عن غير قصد، فعاد يقول: «أشعر بكرب شديد..».

لمست جبهته، فخيل إليها أنها تلتهب فهتفت: «أنت محموم.. أنت تهذى..».

ابتسم، وقد تندى جبينه بالعرق: «لا شىء من ذلك..

إننى بخيـر . . عندمـا نشـغـل الفكر بأمـور خطرة ، فـلا يكاد الإنسان يرى سوى ما يفكر فيه ، كل شىء يتجسم فى خياله ، ثم تبدو الأشباح والخيالات كأنهـا حقـائق تسبح من حوله ، وتتصارع أمامه . . » .

وتنهـد فى شىء من الارتيـاح ، ولـم يلحظ زوجـه وهى تفـغـر فـاها دهشـة ، ثم صـرخ : «أيمكن أن يكون كل ذلك زائفًا؟؟» .

قالت فى صبر نافذ : «ماذا؟؟» .

قـال : «الماضى الطويل . . المعـارك الدامـيـة . . الخطب الرنانة . . آرائى الحكيـمـة التى كـان يصفق لـهـا المعـجـبـون ، ويحنون رءوسـهـم أمـامـهـم فى إعـجـاب . . من يتـصـور ذلك؟؟» .

وقبل أن تتكلم زوجه ، استطرد يقول وكأنه يخاطب نفسه ، وهى تلحظه فى استغراب : «حسنًا . . يجب أن أعترف . . الصمت جريمة . . أجل . . والكذب جريمة . . والكلام الزائف جريمة . . أجل الخوف من النطق بكلمة الحق أبشع الجرائم . . حسنًا . . هكذا يكون الأمر . . والنصر السـاذج القـائم على القوة العارية ، والمدعم بالمكر والأكاذيب . . خداع وجريمة . . ليس هناك أى عـذر يمنع رجلاً من أن يعترف بالحق ويعبر عن

ذاته . . أليس كذلك؟؟؟ وقف محمد وحده . . ونادى بأعلى صوت . . أيها الناس إنى رسول الله إليكم . . انصرفوا عنه وكذبوه . . وسخروا منه وطاردوه . . لكنه قالها . . أية سعادة كبرى شعر بها بعد أن ألقى عن قلبه وكاهله تلك الكلمات؟؟؟» .

دقت زوجه على صدرها فى خوف وقالت : «ماذا تقول يا خالد؟؟ ألم أقل إنك تهذى؟؟ كيف يكون الصمت جريمة والكلام جريمة؟؟؟» .

أخذ يلهث ، ثم جلس فى أقرب مكان وتمتم : «هل أنت هنا؟؟؟» .

- «ويحى . . ويحى . . لقد ألم بك داء خبيث . . ألا ترانى؟؟؟» .

رفع عينيه إلى السماء فى خشوع ورقة وضراعة وهتف : «لا أرى سواه . . » .

- «من؟؟؟» .

- «ذلك الذى ملأ وجودى . . وأنار بصرى وبصيرتى . . واستطاعت كلماته أن تهزنى من الأعماق ، وأنا الذى تتزلزل الجبال ولا أتزلزل . . » .

أنا خالد بن الوليد . . ها . . ها . . » .

اقتربت منه، ولمست كتفه الأيمن، وجلست إلى جواره ترتجف:

«يا حياة القلب والروح.. هدئ من روعك.. وحدثني عما بك..».

قال وجسده ينتفض: «لقد رحلوا.. وتركوني وحدي.. تسمرت قدماي في الأرض القذرة.. وتيبست أعضائي.. حاولت أن أتحرك فلم أستطع.. حاولت أن أصرخ بكلمة وداع فتساقطت حروف الكلمات مبعثرة ساخرة بلا معنى.. الوهم اللعين سيطر على قواي فشلني.. لأني.. لأني خائف.. أتصدقين؟؟».

هتفت: «أنت تخاف؟؟».

- «أجل..».

- «كيف وأنت فارس العرب، وبطلهم المغوار..».

قهقه في سخرية ثم عاد يقول: «بالأمس كانت تلك الكلمات تسكرني، أما اليوم فهي كلمات سخيفة تثير ثائرتي، وتتوج هامتي بالعار.. أية فروسية وبطولة تقصدين؟؟ لقد تيقنت أن البطولة الحقيقية لم يكللني شرفها بعد.. الماضي مجرد حماقات ونزوات يا امرأة..».

همست وهى لا تكاد تصدق أذنيها: «لقد شهد لك بالفضل الأعداء والأصدقاء.. وأبو سفيان أثنى عليك يوم «أحد» ثناء تبدد ذكره فى الآفاق..».

انتفض.. وشحب وجهه.. وتشنجت يداه، وقال وقد اكفهر وجهه: «لا تذكرى ذلك مرة أخرى.. هذه الكلمات الجوفاء الضخمة لم يعد لها أدنى تأثير علىّ..».

ثم أمسك بمعصمها فى عنف وقال: «ماذا لو استطاع الأغبياء أن ينالوا محمدًا بأذى بالغ.. ماذا لو قتلوه يا امرأة.. سيقول الناس.. والتاريخ.. وملائكة الله.. فى عنق خالد دم نبى؟؟».

تنهدت ثم قالت: «دم نبى؟؟».

- «نعم..».

- «أتؤمن بنبوته؟؟».

- «نعم..نعم.. نعم..».

ثم انتفض واقفًا وقال: «لا يصح أن أعلنها هنا فى ذلك البيت الصغير.. نعم.. نعم..نعم.. لسوف أذهب إلى شوارع مكة ومسامرها ونواديها وأعلنها بملء فمى، عندئذ تستطيعين أن تتحدثى عن زوجك البطل، قاهر الخوف والجهلَ والزيف والحماقات..».

هزت رأسها وهو يفر خارج البيت: «الآن فهمت كل شيء.. والآن عرفت من الذين رحلوا.. وأنا الآن متأكدة من أن قريشًا عن بكرة أبيها سوف تخرج لتشهد الحدث الكبير هذا اليوم».

***

ومضى خالد فى الطريق مرفوع الهامة، ورأى جمعًا من الناس، ورأى صديقه الحميم عكرمة بن أبى جهل، وصاح عكرمة: «مرحبًا بك يا خالد» لكن خالد لم يلتفت إليه ثم توسط الجميع، وصاح بأعلى نبرات صوته: «لقد استبان لكل ذى عقل، أن محمداً ليس بشاعر ولا ساحر، وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق على كل ذى لب أن يتبعه..».

لكأنما انقضت على الرءوس صاعقة مباغتة، فأخرست الألسنة، وجحظت العيون، وتسمر الناس تحت وقع المفاجأة جامدين، لكن قهقهة انطلقت وسط الصمت المثير، وتقدم عكرمة نحوه: «على كل ذى عقل أن يتبعه؟؟».

قال خالد وقد تصلبت ملامح وجهه: «أجل»

قال عكرمة فى سخرية: «لقد صبأت يا خالد، وتنكرت لدين الآباء..».

- «لم أصبأ ولكنى أسلمت..».

- «والله إن كـان أحق قـريش ألا يتكلم بهـذا الكلام إلا أنت . . ».

- «لم؟؟».

قـال عكرمـة وهو يصر على أسنانه : «لأن مـحـمـداً وضع شرف أبيك حين جرح . .

وقـتل عـمك وابن عـمك ببـدر . . فـو الله مـا كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد ، أما رأيت قريشًا يريدون قتاله؟؟».

وجفف خالد عرقه ، وهدأت نفسه قليلاً ، واستعاد رباطة جـأشه ، قـال : «هذا أمر الجـاهليـة وحميـتهـا . . لكننى والله أسلمت حين تبين لى الحق . . ».

وساد هرج ومرج ، وانطلق حملة الأنباء هنا وهناك يذيعون النبأ الخطير ، بعضـهم هرول إلى أبى سـفيـان بن حـرب ، وآخرون طرقوا الباب الخلفى لبيت هند زوجة أبى سفيـان ، وتسلل آخرون إلى رجالات مكة وأشرافها ، وغيرهم وقفوا يرقبون الأحداث وتتابعها ، هل تسل السيوف من أغمادها ، وتندلع فتنة لا يعلم إلا الله مداها؟؟».

وتمتم عكرمـة بينه وبين نفسـه : «لو انقـضـنا على مـحـمـد وصحبه وهم يطوفون بالبيت العتيق ، لاستطعنا أن نخمد تلك الفتن ، ولاستطاعت الحرب بوهجها وعنفها أن تسحق كل فكر

يحوم حول دعوة محمد والاقتراب منه . . لكن حماقة الكبار أضاعت الفرصة . . فليجنوا جزاء تقاعسهم وقصور عقولهم . . ».

واقترب منه «الحويرث» وهو يكاد يجن لهول ما يسمع : «لكنه قتل عمك وابن عمك . . ووضع شرف أبيك حين جرح . . ».

نظر خالد إليه فى احتقار وقال : «أعلم . . ».

- «أين الشرف والإباء والعزة؟؟».

ابتسم خالد فى سخرية : «مثلك لا يعرف شيئًا عن هذه الفضائل . . ».

ثم أمسك خالد بكتف الحويرث وهزه فى عنف وقال : «إن أروع فضيلة أن تعترف بالحق، وأن تعلنه على الملأ ولو كلفك حياتك وكل ما تملك . . ».

تراجع الحويرث فى شىء من الذعر، وتمتم : «إن محمداً ليس الوحيد بين الورى الذى يعرف الحق وصفاته . . ».

- «اذهب بعيداً وإلا بصقت فى وجهك . . ».

وساد الصمت مرة أخرى حينما نادى منادٍ : «إن أبا سفيان قد أرسلنى فى طلبك . . ».

وازداد الناس شغفًا بتتبع الأحداث، إن رجلين كبيرين

عاشا معًا، وحاربا معًا، قد دب الشقاق بينهما، وكل منهما يستطيع أن يتحدى، لكم يحلو للواقفين أن يرقبوا معركة التحدى وخاصة بين علمين من أعلام الحوادث الجسام التى تهز العرب. . وأدرك الجميع عند لقاء الرجلين أن الحادث قد أثار ثائرة أبى سفيان لأبعد مدى، حتى أنه لم يجادل خالدًا فى شىء من الأناة أو المنطق السليم، بل صاح وزمجر، وهدد وتوعد. .».

- «أحق ما بلغنى عنك يا خالد؟؟».

- «أجل. .».

- «واللات والعزى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد. .».

قال خالد: «والله إنه لحق على رغم من رغم. .».

دَوِىّ فى رأس أبى سفيان، وَهَمّ قاتل يمتزج بحقد هائل، وماضٍ رائع من زمالة الحرب والفكر، وحاضر أسود يوحى بالقطيعة والفشل وشماتة الأعداء، ومستقبل غامض تتشابك فيه الرؤى والأحداث تشابكًا لا يبين عن شىء، واندفع أبوسفيان نحو خالد يريد أن يهوى على رأسه ووجهه بقبضته المتشنجة، لكن عكرمة بن أبى جهل يسرع بالوقوف بينهما، ويمنع أبا سفيان من الاندفاع المحفوف بالخطر، وقال عكرمة فى

حزن عميق: «مهلاً يا أبا سفيان فو الله لقد خفت للذى خفت أن أقول مثلما قال خالد، وأكون على دينه. . أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه، وقريش كلها تبايعت عليه. . والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم. . ».

وصاح أبو سفيان كفارس مهزوم مجرد من السلاح، وقد تدلت ذراعاه إلى جواره: «اذهبوا عنى. . لا أريد أن أرى أحداً منكم. . ».

وخرج خالد. . يتبعه الجميع المراقب للأحداث. . ويبقى أبو سفيان مع عكرمة. . قال أبو سفيان وقد أطرق برأسه فى حزن: «أيمكن أن يحدث ذلك؟؟».

- تلك هى الحقيقة يا أبا سفيان. . أنت الذى أدركتها من قبلنا. . ألا تذكر يوم أن حاولنا إقناعك بالهجوم على محمد وأصحابه وهم يسعون بين الأركان؟؟ كنت يا أبا سفيان تدرك حقيقة ما يعتمل فى مكة من أفكار وصراعات. . لهذا عجبت حين رأيتك تحاول الفتك بخالد؟؟».

قال أبو سفيان بصوت خفيض يفيض بالألم: «خسارتنا فى خالد فادحة. . ».

- «أجل. . لكن ثق يا أبا سفيان أننى معك حتى النهاية. . ورجال آخرون قد قرروا أن يصارعوا محمداً حتى يقهروه أو

يموتوا . . ولن يضير المعركة أن يتخلف عنها رجل كخالد . . » .

قال أبو سفيان : «ليت الأمر كذلك . . إلا أنه سيتخلف عنا لينضم إلى أعدائنا . . وخالد أنت تعرف من يكون . . والكارثة أن إسلام خالد قد يكون بداية لموجة من الإسلام . . لسوف يتبعه كثيرون يا عكرمة . . كل هذه الاعتبارات كانت فى ذهنى وأنا أهم بالفتك بخالد . . لم أتخلَّ عن هدوئى وحكمتى . . لكنى على الفور أدركت أبعاد الكارثة التى ستحيق بمكة ومستقبلها حينما علمت بإسلامه . . » .

***

وسرى نبأ إسلام خالد فى يثرب سريانًا سريعًا بعد أن أرسل أفراسًا لرسول الله هدية تقدير وإيمان . . وأخذ الناس يتحدثون فى المدينة كل مساء عن الوافدين من مكة إلى رسول الله ، يبايعونه على الإسلام ويشهدون أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويضعون بين يديه حياتهم وأموالهم . .

□□□

الفصل [٣٤]

على الرغم من أن عبد الله بن أبى كان ذكيًا، صعب المراس، حديد الإرادة، إلا أن كبرياءه الشاذة، وحقده البالغ على محمد، دفعاه دفعًا لأن يتجاهل هزائمه، فلا يعترف بها أو يبررها، ويجعل منها مجرد كبوة تافهة، يتبعها نصر أكيد له ولأفكاره، واندحار لا شك فيه لمحمد ومن معه من المسلمين. . ولهذا وقف حائرًا مدهوشًا عندما علم بنبأ إسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن أبى طلحة حارس الكعبة وغيرهم، إن إسلام هؤلاء الكبار ومن لحق بهم يعتبر كارثة كبرى حاقت بقريش، وفى الوقت نفسه يعتبر قفزة كبرى للأمام بالنسبة للإسلام والمسلمين، لسوف يتبع هؤلاء بكل تأكيد خلق كثير من أهل مكة، ولسوف تسمع القبائل بذلك، فتعيد التفكير فى أمر محمد ودعوته، وستغزو هذه الدعوة الحواضر والبوادى، أى شىء أكبر من ذلك يكون مدعاة لأسى عبد الله بن أبى وتمكن الأحزان من قلبه العليل؟؟

وشىء آخر يثير عبد الله بن أبى ويؤلمه أشد الألم، لقد كانت له اتصالات خفية مريبة مع قريش واليهود، وكثيراً ما عقد بينه وبينهم اتفاقات سرية، وقد يفشى خالد وأمثاله هاتيك الأسرار الخطيرة، فيسوء موقف عبد الله أمام محمد وأتباعه، لا شك أنهم يعرفون نفاقه، لكنه يتظاهر أمامهم بالبراءة، وحسن التصرف، ويعلن دائمًا أنه مسلم صادق الإسلام، وأن معارضته فى كثير من الأحيان لا تخرج عن كونها غيرة على مصلحة الدين، وحرصًا على مستقبل الدعوة الخالدة، لكن خالد وغيره من أولئك الرجال حديثى الإسلام يملكون الدليل المقنع، والوقائع الثابتة التى تدين عبد الله، وتعرضه للعار الأبدى . . بل الموت . . ».

ودخلت زوجه وقالت: «أرجو أن تكون آلام القلب قد زايلتك يا عبد الله . . ».

ابتسم فى وهن وقال: «لا تقلقى من ناحية قلبى، فأنا على يقين من أننى طويل العمر . . ثم أننى لا أرهب الموت . . ».

نظرت إلى وجهه الشاحب، وعلامات الإجهاد والتغضنات المرتسمة عليه، تمتمت: «الأعمار بيد الله، ومهما قلت فإننى قلقة عليك، ومصدر قلقى أنك تتجاهل علتك، وتكثر من التفكير والحركة، وتستعذب الأرق، وفقدان الشهية . . ».

هتف وعيناه الغائراتان تحملقان فى دهشة وضيق: «تتحدثين بأسلوب من ترى زوجها يحتضر..».

ثم رفع هامته، ومط عنقه الذى ازداد نحولاً، وازدادت أوردته بروزًا، ولوح بيديه النحيفتين وهتف: «أنا بخير يا امرأة، ولولا ضيقى وتبرمى بما يحدث فى الخارج، لما بقيت بالبيت لحظة واحدة..».

قالت دونما اقتناع: «إنه لشىء عظيم أن تشعر بالصحة والقوة والأمل..».

وسادت فترة صمت تمتم بعدها: «ألم يأتِ ولدى عبد الله بعد؟؟».

قالت والاهتمام على ملامحها: «ما أظنه يأتى الليلة».

- «لِمَ؟؟».

- «المدينة كلها هرعت ترحب بخالد بن الوليد وابن العاص وابن أبى طلحة.. إنه حدث كبير يا رجل.. قريش تغلى من الغضب، والمدينة كأنها فى عرس عظيم».. قال فى سخرية: «لِمَ كل هذا؟؟».

- «أمرك عجيب..».

هز رأسه وهتف: «إن مكة لم ولن ينقصها الرجال

الأشداء، والعقول الكبيرة. . ثلاثة أسلموا، ماذا فى ذلك؟؟إنه حدث تافه لا يستحق كل هذه الضجة. . ».

نظرت إليه فى استغراب: «دائمًا تفسر الأمور بطريقة غريبة. . ».

- «لأنى أتعمق الأمور، ولا أكتفى بالنظرة العجلى السطحية. . ».

- «أنت تعلم أن خالدًا قائد فرسان قريش، و. . ».

قاطعها قائلاً: «هناك غيره ألف فارس وفارس، ولن تعقم مكة عن إنجاب كثيرين مثله. . ثم. . ».

وصمت برهة، فقالت فى لهفة: «ثم ماذا؟؟».

- «إننى أشك فى الأمر من أوله إلى آخره. . ».

- «كيف؟؟».

قالتها وقد ألم بها حزن طارئ، وألقت بجسدها إلى جواره، فرد: «أخاف أن يكون إسلامهم خديعة كبرى. . ».

- «خديعة كبرى؟؟».

-«أجل. . أيتها الساذجة، أنت لا تعرفين خالدًا، ولا يمكن أن تفسرى تصرفات أبى سفيان. . إن الصراع بين مكة والمدينة صراع غريب، استعملت فيه كل أنواع الأسلحة، ألا يمكن أن

يكون خالد . . وقد أصيب فى أهله على يد المسلمين من قبل، قد جاء يعلن إسلامه ويخفى حقده، لعله يجد فرصة مواتية فيضرب عنق محمد؟؟».

فكرت فيما يقوله زوجها، فانتابها الرعب، وهتفت: «يا للمصيبة!! إن صح ذلك فسيكون كارثة كبرى لا شك . . ».

ثم أمسكت بكم زوجها وهتفت مرة أخرى: «يا للمصيبة!! ولماذا لا نخبر محمداً بذلك؟؟».

ابتسم عبدالله وبدا الارتياح على وجهه، إن زوجه توشك أن تصدقه، وهى قلما تثق فى كلماته أو تصدقها، وأطربه هذا التحول، ففكر أن يزيد من ثقتها بكلامه، واقتناعها بوجهة نظره فقال: «لا يصح التعجل فى أمر كهذا، لابد من بينة، فكيف نلقى بالاتهام فى وجه رجل جاء مسلمًا، وفى وسط هذا الحماس الصاخب؟؟ لا بد من المرقبة والدراسة . . ».

شردت بضع لحظات وقالت: «وجهة نظرك معقولة، لكن ألا يمكن أن تهمس بها فى أذن محمد؟؟».

تنهد وقال: «ليته يثق بى ويصدقنى».

- «إن الرسول لا يغلق فكره أو قلبه دون أحد من المسلمين . . ».

- «إن خلاف الرأى فى بعض الأمور قد أفسد ما بيننا، وأصحاب المطامع قد زادوا النار اشتعالاً.. وقد تركت أمرى لله..».

وأشرق وجه عبدالله الضامر الشاحب بفرحة مباغتة، لو انتشرت أفكاره تلك فستفسد على الناس سرورهم، وستشجب الفرحة الغامرة التى تلوح فى أندية المدينة ومساجدها، ومن ثم يقابلون كل من أسلم بغير قليل من الشك، وتسوء الظنون، وتنفصم عرى الثقة، وتضطرب الأمور ويحجم الراغبون فى الإسلام عن إسلامهم، ولا يتحمس أهل المدينة لمن أتاهم مسلمًا..».

-«الحق يا امرأة أن الحذر واجب، والشك صورة من صور الحذر..».

- «هو ذاك يا عبدالله..».

- «ولسوف أخرج يا امرأة للقاء خالد بن الوليد والترحيب به..».

هتفت وهى لا تكاد تفهم ذلك التناقض: «أمرك يحيرنى..».

ابتسم فى هدوء وقال: «لا تناقض فى الأمر.. يجب أن أبش فى وجهه، وأفسح له فى بيتى وقلبى ألا يجوز أن يهمس

فى أذنى بسره؟؟ لا شك أن التشويه الظالم الذى ألصقه بى بعض الحمقى من المسلمين قد بلغ مسامع أهل مكة، وقد حانت الفرصة للاستفادة من هذا الوضع . . إننى أحب محمدًا، لكننى المحب المبصر الذى يفتح عينيه جيدًا، ويفكر باستمرار من أجل حماية الدعوة . . وليتهم يفهمون ذلك . . ».

قالت فى سرور: «يا لك من رجل طيب!!».

- «الثواب عند الله يا امرأة . . ».

لم تفكر فى منعه من الخروج، ولم تثر فى وجهه خوفًا على صحته المنهارة، وإنما أخذت بيديه، وقلبها يخفق، ودعت له بالتوفيق ورضا الله، وأكدت له أن رسول الله عندما يعلم هذه الحقائق، فسيثنى عليه ثناء عاطرًا، ويعده بالجنة . .

وقال لنفسه دون أن يسمعه أحد: «لو لم يكن هناك غير جنة محمد لآثرت العودة إلى الجحيم عن طيب خاطر . . ».

ومضى فى طريقة، الناس يَزْوَرّونَ عنه، والعيون ترمقه فى احتقار وازدراء، وفرحة الناس فى الشوارع لا يمكن أن يطفئها حاقد أو مشكك، وموكب الحياة الجديدة الشريفة يتدفق فى كل مكان، لا تستطيع قوة أن تقهر تدفقه، أو تحد من انطلاقه . . اقترب عبدالله بن أبى من خالد بن الوليد فى باحة المسجد: «حياك الله . . نزلت أهلاً وحللت سهلاً . . ».

يا للكارثة!! إن خالداً يهز رأسه هزات خفيفة، لكن فى عينيه وعلى وجهه علامات يعرفها عبد الله جيداً.. لكأنما أصبح خالد واحداً من أهل المدينة، بل يبدو وكأنه يعيش بينهم من سنين طويلة، ونظراته تحمل المعنى نفسه الذى رآه فى عيون السائرين فى الشارع، والمحيطين بمحمد.. وتفرس عبد الله فى وجه خالد باحثًا عن ثغرة ينفذ منها، لكنه صد عنه..

- «والمدينة كلها سعيدة بإسلامك يا خالد..».

- «وأنا أكره النفاق..».

لكأنما هوت صفعة على وجهه الذابل الشاحب، أو انبثقت بصقة إلى جبينه الضامر، ودارت به الأرض، وشعر بالاختناق إن آلام القلب تعاوده، ليته ما خرج، لشد ما يكره الجميع.. سواء فى ذلك من قدم إلى المدينة، أو من يعيش فيها من سنين.. أنفاسه تتلاحق فى صعوبة، وعيناه تجحظان.. والعرق يسيل.. لماذا يبقى فى المسجد؟؟ من الخير له أن يأوى إلى بيته.. إن الوحدة رائعة.. وفى وحدته يحلم بعالم من صنع أفكاره السوداء.. ذلك العالم الخيالى يرى عبد الله فيه مناوئيه وأعدائه يتساقطون تحت وقع سيوف وهمية.. ويرى دماءهم تسيل، ويرى ما بنوه ينقض فوق رءوسهم.. ويظل سادراً فى أحلامه وخواطره السوداء حتى يمتزج الحلم والوهم

بالحقيقة، فتضطرب الصورة ولا يكاد يبين شيء ويخيم ظلام من نوع غريب، وهذا الظلام تهدأ روحه، وتنجاب عنه بعض الهموم والهواجس.. وعندما سألته زوجه عما حدث صرخ محتداً: «اللعنة على الجميع.. لا تحدثيني عن ذلك الأمر مرة أخرى».

◻◻◻

الفصل [٣٥]

محفل الحاقدين . . ذلك الذى تجمع فيه عدد من الرجال قد أبرموا أمرهم، واستقرت عقائدهم نهائيًا على رفض دعوة محمد، واستنكار أى تفاهم معه، والعمل بدأب وإصرار على إتلاف «صلح الحديبية» دون نظر إلى عواقب الأمور، هؤلاء الرجال لا يهمهم أمر الناس، ولا سلام مكة، ولا تأمين طريق التجارة إلى الشام، لا يفكرون فى نصر أو هزيمة وإنما همهم الأكبر أن يحملوا السلاح، ويضربوا . . ويقتلوا عددًا من المسلمين، ويعكروا صفو الهدنة بين مكة والمدينة، ومن هؤلاء الرجال عكرمة بن أبى جهل والحويرث ووحشى قاتل حمزة، ومعهم أيضًا هند زوجة أبى سفيان . . وآخرون غيرها وغيرهم . . وخاصة بنى بكر الذين انضموا إلى قريش عند توقيع صلح الحديبية . . ومحفل الحاقدين هذا لا يمل من التفكير، باحثًا عن منغصات لتعكير الصفو بين مكة والمدينة، وتحريض الناس على أبى سفيان وأفكاره، وفى الوقت نفسه

كانوا يرقبون تحركات المسلمين، ويتنسمون أخبارهم، لعلهم يجدون ثغرة ينفذون إليهم منها، أو يقعون على فرصة مناسبة، كى يحرضوا مؤيديهم على الهجوم.. لشد ما انتابتهم الحيرة، واستولت عليهم الدهشة حينما علموا أن محمداً قد أرسل جيشًا لغزو الشام!! إذا كان محمد قادراً على غزو الشام وقبائل شمال الجزيرة، فمعنى ذلك أنه يملك قوة خارقة يمكنها التصدى للروم.. ومن يقدر على التصدى للرومان، فلن تعجزه مكة.. وهرولوا إلى أبى سفيان، يسوق الرعب خطواتهم: «يا أبا حنظلة.. إننا لا نكاد نفهم معنى لاتجاه محمد صوب الشام، أيناجز الروم وجيوشهم تعد بمئات الألوف؟؟».

قالها عكرمة، والرجال من حوله صامتون يتلهفون على سماع فصل الخطاب.. لكن الحويرث اندفع قائلاً: «إن الغرور سوف يقضى على المسلمين، لقد أسكرتهم انتصارات صغيرة حققوها فى مجال السلم والحرب، فظنوا أنهم قادرون على قهر «هرقل».

هزت هند كتفيها وقالت ساخرة: «إذا كان صناديد قريش، وأبطال مكة، قد لاذوا بالصلح المحزن، وألقوا السلاح وجبنوا عن مواصلة المعركة، فلماذا يخاف محمد من شباب الروم ذوى الطراوة والخنوع؟؟ وتدخل وحشى قاتل حمزة قائلاً:

«واللات والعزى لئن انتصر محمد على الروم، فلن تستطيع قوة فى الجزيرة العربية كائنة ما كانت أن تتصدى له . . ».

وهتفت هند غاضبة: «لو كنتم رجال حرب ودراية، وحنكة، لأسرعتم بجيش كبير وانقضضتم على «يثرب» الآن، إن رجلاً يحارب الروم، ويصطدم فى الوقت نفسه مع حشود مكة، لا بد أن تحيق به الهزيمة . . لكنكم للأسف لا تعرفون كيف تنتهزون الفرصة، لقد قلت لكم مثل هذا الكلام حينما هاجم محمد خيبر لكنكم أضعتم الفرصة الذهبية التى ستندمون عليها طول العمر . . ».

وأخذ أبو سفيان يستمع إلى جدلهم الصاخب وحيرتهم الظاهرة وقلقهم البادى على وجوههم ونبراتهم، وأخذ يسدد إليهم نظرات صامتة، هل جاءوا ليستمعوا إليه أم ليرسموا له السياسة التى ينتهجها، ويوجهه الوجهة التى يريدون؟؟ وتنهد أبو سفيان ثم سعل، وساد صمت مفاجئ، واتجهت إليه الأنظار هل سينصفهم هذه المرة، ويلبى نداءهم وينهض إلى الحرب، أم يتعلل بالتعليلات الفارغة عن مصالح الناس، وشرف الحفاظ على العهد، والانتظار حتى تنجلى الأمور؟؟ لئن سار أبو سفيان على هذا المنوال، واعتصم بالخوف والحذر الذى هو الجبن بعينه، فربما يأتى يوم ويقول لهم: إن أعظم حل هو الاستسلام لمحمد، هو اتباع دعوته . . من يدرى؟؟ إن أبا

سفيان ينحدر، ويفقد حماسه؛ ويتخلى عن حقده المقدس كلما تقدمت به السن، وكلما حقق محمد مزيداً من الانتصارات. . ».

وأخيراً رفع أبو سفيان رأسه، حدق بعينيه الواسعتين وقال: «استمعوا إلىّ جيداً أيها الرجال. . لا تظنوا أننى أقل حقداً منكم على محمد، وثقوا أننى أتعجل اليوم الذى نستطيع فيه أن نحطم ملكه، وندمر بناء العقيدة الذى شاده، وليس لى فكر أو سياسة تتجه غير هذه الوجهة. . تلك حقيقة لا مراء فيها، ولا يصح أن تفسروا تريثى ورويتى بالجبن والتقاعس، ما قيمه معركة بلا نصر؟؟ وما معنى أن نحشد جنودنا وندفعهم إلى هاوية سحيقة من الدمار والفناء؟؟ إن هدفنا لا يصح أن يكون مجرد الحرب. . الحرب وحدها ليست غاية. . إنها وسيلة لشىء كبير ننشده جميعاً. . أعنى أن نقهر عدونا لنقضى على قيمه، وتبقى لنا مبادئنا وتقاليدنا وديننا. . أما أن نحارب ونحارب. . ولا شىء غير ذلك فهو الغباء بعينه. . ».

انتفضت هند قائلة: «هذا بداية الدعوة إلى الخمول والاسترخاء. . عندما أراك تفلسف الأمور يا أبا سفيان أشعر أن ذلك مقدمات الاستسلام والنكوص، إننى أعرفك جيداً. . ».

لم يعلق أبو سفيان بكلمة، وإنما استطرد فى حديثه قائلاً: «أيها الرجال.. كلنا يعرف من هو محمد، إن لم نكن قد استفدنا من عشرات الأحداث التى مرت، فلن نكون جديرين بحمل لواء العداء ضد دعوته.. لن تستطيعوا مهما قلتم أن تقنعونى بأن محمداً قد ساق جيشه إلى مهلكة فى أرض الشام.. أيسعى إلى الموت بقدميه؟؟ هذا مستحيل.. بل لقد تأكدت من أنه لم يرسل سوى ثلاثة آلاف رجل..».

وهتف عكرمة فى غيظ: «من بينهم خالد بن الوليد..».

فلم يلتفت أبو سفيان إليه، ومضى فى حديثه: «أنتم تعرفون أن أعرابيًا من غسان قتل رسول محمد إلى عامل «هرقل» على «بصرى».. وأن بعضًا من أصحاب محمد قد قتلوا فى «ذات الطلح» شمال الجزيرة.. محمد أرسل جيشه ليعاقب المعتدين.. ولكى يشعر قبائل الشمال وجنوب الشام بأنه قادر على تأديبهم وسحق أى تدبير ضده.. ألم يفكر يهود خيبر فى الاستعانة بالرومان من قبل؟؟.. أتظنون أن محمداً يفكر فى غزو الشام بثلاثة آلاف جندى؟؟.. إن أقل تفكير سيؤدى بنا إلى أن محمداً لم يزل يحتفظ فى المدينة بجيش كبير، وأن مفاجأته والانقضاض عليه فى ذلك الوقت عبث وتخريف..».

انقضت هند على ثلاثة من الرجال الجالسين، وجذبتهم

بعنف، ودفعتهم إلى الخارج، وهى تقول فى ثورة عارمة: «اخرجوا. . ماذا تنتظرون. . إن أبا سفيان لا يرجى منه خير. . إن أردتم أن تردوا اعتباركم، وتحققوا نصراً عاجلاً فابحثوا لكم عن رجل غيره. . اذهبوا أيها الجبناء، وافعلوا ما شئتم ولا تنتظروا موافقة من أحد. . اذهبوا إلى الناس فى الشوارع وخذوا منهم الأمر، فهم عماد الجيش وعدته. . وهم أبعد نظراً من ألف حكيم وفيلسوف. . ».

وقهقهه أبو سفيان، حتى كاد يستلقى على ظهره، فصمت الجميع وتطلعوا نحوه فى دهشة، فانتهز فرصة الصمت وقال: «حسنًا. . لتحتكموا إلى الناس فى الشوارع. . احتكمى إليهم يا هند. . لسوف تصدمين. . غالبية الناس فى الشوارع لا يريدون الحرب. . لماذا تضطريننى يا هند إلى التصريح بما هو أسوأ؟؟ إذا كانت رغبة القتال فى مكة رغبة حقيقية جارفة فلن يستطيع أبو سفيان ولا ألف رجل مثله أن يمنعوا المحاربين من التقدم. . لكنكم تصمون آذانكم عن سماع الحقيقة المرة. . ».

قالت هند وقد احتقنت عيناها من الغضب وأوشكت على البكاء: «إن صح ما تقول، فأنت المسئول عن إماتة روح القتال فى قلوب الرجال بترددك وتقاعسك، وحكمتك الخربة. . ».

وعاد يقهقه من جديد، ثم قال: «القائد بغير الناس لا

يساوى شيئًا . . لن يكون قائداً . . إنه تعبير عن آمالهم وآلامهم، ويوم أن استجبت لرغبات القلة، وأغفلت الكثرة الساحقة تبدد كل شىء . . تحطمت وحدة مكة . . أصبح كل يفكر فى واد غير أودية الآخرين . . المسئولية ليست على عاتقى وحدى . . كان محمد يقول . . وكنا نقول . . وكان محمد يحارب . . وكنا نحارب . . وكان محمد يدير الأمور . . وكنا نديرها لكن لكل جانب طريقته . . واجهنا محمد بحجته القوية، فواجهناه بالسيوف والعسف والتعذيب . . ماذا أقول؟؟ كان الأمر أقوى منى ومنك . . يجب أن نعيد التفكير فى كل شىء . . إن عدونا ليس سهل المأخذ . . وعدونا أصبح يرتكز على أرض صلبة . . لئن سرنا على الأسلوب القديم نفسه فسنخسر ما تبقى لنا . . أيها الرجال . . هل تفهمون كلماتى؟؟».

هزت هند كتفيها فى سخرية وقالت: «لم يفهموا سوى أنك رفعت محمداً إلى أوج السماء، وانحططت بهم إلى الحضيض وبذرت فى قلوبهم اليأس، ورسمت لهم مستقبلاً يجلله السواد والخوف والعار . . ».

وعاد أبو سفيان يقول: «يجب أن نفهم طبيعة الأرض التى نتحرك فوقها، لكنى أؤكد أن الحرب آتية لا محالة، وإن لم نبدأها نحن فسوف يبدؤها محمد . . نحن لم نخسر أرضًا

حتى الآن، لم نزل أحرارًا فى مكة . . الأرض ومن عليها لنا، ليس المهم أن نبدأ الحرب الآن، ولكن المهم أن نعرف الوقت المناسب . . والوقت المناسب لا يحدده وضع عدونا وحده، وإنما يعتمد أساسًا على مدينتنا وأهلها . . يجب أن نشرح للناس الأمر ونغير من تراخيهم، ونقضى على انجذابهم نحو محمد، ونملأ نفوسهم بالأمل . . تلك هى القضية الأولى يا هند . . لقد قال عكرمة يوم أن أسلم خالد: أنتم تقتلون خالدًا على رأى رآه، وقريش كلها تبايعت عليه والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم . . ». . لقد عبر عكرمة عن الحقيقة يا هند . . إن دوركم أيها الرجال ينصب على تغيير فكر الناس، وقطع دابر كل من يبدى إعجابًا أو ولاء لمحمد . . عندئذ نستطيع أن نبدأ المعركة . . وأن نضمن نتيجتها، أما بغير ذلك فلن أحمل لواء حرب، أو أنهض لمعركة فاصلة . . وأنا مقتنع تمام الاقتناع بكل كلمة أقولها . . ».

أطرقت هند صامتة . . وانسل الرجال خارجين، تضطرم رءوسهم بأفكار كثيرة متناقضة، يمضون تائهين لا يدرون ماذا يفعلون، لكأنما انسدلت على عيونهم غشاوة، فلا يستطيعون أن يميزوا ما ينتصب أمامهم أو من حولهم، يتخبطون كسكارى، وتزوغ نظراتهم كمجانين . . وصرخ الحويرث: «الموت ولا هذا . . ».

لكنه عكرمة مازحًا: «سيأتيك لا محالة..».

- «أبو سفيان يتخبط يا عكرمة، ويناقض نفسه، أنا لا أعرف هل يدعونا إلى الاستسلام أم يحرضنا على الحرب؟؟ هل يريد أن يقول: إن محمداً على حق أم على باطل؟؟ هل يثق فى النصر أم يتوقع الهزيمة؟؟ بئس القائد هو!!».

ومرت الأيام ثقيلة بطيئة الخطى، وقريش تتحسس الأخبار عن جيش محمد فى الشام حيث يخوض معركة «مؤتة» فى مواجهة مائة ألف جندى أو ضعف هذا العدد، وأخيراً عاد جيش محمد إلى المدينة بعد أن استطاع خالد بن الوليد أن يحاور ويداور وينجو بالآلاف الثلاثة من بين براثن مائة أو مائتى ألف جندى هى جيش الرومان.. لم ينتصر الرومان حربيًا، ولم ينتصر المسلمون حربيًا.. لكن أبا سفيان علق قائلاً: «إن عودة المسلمين سالمين لهو النصر بعينه.. إن قبائل الشمال سوف تفكر ألف مرة قبل أن تغدر مرة أخرى بالمسلمين، والرومان لن يجازفوا بقواتهم وشرفهم فى عرض صحرائنا الملتهبة.. وهذا ما يريده محمد من غزوة «مؤتة».

وتمتم الحويرث بينه وبين نفسه: «أين أنت يا لؤلؤة؟؟ يا نبع الماء العذب البارد، ومطفئة ظمأ القلب المعذب الحران؟؟ لسوف أذهب إليك على جناح السرعة..».

□□□

الفصل [٣٦]

تمطت فى كسل، وفتحت عينيها على الضوء الباهت الذى يتسلل بصعوبة من الكوات الصغيرة المغطاة بستائر قاتمة بالية، وسألت لؤلؤة خادمتها فى ضيق: «ما الذى أتى به الآن؟؟؟».

- «أنت تعرفين الحويرث، إنه يأتى دائمًا فى أى وقت يشاء..».

وفكرت لؤلؤة أن تمتنع عن مقابلته، وتركن للهدوء والنوم، وتستمرئ ما هى فيه من كسل، وعدم اكتراث؟؟ لكنها تشعر دائمًا أنها فى حاجة ملحة إلى رجل أو رجال إلى جوارها، هى تكره الفراغ، وتحب الثرثرة، وتقدس العبث، بل إنها فى بعض الأحيان تعتقد أن النوم وسيلة من وسائل تضييع الوقت، وابتزاز قسم من عمرها بدون حق، لكنه ضرورة، وسلطان قاهر لا تستطيع الإفلات منه، وأدركت أنها منذ الأمس تشعر بملل قاتل، فهتفت بخادمتها: «حسنًا.. دعيه يدخل».

كل شيء تعرفه عنه، حياته، أفكاره حديثه عن زوجه وثورته على محمد، وقلقه البالغ على مستقبله المهدور، يبدأ عادة بحديث متوتر، وسخط على رجالات مجة، وحنق على أفكار المسلمين، وإبانة عن عجزه، ويأسه أو محاولة لخديعة نفسه فيحلم بالنصر، ثم يقبل على كئوس الخمر فى نهم بالغ، يسرع إليها كما يفر الطفل إلى حضن أمه عند الروع، أو كما يلهث الغريق نحو غصن جاف تتقاذفه الأمواج، ظنًا منه أن فى هذا الغصن نجاته، وما إن تمتلئ معدته بالشراب وتتجمع أبخرة السكر فى رأسه حتى يستحيل إلى حيوان. . إن أسعد وأحلى لحظات عمره هى فترة الحيوانية تلك. . ليته لا يفيق منها. . ذلك هو الحويرث. . عندما دخل شمل الغرفة بنظراته القلقة وهتف: «قولى ما شئت، وارمينى بأية صفات سيئة. . قولى عنى مجرد من اللياقة والخلق. . فأنا لا أستطيع الابتعاد عنك مهما كان الأمر. . ».

ابتسمت وهى لم تزل مضطجعة فى فراشها: «لم أقل شيئًا من هذا. . ».

- «ماذا أفعل وقد أحاطت بى الهموم من كل جانب. . ».

- «هل جد جديد يا حويرث؟؟».

- «استطاع محمد أن يجابه الرومان وأن يعود جيشه سالمًا. . لا أقول إنه انتصر لكنه حاور وداور. . هذا محمد،

لكن أبا سفيان مازال يتخبط فى مستنقع الخوف والتردد. إنه يسمى ذلك روية وحنكة..».

قالت دون أن يزايلها مللها: «محمد يفكر دائمًا فى النصر، وأنتم تتمرغون فى أوحال الخوف من هزيمة لم تحدث لكم بعد..».

قال وقد خفق قلبه: «نحن لا نخاف.. لكن القادة أغبياء..».

قالت فى إصرار: «أنتم خائفون..».

- «كيف؟؟».

- «لو كنتم شجعانًا حقًا لأثرتم معركة ذات شعبتين: واحدة مع محمد والأخرى ضد قادتكم المترددين.. لكنكم لا تختلفون عن أبى سفيان فى شىء..».

وصمتت برهة ثم استطردت: «النصر عند محمد أكيد، قد وعده الله به، لا شك فيه، والهزيمة عندكم أمر واقع تدور من حوله أفكاركم وتصرفاتكم، لماذا تحاولون الكذب على أنفسكم وعلى الناس؟؟».

نظر إليها بعيون دهشة وتمتم: «تنطقين بالحكمة يا لؤلؤة..».

واستندت على ذراعها، وجلست فى فراشها، وقالت: «أنا لا أفكر فى شىء سوى المال والمتعة.. إنهما غاية كل حى حسبما أعتقد، وإن حاول البعض التستر وراء مبادئ براقة.. فإذا ما تحقق لى هذا المطلبان فى أية أرض، أو أية ظروف فسأشعر بالسعادة التى أشعر بها الآن.. وما ثورتى على محمد إلا خوفى من ضياعهما.. حسنًا.. يجب أن تحددوا بالضبط ما تريدون كما حددت أنا هدفى، عندئذ تستطيعون أن تخطوا الخطوة الأولى الحاسمة نحو تحقيق آمالكم..».

هتف فى حماس: «هذا ما أؤمن به الآن أعمق الإيمان..».

وابتلع ريقه قائلاً: «ولسوف تنشب المعركة عن قريب..».

قهقهت قائلة: «أحلام..».

- «واللات والعزى لنشعلنها حربًا ضروسًا لا هوادة فيها».

- «ما أكثر الكلام، وما أقل الأعمال».

تمتم: «لقد جف حلقى، واستبد الظمأ بروحى..».

صفقت بيديها، وأمرت الخادم بإحضار بعض الطعام والشراب، ثم تنهدت قائلة: «ليس فيكم عدو واحد عاقل...».

قال: «وما هو العدو العاقل يا لؤلؤة؟؟؟».

- «هو الذى يشمل الموقف كله بنظرة فاحصة كبيرة، ثم يتصرف عن روية، وتنبعث تصرفاته من مبدأ عظيم، وينظر إلى الأمام مركزًا على هدف أعظم. .».

قال فى دهشة: «كلنا ذلك الرجل. .».

قالت مقهقهة: «كلكم مثلى. . أهدافكم محدودة. . حصونكم مهددة من الداخل والخارج. . ترتكزون على انفعالاتكم الطارئة. .».

قال فى حزن: «لو كنت أملك مصير هذا البلد لفعلت المستحيل، ولأرينك كيف يكون النصر والعزم. .».

عادت تقهقه: «لو كنت القائد لاختصرت المعركة لأقصر وقت ممكن. . لصالح المسلمين بالتأكيد».

شحب وجهه، واغرورقت عيناه وقال: «ألا تثقين فىَّ يالؤلؤة؟؟».

- «أتريد الحق؟؟».

- «أجل. .».

- «أنا لا أثق فى أحد. .».

- «لكنى أثق فيك يا لؤلؤة. .».

- «هذا شأنك . . » .

- «إن مصيبتى هى ألا أجد من يفهمنى . . » .

- «المصيبة أنك واضح تمام الوضوح، وليس وراءك شىء ذو قيمة . . » .

اهتاج قائلاً : «أنت تسخرين منى . . » .

- «بل أحاول توضيحك أمام نفسك . . » .

- «هذا ظلم . . » .

- «كلنا الحويرث . . فما الذى يحزنك؟؟» .

وقهقه هو الآخر فجأة، فقالت : «لم تضحك ياحويرث؟؟» .

- «لأنى أراكم جميعًا حكماء وفلاسفة، ومع ذلك فلم أجد من يرسم طريق الخلاص من محمد وأفكاره الخطرة . . » .

ابتسمت وقالت : «لقد حدثتك عن ذلك منذ لحظات، لكنك سريع النسيان . . » .

وكفت عن الحديث برهة، ثم عادت تقول : «قد يكون للحديث مذاق آخر، عندما تتجرع الخمر . . » .

طعام وشراب، وأكواب متراصة، ونهم بالغ، وأحاديث

مضطربة من هنا وهناك، حتى أصابهما السكر، فأخذ الحويرث يتكلم فى الوقت نفسه الذى تتكلم فيه لؤلؤة، وكل واحد يظن أن الآخر يستوعب الكلمات ويفهمها، والأدهى من ذلك ظنهما بأن الكلمات معقولة ومشبعة، وأن فيها فصل الخطاب، ثم يذوب هذا الضجيج فى أتون العبث والمجون.. ولم يعلق فى ذهن لؤلؤة سوى بضعة أسماء.. بنو بكر.. خزاعة.. محمد.. الفتنة.. الحرب.. الثأر..

وبعد وقت لا يدرى الحويرث طال أم قصر قال: «متى نحن الآن يا لؤلؤة؟؟».

رفعت رأسها صوب الكوات الصغيرة وقالت: «لا أدرى.. ليلنا ونهارنا شىء واحد.. وماذا يضيرنا أن تشرق الشمس أو تغيب؟؟».

قال الحويرث: «يجب أن نعرف الليل من النهار.. إحساسنا بالزمن أمر لا مفر منه، وإلا فاجأتنا الأحداث، وضاع كل شىء..».

- «إننى أكره القيود يا حويرث.. أريد أن أنطلق غير عابئة بزمان أو مكان..».

- «وأنا أنظر إلى الأيام فى رعب.. إنها كالأجراس

الصاخبة التى تدق فى سمعى كالمطارق الرهيبة، وكأنها تقول لى: تنبه يا حويرث.. الأيام تنقضى يا حويرث.. أنت تخطو إلى النهاية يا حويرث.. هذا حقيقة شعورى يا لؤلؤة..».

قالت وهى تسوى خصلات شعرها المتناثرة: «إذن فقد أشرفت على الجنون يا حويرث..».

انفجر الحويرث باكيًا، ثم وضع رأسه فى حجرها، وأخذ يشهق، لشد ما تأثرت لمظهره هذا المحزن، وفكرت فى أن تفعل شيئًا يضع حدًا لهذا الانهيار المباغت فصرخت وهى تدفع رأسه فى شىء من العنف المفتعل: «إننى أكره الضعف فى الرجال..».

شعر بالخجل، وأخذ يجفف دموعه. ثم ابتسم.. واعتذر..

□□□

الفصل [٣٧]

أصبح الصباح، وأفاق عكرمة من نومه مبكراً على الرغم من أنه لم يأوِ إلى فراشه إلا قبيل الفجر. لقد استقر رأى عكرمة بن أبى جهل على قرار نهائى لا رجعة فيه، فإما أن يرضخ أبو سفيان لأمره، وإما أن ينتزع زمام القيادة من يده، وعكرمة يعلم أن قهر أبى سفيان أمر عويص، ولا يعنى بانتزاعه القيادة منه خلعه تمامًا. . لا. . إنه يعرف ما يريد، ستكون زعامة أبى سفيان زعامة اسمية، وسيكون عكرمة هو القائد بالفعل، لمَ لا؟؟ إنه يمثل ثورة الشباب الساخط، ويحمل لواء العداء الذى لا يخمد ضد محمد ودعوته، أما قرار عكرمة النهائى فهو الصدام السريع مع محمد بأى ثمن، سواء رضى أبو سفيان أو لم يرضَ، وسواء أدى الصدام إلى كارثة مروعة أو نصر عزيز، إن السكوت والاعتصام بالسلام الآن معناه الهزيمة لقريش، فليخض عكرمة الحرب، وعلى أسوأ الاحتمالات فلن يرجع بغير الاندحار، وهو عين ما

تنتظره قريش بصمتها واستمساكها بصلح الحديبية، وأدركت «أم حكيم» زوج عكرمة ما يعتمل فى رأس زوجها، إنها ترى فى عينيه الشرود، وتلمح على وجهه القلق، وتتوشح نبراته بحزن وألم ظاهرين. .

– «أراك يا عكرمة مهمومًا أكثر من أى وقت مضى. . ».

– «لقد قتلوا أبى، و. . ».

قاطعته قائلة: «كان ذلك منذ زمن مضى. . ».

– «إن مرور الأيام لا يزيدنى إلا إصرارًا فى طلب الثأر من محمد وصحبه. . ».

قالت مستنكرة: «ليس معنى ذلك أنك تنوى نقض صلح الحديبية. . ».

– «العكس هو الصحيح. . ».

– «وامصيبتى!! لسوف يلومكم العرب، وسيجدها محمد فرصة للنيل منكم، وبهذا ينفض من حولكم الأنصار، وتخوضون الحرب وحدكم والنتيجة لن تكون فى صالحكم».

قال فى عناء: «لقد كدت أن أستسلم لرأى أبى سفيان، لكنى أدركت أن ذلك منتهى الحماقة والعار. . ».

– «ما معنى ذلك؟؟».

- «معناه أننا نجلس جبناء فى انتظار الهزيمة . . » .

- «لكن محمداً لا يغدر بعهده» .

-«لأن ذلك يكون دائمًا فى صالحه . . » .

- «بل لأنه وفى أمين . . » .

اربد وجهه وصاح : «المهادنة معناها مزيد من الأنصار يهرولون إلى محمد . . الناس يفرون إليه تباعًا . . وسيأتى يوم لا يبقى فى مكة سوى فئة قليلة، لا يمكنها أن تشعل حربًا، أو تحقق غاية . . أى زوجتى . . لقد نظرت فى الأمر جليًا، ودرست كل الاحتمالات . . ما دامت الهزيمة آتية، فلم لا نجعل محمداً يدفع الثمن غاليًا . . ومن يدرى؟؟ قد تتحول الهزيمة إلى نصر بالنسبة لنا . . » .

وابتلع ريقه ومضى فى حديثه قائلاً : «لا بد أن نغامر ياعزيزتى . . » .

قالت فى ارتباك : «غامر اليهود، فضاعوا . . وغامرت قبائل عدة تمردت ضد محمد، فأصبحت تحت أمره، واستسلمت له . . وغامرتم أنتم فلم تجنوا سوى قبض الريح . . » .

قال فى سخرية : «وماذا تقترحين يا أم حكيم؟؟» .

- «الالتزام باتفاقية الحديبية . . ».

- «قولى صراحة . . تقصدين التسليم . . ».

وصمت برهة ثم قال: «الحقيقة أننى لا أغامر عن حماقة . . قد تبدلت الأحوال، وانكشف الغطاء عن زيف كبير . . لقد حاول المسلمون أن يغطوا على هزيمتهم وفضيحتهم فى «مؤتة تلك المعركة التى ساقهم الغرور إليها كى يجابهوا الرومان . . أتدرين ماذا حدث؟؟ لقد استقبلت «يثرب» جيشها العائد وهى تعفر وجه الجند بالتراب ويقولون لهم: يا فرار فررتم فى سبيل الله» لكن محمداً حاول أن يغطى على الهزيمة بقوله: «هم الكرار إن شاء الله . . ».

الحقيقة هناك على ألسنة الناس فى شوارع يثرب . . لقد هزم المسلمون فى مؤتة هزيمة نكراء، وفقدوا ثلاثة من كبار قادتهم، وعدداً كبيراً من جنودهم، وفقدوا الهيبة لدى قبائل الشمال، وكذلك القبائل القريبة من يثرب . . هذا ما أدركناه بالأمس، ولذا أرى أن أنسب فرصة لنقض الصلح مع المسلمين هو هذا الوقت . . ».

قالت أم حكيم: «أخاف أن تكون الصورة التى تصورها الآن من صنع الفاسدين الذين يبغون الوقيعة . ثم كيف تنقض الاتفاقية؟؟ إن الناس فى مكة وعلى رأسهم أبى سفيان لن يمكنوك من ذلك مطلقًا . . ».

قال عكرمة وهو يصر على أسنانه فى غيظ : «لسوف ننقض الاتفاقية بطريقة خبيثة لن يفطن إليها أحد . . » .

- «كيف؟؟ » .

- «ستعرفين كل شىء غدًا . . » .

تشبثت بثيابه ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وهتفت : «عكرمة . . ارحم عذابى . . لا أريد أن أفقدك . . الدماء تقود إلى الدماء ، وليس وراء الحرب إلا الدموع والأحزان مهماكان النصر رائعًا . . آه . . أنت لا تدرى . . وما قيمة النصر بالنسبة لامرأة تكون قد فقدت زوجها أو ولدها . . إن مئات القصائد وعشرات الطبول ، لن تجفف دموعها الغالية . . » .

انتزع ثيابه منها فى عنف وحنق وقال : «تبثين فى قلبى اللوعة والخوف ، مع أن النساء فى «يثرب» يودعن أزواجهن بالزغاريد والأراجيز . . ويبشرنهم بالاستشهاد فى سبيل الله ، والجنة ، ويحرضنهم على الموت . . آه لقد فسد كل شىء فى مكة ، وأصبحت النسوة يحذرن أزواجهن من التضحية فى سبيل الشرف والكرامة . . » .

ومضى عكرمة خارجًا . .

إنه يدق الأرض بخطوات قوية ، تنبى عن عزيمة صلبة ، وإرادة لا تلين ، لن تستطيع قوة فى الوجود أن تمنعه من تنفيذ

مخططه مهما كان الثمن، وهو يعتقد أنها الفرصة الأخيرة التى لن تكون هناك فرصة بعدها، لسوف يلتقى بصفوان وسهيل والحويرث ووحشى بن حرب وغيرهم من أئمة العناد والحقد، وهناك سيدبرون كل شيء وغداً تحتشد الحشود، ويشتعل أوار الحرب، ليحترق فى جحيمها كل عناء وخوف وعذاب. . الحرب هى الدواء ولاشيء غيرها. . وتذكر عكرمة. . كيف يواجه خالد بن الوليد؟؟ بالأمس كانا يحاربان جنبًا إلى جنب وغداً يرفع كل منهما سيفه فى وجه صاحبه، أليس غريبًا أن تمضى الأمور على هذا النحو الذى لم يكن يتصوره؟؟ لا شك أن محمداً مزود بقوى غيبية مهولة، حتى يستطيع أن يفرق بين المرء وبنيه، وبين الصديق وصديقه، كيف يكون أبو بكر الرجل الأول بعد محمد فى حين أن أباه أبا قحافة العجوز لم يزل كافراً؟؟ وكيف تكون حبيبة بنت أبى سفيان زوجة للرسول. . وأبوها قائد قريش فى حربها ضد المسلمين؟ وكيف تفر الزوجة عن زوجها وتهرع إلى محمد مؤمنة بدعوته، أو يترك الزوج زوجه وبيته وماله، معتنقًا الإسلام؟؟ إن الانتظار على المسلمين بعد ذلك يعد من أكبر الحماقات، ولن تسوء الحال أكثر مما هى الآن. . ».

وأخيراً التقى عكرمة برفاقه فى محفل الحاقدين. . إنه لقاء مشبع بالتوتر والإصرار والفرحة الشيطانية، فى هذا المحفل

يعبر الرجال عن نفوسهم الحاقدة دون أية مواربة، ويطلقون العنان لعواطفهم المنحرفة، ويسقطون كل القيم الشريفة التى درج عليها العرب، هم يعلمون أن نقض العهد جريمة وعار، لكن الحقد يحتقر كل مواصفات الشرف والكرامة، ويدركون أن تحركهم قد يجر الوبال على البلدة كلها لكنهم لايفكرون فى مصالح الناس بقدر ما يستجيبون لنزواتهم . .

وكانت خطتهم واضحة لا غموض فيها . . فالمعروف أن صلح الحديبية، قد أعطى الحق لأية قبيلة أن تدخل فى عهد قريش أو عهد محمد، وقد اختارت «خزاعة» أن تدخل فى حلف محمد، أما عدوتها قبيلة «بنى بكر» فقد دخلت فى حلف قريش، وكان بين خزاعة وبنى بكر ثارات وعداوات قديمة لم يهدأ أوارها . . واستطاع «عكرمة بن أبى جهل» ورفاقه، أن يوقعوا بين القبيلتين ويحرضوهما على الحرب، لكن خزاعة التزمت بعهدها، ورفضت الصدام، أما بنو بكر فقد استطاع الحاقدون أن يثيروا أحقادهم الدفينة، ويغروهم بالمعونة، وقدموا إليهم المال والسلاح، فما كان من بنى بكر إلا أن انقضوا على «خزاعة» عند ماء لهم يقال له «الوتير» وقتلوا منهم . . وهكذا نقضت بنو بكر العهد بتحريض من حلفائها . . ولم تحاول خزاعة أن تجاريهم فى عدوانهم، بل أرسلوا رجلهم «عمرو بن سالم» إلى الرسول سراً، وقال عمرو بن سالم وهو

يركب ناقته معولاً على السير إلى «يثرب»: «هذا يوم له ما بعده . . ولن يردنى محمد خائبًا . . ».

وهز الحدث الكبير أرجاء مكة . . وخرج الناس إلى الشوارع يستقصون الأخبار . . وعلا الضجيج، واختلطت التساؤلات والتكهنات، وكان رجال بنى بكر يجوبون الأنحاء فى سلاحهم وغرورهم، محاولين إظهار شجاعتهم، بينما أوى القوم من «خزاعة» إلى ديارهم فى انتظار كلمة الرسول، وكاد عكرمة ورفاقه يطيرون من الفرح، وهتف عكرمة: «فليأتِ أبو سفيان اليوم، ليرى لمن تكون القيادة . . ».

قال وحشى بن حرب: «إن أخوف ما أخافه أن يثير أبوسفيان الناس ضدنا، ويحرضهم علينا إرضاء لمحمد، وإشارة لتمسكه بالعهد . . ».

قهقه عكرمة قائلاً: «لقد أفلت الزمام من يده، ولن يستطيع أن يفعل شيئًا، لئن استطاع أن يكبح جماح مكة، فلن يكون فى مقدوره أن يسكن غضبة المسلمين . . ».

وأخذ الحويرث يرقص طربًا ويقول: «لقد تحققت الآمال، ونجحت الخطة، ولن يستطيع أى إنسان كائنًا ما كان أن يسكت نداء الحرب . . المهم أن نبدأ فى إعداد العدة ليوم له ما بعده . . ».

عندما بلغت الأنباء أبا سفيان غلى الدم فى عروقه، واحتقن وجهه، وأخذ يعبث بلحيته فى عصبية، ويصر على أسنانه فى غيظ، ويردد فى ألم: «وما العمل الآن؟؟».

جذبته هند من كمه وهتفت به فى غيظ: «العمل واضح.. وهو ألا تضيع دقيقة واحدة إلا فى الاستعداد للمعركة، وإلا فاجأتك الأحداث وأنت فى غفلة..».

صرخ فى حدة: «لا..».

قالت فى استغراب: «ماذا سنفعل إذن؟؟».

- «سأشد الرحال إلى يثرب».

- «هل جننت؟؟».

قال دون أن يعيرها أدنى اهتمام: «لسوف أذهب إلى محمد، وأعتذر له عما حدث، وأعترف له بأن ذلك كان فى غفلة منى، وأبدى استعدادى لدفع الديات.. ثم أطلب منه أن يمد فترة الصلح لسنوات أخرى..».

دقت على صدرها فى دهشة وقالت: «أى عار وفضيحة تعرض نفسك لهما يا أبا حنظلة!!».

قال بهدوء وهو يطأطئ رأسه فى أسى: «لن ألقى بقريش إلى أتون معركة لا خير فيها، لو كنت واثقًا من النصر الآن لما

ترددت لحظة فى سوق الجنود إلى يثرب . . الحرب الآن حماقة كبرى يا امرأة . . » .

وهرول الحويرث إلى بيت لؤلؤة ، ودفع الباب فى رعونة ، وهتف وهو يراها ملقاة على فراشها نصف عارية : «جئتك بأروع الأنباء . . » .

- «ألقِ ما لديك دفعة واحدة ، فأنا لا أطيق الصبر . . » .

قال وهو يلهث : «قتلت بكر عدداً من رجال «خزاعة» فنقضت الاتفاقية ، ونحن الآن على أبواب حرب . . » .

هبت من فراشها ، وفغرت فاها دهشة وقالت : «أتنتظرون أم تذهبون للقاء محمد فى عقر داره؟؟» .

- «بل سنذهب إليه . . » .

- «متى؟؟» .

- «متى . . متى . . لا أدرى بالتحديد ، لكن الأمر لن يستغرق بضعة أيام . . » .

ثم أضاف فى فخر : «كنت أنا أحد الذين صنعوا الأزمة ، وأشعلوا الفتنة ، ولم يكن هناك طريق آخر ، نظراً لإصرار أبى سفيان على الالتزام بصلح الحديبية . . » .

عادت ، ومددت جسدها اللدن على الفراش ، وقالت دون حماس :

«ليس هذا وقت الفرحة . . » .

- «متى يكون ذلك يا لؤلؤة؟؟ إن الأمور تمضى حسبما نهوى . . » .

شردت لحظات، ثم قالت: «متى . . متى . . لا أدرى بالتحديد . . لكن ستكون الفرحة الكبرى عندما تحمل الركبان إلينا نبأ انتصاركم . . » .

اقترب منها ككلب يسيل لعابه وتمتم: «أليس لى من جائزة هنا لهذا النجاح المبدئى؟؟» .

قالت وهى تبتسم: «اترع ما شئت من خمر . . » .

- «الخمر وحدها لا تطفئ ظمئى . . » .

قهقهت فى خلاعة: «وترع ما شئت منى . . » .

وأخذ الحويرث يغوص فى أوحاله، بينما الناس فى شوارع مكة يصخبون ويلقون باللوم على رجالات بنى بكر، ويؤنبون عكرمة وصحبه، حتى كادت تنشب فتنة داخلية كبرى تدمر كل شىء لولا تدخل أبى سفيان ووعده بأن يسافر إلى يثرب كى يساعد على إعادة الأمور، إلى نصابها، وكان لسان حال الجماهير يردد: «لن يجرنا أحد إلى حماقة أخرى بعد اليوم . . » .

❑❑❑

الفصل [٣٨]

هرول إلى رسول الله، مسح العرق والتراب، لكنه لم يستطع أن يمحو الاحتقان الظاهر فى عينيه، وأخذ يلتقط أنفاسه اللاهثة، ثم ظل يسرد كل ما حدث فى مكة، وما ارتكبه بنو بكر فى حقهم من اعتداءات منكرة، وموقف قريش المتحيز، وإمدادهم لخصماء خزاعة بالمال والسلاح والتحريض، وظل الرسول يستمع إليه فى اهتمام بالغ، وصمت مترقب، ثم قال الرسول وقد طافت مسحة ألم ممتزج بالحزن على وجهه الكريم: «نصرت يا عمرو بن سالم».

وأدرك عمرو بن سالم - مندوب خزاعة إلى الرسول - ما تعنى هذه الكلمات القليلة وفاء بالعهد، وإنذاراً بأحداث جسام، ولم يخف على صحابة الرسول ما تعنى الكلمات، وبات كل واحد منهم يفكر فيما قد يجدّ من أمور.. وأوصوا عمرو بن سالم بالكتمان والعودة فوراً إلى مكة دون أن يذيع أى شىء، ويا حبذا لو أنكر زيارته إلى يثرب، ألم

يقل الرسول: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان؟؟».

وتمتم عمر: «تأبى قريش إلا أن تفتح باب الفتنة، وتجر على نفسها الوبال، ماذا لو احتموا بنور الحق، واتبعوا دعوة الله، فسعدوا وسعد الناس؟؟ ماذا لو أطفأوا نيران الموجدة فى قلوبهم، وكسروا من حدة كبريائهم الزائفة، وتجردوا للحق وحده؟؟».

وأثناء عودة عمرو بن سالم إلى مكة، بصر بأبى سفيان يحث راحلته صوب يثرب، والقلق والضيق ظاهران على وجهه المغبر، وذهل أبو سفيان إذ رأى عمرو بن سالم: «ماالذى أتى بك يا عمرو؟؟».

- «إنى قادم من زيارة حى من أحياء العرب..».

- «ألم تذهب إلى يثرب؟؟».

- «لم أرَ يثرب منذ أمد بعيد..».

وعلى الرغم مما انتاب أبا سفيان من شكوك إلا أنه مال إلى التصديق، ونزل من فوق راحلته واقترب من عمرو قائلاً: «لا يأخذنك الغضب ياعمرو..».

- «وكيف؟؟ لقد قتلتم الرجال، ونقضتم العهد».

- «الإثم فى عنق بنى بكر يا عمرو . . أنت تعرف ذلك» .

- «لكنهم فى عهدكم، وأنتم حرضتموهم وأمددتموهم بالمال والسلاح» .

قال أبو سفيان فى أسف : «إن فئة قليلة من الحمقى هى التى أفسدت الأمور بينكما . . » .

ثم ابتلع ريقه وقال فى مرارة : «إننى ذاهب إلى محمد لأضع الأمور فى نصابها، ونمد أجل الصلح فترة أكبر، وسأفعل كل ما أستطيعه لآخذ حق خزاعة، ورد اعتبارها . . » .

زمجر عمرو : «لسنا عاجزين عن حمل السلاح، وإبادة من كادوا لنا، وأراقوا دمنا، ولم يخطر على بالنا أن نشكو إلى محمد على الرغم من أنه حليفنا الصادق، وذلك لأننا قادرون على أن نرد الصاع صاعين لبنى بكر ومن آزرهم . . » .

ربت على كتفه فى ود وفاضت نظراته رقة واعتذاراً وقال : «أعلم ذلك يا عمرو، وتأكد أنه لن يهنأ لى بال حتى أقتل الفتنة فى مهدها، وأقلّم أظافر اللاعبين بالنار . . وأنا أعنى ما أقول . . » .

وانطلق عمرو فى طريقه، ولفت نظر أبى سفيان روث الإبل . . ماذا يرى؟؟ يا للكارثة ! ! إن هذا الروث يعنى أن

راحلة عمرو بن سالم قد أكلت من علف المدينة، وليس لهذا من تفسير سوى أنه كان عند محمد. . إن الأمور تتعقد، وفى الأمور مكيدة كبرى قد تقضى على كل أمل فى المصالحة، وتعصف بكل رغبة فى السلام المنشود، لكن لا بد أن أواصل السير حتى النهاية، لن أيأس أو أقطع نصف الطريق. ومحمد أنا أعرفه، إنه رحيم لا يرد سائلاً، ولا يحتقر رجاء من رجل مثلى، ألا يكفيه أننى أتيت إليه بنفسى، وأنا سيد القوم، وحامل لوائهم، والمتحدث باسمهم؟؟ إننى ند له تمامًا؟؟ لكن ألا يجوز أن يتمسك محمد ببنود الاتفاقية - وله الحق كل الحق فى ذلك - ويثأر لشرف الدم المراق، ولا يأخذ الغادرين بجرمهم؟ ومحمد يتسامح. . ويتسامح. . لكن إذا ما فاض الكيل، وتمادى المعتدون انطلق هو ورجاله لينفذوا حكم العدالة فى المارقين، وليصدوا عدوانهم وعنادهم، ألم يفعل ذلك مع اليهود، ومع القبائل المتاخمة له؟؟ بل ألم يتجرأ ويجرد جيشًا ليواجه به الروم فى «مؤتة» وهو يعلم علم اليقين من هم الرومان؟؟. ودخل أبو سفيان «يثرب» خائفًا يترقب. . آه. . إن لهذه المدينة صمتًا عجيبًا. . إننى أرى فى الشوارع قومًا هادئين، تشع عيونهم بريقًا عجيبًا، هو مزيج من الإيمان والاطمئنان والثقة، لا صياح ولا قلق ولا تخبط. . لكن هذا لا يعنى أنهم لا يفكرون فى حرب، قد تنقلب سحناتهم فجأة إلى آساد غاضبة، أو نمور شرسة. . ترى إلى من يذهب أبو

سفيان الآن، والجو غامض، والناس يحاصرونه بنظراتهم الذاهلة، وعلامات الاستفهام تلاحق موكبه المرتبك، وراحلته تهرول، وكأنما تتوافق مع ضربات قلبه الخافق المضطرب.

أحقًا هو أبو سفيان؟؟ الناس لا يكادون يصدقون، كيف جرؤ على المثول بنفسه، وكيف يشق طريقه وسط ماضٍ ملىء بالدمار والذكريات المثيرة؟؟ حسنًا فليذهب إلى ابنته أم حبيبة زوجة الرسول.. إنها ابنته.. أقرب الناس إليه.. وبيتها بيت الرسول.. ولسوف تقابله ابنته فاتحة ذراعيها والدموع تترقرق فى عينيها، لقد فرقت بينهما العقيدة، لكنها ابنته على أية حال، لسوف تمده بما يحتاج إليه من بر ومودة وطمأنينة وأمل، ياللمصيبة إنها تقابله متجهمة الوجه، عابسة الملامح، وتدير وجهها بعيداً عنه، أهو فى حلم؟؟ دارت به الأرض، بحث عن مكان يجلس فيه، هذا فراش الرسول، فليسترح عليه، وكم كانت دهشته حينما رأى ابنته «أم حبيبة» تنقض بسرعة وتبعد الفراش، واستدار صوبها وهو لا يكاد يصدق عينيه: «أطويت الفراش رغبة بى عنه، أم رغبة بالفراش عنى؟؟».

قالت فى حدة: «هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس عليه..».

دارت به الأرض جديد.. وعربدت فى رأسه ضجة

مبهمة، وانطمست معالم الأشياء أمامه، حتى أصبح عاجزاً عن أن يرى شيئًا، وهتف بنبرات راعشة: «يا بنت أبى سفيان.. لقد وجهت إلى أبيك أبشع إساءة.. لو كان محمد هنا ما فعل شيئًا من هذا..»

- «رابطة الإيمان أقوى ألف مرة من رابطة الدم..».

- «لقد أصابك بعدى شر..».

وابتلع لعابه، وأعطاها ظهره وانصرف..

والتقى بالرسول فأشاح عنه، ورفض أن يجيبه إلى طلبه.. ثم عول على أبى بكر، طالبًا منه أن يتوسط لدى محمد، فأبى، فمال على عمر، فقال غاضبًا: «أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟؟ فو الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به..».

فأسرع إلى على بن أبى طالب، فرق له فى الحديث وقال: «يا أبا سفيان.. لا يستطيع أحد أن يرد محمداً عن أمر إذا هو اعتزمه..».

فقصد فاطمة بنت الرسول.. لم يبقَ إلا النساء كى يستشفع بهن أبو سفيان، أى ذل وعار!! لكن لا بأس، لئن بلغ مناه، وحقق مبتغاه، فإن كل شىء يهون، لكن فاطمة هى الأخرى أفهمته أنه لا يمكن أن يجير أحد على رسول الله، ونصحه على بن أبى طالب قائلاً: «والله ما أعلم شيئًا يغنى عنك، لكنك

سيد بني كنانة، فقم فأجرْ بين الناس، ثم الحق بأرضك، وما أظن ذلك مغنيًا، ولكن لا أجد لك غيره..».

ونفذ أبو سفيان ما أشار به علي، ثم ركب راحلته وانطلق ذاهبًا إلى مكة بخفي حنين، والطريق شاق طويل، مليء بالأحزان والمرارة والهوان، وأشباح الذكريات التعسة تتراقص من حوله، والليل ممتد فاحم ينبض بالأسى المرير. هل أصبح للحياة - بعد اليوم - طعم يا أبا سفيان؟؟ أنا الذي كنت أمضي في الطريق، فيخشع العرب، وتنحني الرءوس وترتجف الأهداف، وتتباهى الناس بلقائي والحديث معي، فإذا ما نطقت، تلقفت الآذان كلماتي وكأنها الوحي النازل على محمد، وإذا ما أشرت بأصبعي تبعتني الحشود إلى الحرب.. إلى الموت!! ما الذي جرى حتى أدخل «يثرب» فتلاحقني المهانة والسخريات؟؟ هذا هو السقوط الفعلي على الرغم من وجود الرجال والسلاح من ورائي.. سقطت هيبتي في قلبي.. ولا يهمني بعد ذلك المظهر.. لو كنت أعلم أن مكة قادرة على أن تنهض بي من كبوتي وترد إليّ كبريائي المهدورة لما شعرت بما أشعر به الآن من أسى عميق.. لا.. أنا لا يهمني مكة.. إن السقوط نابع من داخلي.. إن في قلبي فراغًا رهيبًا.. ليس فراغًا بالضبط.. لكنه شيء تافه حقير أشبه ما يكون بلا شيء.. آه لسوف يلقاني الناس على

مـشـارف مكة، وينظرون إلى وجـهى ويتسـاءلون: «مـاذا جرى؟؟».

- «آه.. مـاذا أقـول؟؟ وكـيـف أجيب عن تساؤلاتهم؟؟ وكيف ألقى عكرمة والحقراء من حوله؟؟ وهند زوجتى، بماذا أحـدثهـا؟؟ إنه مـوقف رهيب» ويمضى أبو سـفـيـان فى طريقـه الشـاق، والذكـريات الآثمـة تطفح على سطح فكره المائج.. وتتجسم الآثام.. هذا رجل من رجـالات محمد قبضوا عليه مع صـاحب له.. يا له من عذاب يتعرض له الرجلان.. وأبو سفـيان يشـهد المأساة.. ما أبشع ما قـاسى الرجل.. أوه.. ليس هذا وحده، رجـال آخرون، كانوا يتحملون العذاب حتى الموت.. يبتـسـمـون للعـذاب، ويرفـضـون أن ينطقـوا كلمـة الكفر.. إن سجلك حافل يا أبا سفيان.. ترى هل كـان هناك داعٍ لهـذا العناء كله؟؟ لماذا لم نتـرك الناس يختـارون؟؟ أكـان ضروريًا أن نرغـمـهم على اعتناق ما نؤمن به، وأن يعـادوا من نعادى، ويصادقوا من نصادق؟؟ لو فعل محمد الآن ما فعلنا أنلومه ونرمـيه بالجور؟؟ وانتزع أبو سفيان عـصاه فجأة، ثم انهـال على رأس الراحلة وعنقهـا ضربًا مـبرحًـا، والناقة تهز رأسهـا، وتجرى ويصدر عنها رغاء ضارع.. وأخذ أبو سفيان يهدئ من روعها، ثم كف عن ضرب الناقة، وتركها تمشى كما تهوى، وجسده يهتز أمام وخلف.. والرفاق الذين معه يمشون

خلفه فى صمت لا يكادون ينطقون بكلمة واحدة . . وخاطب أبو سفيان نفسه قائلاً : «حسنًا . . ليحدث ما يحدث . . ليصبح عاليها سافلها . . ولتنطلق همجية التدمير فى كل الأنحاء . . أجل . . فقد سقطت . . ».

وشعر برغبة فى البكاء، لكنه تمالك أعصابه واستطرد : «لتقل هند ما شاءت . . وليسخر ابن أبى جهل . . ولينطق الشامتون فى شوراع مكة وبيوتها بأفحش القول . . فما عدت أكترث لشىء . . ».

إنها لحظات يأس قاتل، لم يتعرض أبو سفيان لمثلها طول حياته . . وتساءل : «ترى لماذا لا يحملنا الله بقدرته هو إلى الحق؟؟ هل كان من الضرورى أن يبعث برجل من بنى هاشم لنهتدى على يديه؟؟ ألم يكن من المريح لبنى البشر أن يتجرعوا نور الحقيقة على يد خالقهم؟؟ إننى أؤمن بالله . . لكن . . لكن لن أستطيع أن أؤمن بمحمد مهما كان الأمر . . وكيف أؤمن به بعد ذلك الصراع الرهيب؟؟ أأظهر أمام الناس بأنى كنت على باطل طوال هذه الحقبة المنصرمة؟؟ ففيم كان إذن القتال والعناء والدمار، وقصائد البطولات، والتحديات التى سارت بها الركبان فى كل مكان؟؟».

□□□

الفصل [٣٩]

«عندمــــا يشــــاء الله، تنطوى إرادة البـــشـــر تحت مشيئته، وتتواكب الأحداث لإنفاذ أمره، وينجلى صراع الحق والباطل عن هزيمته ما حققه لما هو ضد الطبيعة والعدل، وتأتى النتيجة ملبية لنداء الحياة ومتطلبات العصر».

هذا ما قاله عمر بن الخطاب حينما أعلن الرسول بعد أن حشد عشرة آلاف جندى- أنه ذاهب لفتح مكة، واستطرد عمر قائلاً: «يا صحابة رسول الله، كان طبيعيًا أن ينقض المارقون والمنحرفون العهد، فالأوبئة لا تلد إلا الموت، والجيفة لا ينبعث عنها إلا الروائح الكريهة، وطغاة مكة كذلك لا تنبى تصرفاتهم إلا عند الحقد والعسف والفساد، وما فعله بنوبكر، ومؤازرة قريش لهم فى عدوانهم على حلفائنا الخزاعيين، ليس إلا حدثًا متوقعًا، ومحصلة للصراع.. وقيامنا لرد العدوان، ووضع الأمور فى نصابها، وفتح الطريق أمام نور الله.. أقول إن قيامنا بهذا الواجب، أمر تفرضه

عقيدتنا، وتحبذه ارتباطاتنا فى الحديبية، وإنى لأظن أن وثبتنا المباركة تلك، ستعيد إلى الأرض السلام، وستهب الحرية للمحرومين والمستعبدين فى جنبات مكة، أولئك الذين حرموا من نعمة الاختيار، واتباع الطريق السوى التى يؤمنون بضرورة ارتيادها . . وإذا كان هذا هو التفسير الصحيح للأمور حسبما أعتقد، فإن رسول الله قد تلقى وحى ربه بفتح مكة، وليس لأمر الله نقض ولا رد . . لكن اعلموا يا صحابة رسول الله أن نبيكم يريد أن يدخل مكة دون إراقة دماء، فما بنا رغبة للثأر أوالانتقام، ولسنا ظامئين لإسالة دماء البشر . . » وتنهد عمر فى ألم وقال: «وكان لا بد أن يعود المهاجرون والمطرودون إلى دورهم وأرضهم وذويهم . . من الظلم الفادح أيها الصحاب أن يضطر الإنسان إلى الخروج عن داره لرأى رآه، أو عقيدة اعتنقها . . ومن التجبر الفاحش أن تحشد قريش الجلادين، وتقيم المشانق، وتدبر المؤامرات للقضاء على إنسان يريد الإيمان بخالق الأرض والسماء، وباعث الروح . . وحثت الحشود خطاها مسرعة صوب مكة حيث المسجد الحرام، ومحمد على ناقته القصواء يسبح ويدعو الله أن يهدى الجميع إلى طريق الخير والفلاح، ويوصى جنوده بالصبر والصفح، واحتساب كل تضحية فى سبيل الله، حتى إذا بلغ الرسول وجنوده مكانًا قريبًا من مكة يقال له «نيق العقاب» أمر الجند

بالنزول فيه. . وعلمت «يثرب» بنوايا الرسول، ففرح الرجال والنساء وترنم الأطفال بالأراجيز، وذهبت زوج عبد الله بن أبى إليه قائلة: «ألم تسمع الأنباء؟؟».

رفع إليها وجهًا شاحبًا متغضنًا، وعيونًا حائرة وقال: «ماذا هناك؟؟».

- «ذهب محمد لفتح مكة. .».

صاح بصوت واهن ضعيف: «مكة؟؟ هل أصابك جنون يا امرأة؟؟».

- «إننى على يقين مما أقول!! وهو الآن على مشارفها، أخذها على غرة حتى لا تستطيع أن تنهض للمقاومة، فتراق الدماء، إنه يريد أن يفتحها دون معركة. .».

فكر عبد الله برهة، ثم اهتز رأسه هزّات لا إرادية، وطأطأ رأسه ذليلاً وقال: «إذا نجح محمد فى خطته، فستكون النهاية. .».

- «أوتشك فى نجاحه يا عبد الله؟؟ لقد أوحى الله إليه أن يذهب إليها فاتحًا، بعد أن نقضوا العهود، وأساءوا السيرة. .».

قال وقد تلون شحوبه بحمرة خفيفة مفاجئة: «الأمر ليس

هينًا ولن تفتح مكة أبوابها إلا إذا خر رجالها صرعى أجمعين . . إننى أعرف عنادهم وحقدهم، ولن يستطيع محمد وجنوده أن يصمدوا لحرب من هذا النوع . . كانت قريش تخرج كل مرة وتهاجم محمداً فى عقر داره . . أما هذه المرة فإنها الأولى التى يتبدل فيها الحال، ويذهب المسلمون إلى قريش فى مربضها . . ستكون معركة ما سمع بها العرب من قبل، وستكون أحدوثة التاريخ والأزمان، وستظل مادة ثرية لشعر الشعراء وأحاديث الرواة . . » .

قالت زوجه فى دهشة : «دائمًا تجهض فرحتى . . وتحرمنى متعة الأمل يا عبد الله . . أنسيت أن أبا سفيان جاء بالأمس ذليلاً خائفًا مستجيراً؟؟ ما معنى ذلك؟؟ ليس له سوى معنى واحد، وهو أن قريشًا فى أضعف حالاتها، وأن قومًا هذا شأنهم لم يستطيعوا أن يصمدوا فى معركة حقيقية» وبدا الغيظ والضيق على وجه شيخ المنافقين، ربما ساءه أن زوجه تلمس الحقيقة، وتعبر عنها تعبيراً صادقًا، وربما تخيل المسلمين يعودون منتصرين فأزعجه هذا التخيل، أو لعله رأى فى كلماتها سذاجة وحماقة، وأخيراً هتف غاضبًا : «ألا يجوز أن يكون أبو سفيان قد لعب لعبة بارعة، حتى يجر محمداً وجنده إلى كمين منصوب، ويغريهم بالحرب حتى يقضى عليهم؟؟ إننى أعرف هؤلاء المكيين، لم يستطع أحد أن يستولى على

مدينتهم من قبل، أنسيت ما حدث فى عام الفيل؟؟ ماذا جنى «أبرهة»؟؟ عاد خائبًا مهزومًا..» وضاقت زوجه بهذا الجدل الذى أثارها وأزعجها، ليكن تفسيره مقبولاً أو معقولاً، وليكن فكره عميقًا محيطًا، لكن هناك أمرين لا يمكنها أن تتجاهلهما: أولهما أنها تتمنى ألا يكون تحليله صادقًا، وثانيهما أن الحوادث الماضية قد أثبتت فساد رأيه، وكانت معظم النتائج تأتى على عكس ما توقع، لهذا قالت: «فلنكف عن الجدل الآن، لن أؤيدك أو أعارضك يا عبد الله، ولكنى سأنتظر النتيجة، وما أظن أن ذلك سيطول أمده..».

وانصرفت زوجه حانقة، بينما بقى شيخ النفاق وحده، قاس المكان بنظراته، ورفع عينيه الغائرتين إلى السماء وتحسس الفراش بيده العجفاء، كان يبحث عن ومضة نور، الشمس تتدفق فى كل الأنحاء، والسماء زرقاء صافية الأديم، والجو يوحى بالهدوء والسكينة، وانبساط الأفق يبشر بالانطلاق والأمن، لكن الصورة لدى عبد الله شىء آخر، إنه ما زال يبحث عن ومضة نور، أو لحظة طمأنينة، أو رجفة أمل تنعش قلبه العجوز، وتأتى قريش مطأطئة الرأس، تسلم قيادها لمحمد، ويأتى أبو سفيان مستغفرًا تائبًا، ويقبل عكرمة بن أبى جهل على استحياء ليشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟؟ وأبو جهل فى قبره كيف تكون حاله؟ أم أن الموتى لا

يشعرون بشيء؟؟ وهند.. تلك التى لاكت كبد حمزة فى فمها، وتحلت بأحشائه ومثلث بجثته أشنع تمثيل!! ووحشى ابن حرب.. والحويرث.. كيف ينصاع هؤلاء جميعًا لمحمد؟؟ أى عقل يستطيع أن يصدق أن يعم الصفاء والوئام هذه البقعة الدامية، ويهيل التراب على تلك الثارات العنيفة؟؟ من أجل ناقة صرعت قامت الحروب لسنوات بين قبيلتين من كبار القبائل.. كان الأبناء يرضعون لبان الحقد والثأر من أمهاتهم.. والآن كيف ينسى العرب ما جرى فى «بدر» «وأحد» و«الخندق».. والسرايا المختلفة.. وبنى قريظة والنضير؟؟ كيف تنمحى هذه الذكريات؟؟ أهكذا تنتهى المعركة.. ينهزم اليهود ثم تنهزم قريش.. معنى ذلك أن تحيق بى الهزيمة.. لكأن المعركة دائرة من أجلى.. من أجل التاج الضائع.. لكن لشد ما يؤلمنى أن أفكر فى بعض الأحيان فى تفاهتى.. إنهم يحاربون الآن دون أن يفكر فىّ أحد.. لقد نسونى.. ونسوا تاجى.. ثم رفع يده المعروقة المرتعشة، وأطال النظر إليها، وهتف فى رعب: «لم أعد أصلح لشيء..» ثم حاول النهوض وهتف فى تحدٍّ: «لئن.. انتصرت قريش على محمد، فلسوف تدب فىّ الحياة من جديد، وسيصح قلبى.. فى انتصار مكة عمر جديد لى.. عندئذ أستطيع أن أنكل بأنصار محمد، يدعمنى

المتنصرون، ويعيدون إلىّ مجدى . . وأول شىء أفعله هو أن أحطم جمجمة ولدى عبد الله، وأبصق فى وجه زوجتى . . وأتزوج غيرها . . سيتغير كل شىء . . سيتغير كل شىء . . سيتغير وجه يثرب ومكة . . وهؤلاء الذين يخطبون ود محمد اليوم، يأتون إلىّ تباعًا ليسبوا المسلمين ودعوتهم، وليقدموا لى فروض الطاعة والولاء، ويشنفون أذنى بروائع القصائد . . ».

□□□

الفصل [٤٠]

دخل أبو العباس عم الرسول بيته مهرولاً، كان وجهه ينطلق بشراً وسعادة، وسيما تبدو واضحة جلية. . ودهشت زوجه أم الفضل إذ رأته على هذا الحال، فهى تعلم منذ حادث بنى بكر وخزاعة، وهو فى هم وقلق ترقبًا لما قد تأتى به الأيام، لقد عاش العباس فى نوع من الحياد لا يرضى عنه الكثيرون، يعتب على ابن أخيه ويعارض فكره، وينقم على تشبثه بدعوته، ولا يمنع قريشًا من حربه، ويؤيد فكرة الحفاظ على تراث قريش وماضيها وآلهتها، لكنه لم يفعل كما فعل أبو جهل وأضرابه، لم يغال فى معارضته، أو يرتكب الحماقات ، ومن ناحية أخرى كان قلبه يحن إلى ولد أخيه، ويدمن التفكير فى أمره، وهو لا ينكر أنه فى بعض الأوقات قد مال إلى تصديقه وفكر فى اعتناق دعوته، كان هذا الوضع شبه الحيادى يكلف العباس الكثير من القلق والأرق والضيق، ومنذ يوم «العمرة» التى أتى فيها محمد وألفان من المؤمنين به لزيارة

البيت العتيق، وهو يشعر بالتحول الحقيقى ولا يخفيه عن زوجه.. لقد استقر رأيه على اعتناق الإسلام..

وحينما دخل العباس بيته، ورأته زوجه على هذه الحال، قالت: «أقرأ فى وجهك أنباء حدث سعيد..».

قال فى إيجاز: «ابن أخى فى طريقه إلى مكة».

هتفت فى دهشة: «لماذا؟؟».

- «ومعه جيش عرمرم..».

هزت رأسها قائلة: «فهمت..».

- «وقريش يا أم الفضل لا تعرف عن الأمر شيئًا، يريد أن يأخذها على غرة.. لقد عرف كل شيء..».

صاحت فى رعب: «أتريد أن تخبر قريشًا بالأمر؟؟».

قهقه فى سخرية: «كيف؟؟ أنت تعرفين أننى اخترت طريقى وحزمت أمرى، وأنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله..».

تنهدت فى ارتياح، لكنه قال فجأة: «لكن بمكة الأهل والعشيرة والإخوان، ولن أفرط فيهم..».

قالت أم الفضل: «إنك تحيرنى، ماذا تعنى؟؟».

- «من حقى يا أم الفضل أن أختار العقيدة التى يقتنع بها عقلى، ويستجيب لها قلبى . . ومن حق العشيرة علىّ أن أحميهم من الشطط، وأحفظ عليهم دماءهم وأموالهم وأولادهم ونساءهم . .».

هزت كتفيها فى حيرة وقالت: «لا أفهم إلا القليل . .».

- «غداً تفهمين كل شىء . .».

قالت مستدركة : «لكن كيف عرفت بمقدم محمد؟؟».

- «هذا سر لن أبوح به لأحد طول حياتى . . كل ما يمكننى قوله هو أننى أديت واجبى، وأديت دورى بشرف . .».

ثم قال فى لهفة: «أعدى الطعام، ودعينى أجهز راحلتى . .».

- «إلى أين؟؟».

- «إلى الجحفة . . هناك ألقاه . .».

- «لقد قرب موكبه . .».

ثم أمسكت بكمه قائلة: «حذار أن يلحظ أبو سفيان شيئًا . .».

- «اطمئنى . . لن يطول بأبى سفيان الوقت حتى تنجلى الأمور على حقيقتها . . إن له حاسة شم قوية . . رأيته اليوم

يلف ويدور، يتنطس الأنباء، رأيت فى عينيه توجسًا وخوفًا، الرجل يقف فى الأسواق كأنه متأكد من وقوع كارثة وشيكة لا يستطيع لها دفعًا..».

وعادت أم الفضل تقول: «لكن بماذا تجيب إذا سألك سائل عن وجهة سيرك؟؟؟».

هز كتفيه باسمًا وقال: «بسيطة.. إننى ذاهب لتنطس الأخبار فى هذه الأيام الحرجة..».

- «الله معك..».

وانطلق العباس إلى الرسول، وتدارسا الموقف، وكان الهدف من وراء هذه المدارسة دخول مكة دون حرب، وطلب الأمان لأهلها، فكيف تستطيع مكة الممزقة التى لم ترتب أية استعدادات ليوم كهذا كيف لها أن تصمد لعشرة آلاف محارب، كل واحد منهم لا يرتضى بغير الاستشهاد أو النصر بديلاً؟؟».

وخرج العباس متجهًا صوب مكة ليخبرها بما أعد محمد من قوة لا تقهر، وليقدم النصح حتى يحفظ الدم والولد والنساء والمال، وبينما هو فى طريقه، والليل حالك السواد سمع صوت أبى سفيان يخاطب صاحبًا له، قال أبو سفيان وهو يرى نيرانًا كثيرة: «ما هذا ؟؟ إنه لأمر غريب حقًا.. ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا!!».

قال صاحبه وقد دهش هو الآخر لهول ما رأى: «هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، فخرجت تطلب الثأر من بنى بكر ومن والاها..».

فوكزه أبو سفيان فى غضب وقال وقلبه يرتجف: «خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها..».

وابتلع أبو سفيان ريقه وقال: «أشعر أن الكارثة قد اقتربت..».

وعرف العباس صوت أبى سفيان فهتف به: «يا أبا حنظلة..».

قال أبو سفيان فى دهشة: «من ؟؟ أهو أنت يا أبا الفضل؟؟».

اقترب منه العباس وقال دون مقدمات: «ويحك يا أبا سفيان!! هذا رسول الله فى الناس.. واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة» دارت الأرض بأبى سفيان، اختلط الظلام بالنجوم اللامعة فبدت أمام عينيه خليطًا مبهمًا من الرعب والعذاب، وتمتم فى حسرة: «يدخل مكة عنوة؟؟ أيمكن أن يحدث ذلك؟؟».

قال العباس: «لا تخدع نفسك، لا مجال للمكابرة والجدل العقيم، إن وراءه عشرة آلاف محارب يستطيعون أن يكتسحوا

أية مقاومة، أتخوض يا أبا حنظلة معركة تعرف نتائجها المخزية سلفًا؟؟ وأين حشودك المنظمة وسلاحك؟».

اقترب أبو سفيان منه، وتعلق بأهداب ثيابه قائلاً: «وما الحيلة فداك أبى وأمى؟؟ أعرف أن ابن أخيك لا شك بالغ ما يريد.. لكنى أخاف أن يسفك الدماء، وينتقم.. وستكون عنقى أول عنق يهوى عليها سيفه، وزوجتى هند هى الأخرى سوف..».

فقاطعه العباس قائلاً: «اركب هذه البغلة وهيا معى إلى رسول الله..».

ويمضى موكب الحسرة بأبى سفيان وسط آلاف الجنود، والنيران المتقدة تنعكس ظلالها الحمراء على الوجوه المشرقة المؤمنة التى لفحتها الشمس، ويثور عمر بن الخطاب فى وجه العباس لحمايته أبى سفيان ويطلب من الرسول أن يأمر بضرب عنق أبى سفيان، ولكن العباس يقول: «لقد أجرته يا رسول الله..».

وقال الرسول فى هدوء: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتنى به..».

ومال أبو بكر على أذن عمر هامسًا: «لم الغضب؟ أصبح قائدهم فى يدنا، وهذه بداية طيبة..».

قال عمر وهو يصر على أسنانه: «قاد أبو سفيان الفتنة، وأشعل الحروب، وعذب الأبرياء، ورمى الشرفاء بكل نقيصة، وخالف اليهود والمنافقين.. أية جريمة بعد ذلك؟؟».

قال أبو بكر باسمًا: «دع الأمر لله».

وقضى أبو سفيان ليلة لم يغمض له فيها جفن، الذكريات تطحن رأسه المتعب، ومشاهد الأيام الخالية تملأ قلبه بالحسرة والخجل والعار، وتمتم: «أعرف أنه السقوط.. قلت ذلك عند عودتى خائبًا بالأمس القريب عندما رفض محمد مد أجل الهدنة.. سقطت أمام المسلمين.. وبينى وبين نفسى.. وعندما عدت إلى مكة.. شعرت أيضًا بآلام السقوط. قال الرفاق لى: ما زاد الرجل على أن لعب بك.. آه.. لقد هزمنى الخواء الذى تنعق فيه كبرياء «المكيين» الفارغة.. دمرنى الأغبياء من الطائشين والطائشات.. فليأت عكرمة ليشهد بعينيه آثار الحماقات التى نكتوى بنارها.. أشعر أننى قد جريت شوطًا طويلاً مرهقًا. وأن قدمى تدميان.. وأنفاسى تتلاحق.. والغبار يكسو لحيتى ووجهى وأهدابى وثيابى.. أشعر برغبة جارفة فى أن أرتمى فى مكان ندى هادئ رطب وأستريح.. أو أموت.. واكرباه؟؟ إن رجالى الآن يشربون الكئوس.. ويدقون الطبول ويخططون للمستقبل عند الداعرات وهم سكارى.. ويتحدثون عن آلهتهم فى قلب

الحانات والمراقص. . » فلما كان الصباح، جىء بأبى سفيان إلى الرسول. . الموت ولا هذا. . هؤلاء هم كبار المهاجرين والأنصار يسددون إلى أبى سفيان نظرات مستطلعة. . لكنه يرى بعقله المكدود المرتبك السخرية والاحتقار، فيثور الدم فى رأسه، لكنه يكظم غيظه، ويرفع إلى الرسول عينين محتقنتين. .

فيبتسم الرسول ويقول: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟؟».

فيرد أبو سفيان مرتجفًا: «بأبى أنت وأمى!! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئًا بعد. .».

قال النبى: «ويحك يا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أنى رسول الله؟؟».

- «بأبى أنت وأمى!! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! أما والله هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئًا. .» وظلت ابتسامة الرسول مضيئة، تعيد الهدوء إلى أصحابه الذين تغيرت نظراتهم، واحتقنت وجوههم وحرك الضيق ما سكن من مشاعرهم، ومال العباس على أبى سفيان وقال فى حدة: «بقية من كبرياء تمنعك من أن تنطق بكلمة الحق، والله إنى

لأعلم أنك أدرى أهل مكة بالحق، وأفهمهم للصالح من الطالح، لكن عنجهيتك تزين لك العناد، وتأخذ بيدك إلى موارد التهلكة والفساد. . ماذا تنقم على محمد؟؟ أفى أخلاقه عوج أم فى مبادئه زيف؟؟ أفق لنفسك أيها الرجل. . وانتصر لكلمات الله. . وامح ما فات من تاريخك الأسود.

طأطأ أبو سفيان رأسه فى خجل، فقد تبللت عيناه بقطرة دمع، وغمتم: «وأشهد أنك يا محمد رسول الله. . ».

هتف العباس فى فرح: «فلتذهب إلى مكة، ولتفتح عيون الناس على الحقيقة، إن أنت فعلت ذلك فقد فتحت قلبك حقًا لنور الله. . ».

ثم مال العباس على رسول الله قائلاً: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا. . ».

قال الرسول فى رضى: «نعم.. من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن..».

ولم يهرول أبو سفيان إلى مكة إلا بعد أن وقف عند مدخلها ليرى قوات المسلمين، عندئذ قال وقد رأى الكتيبة الخضراء التى يتقدمها الرسول: «يا عبَّاس: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا. . ».

ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته: «يا معشر قريش!! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبو سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن..».

وتمتم حطاب عجوز يمضى فى الطريق: «لقد آمنا قبل أن تأتى.. ومقدمه هو الأمان بعينه.. أحببناه لا خوفًا من جنده، أو طمعًا فى مغانمه، وإنما لأننا رأينا فيه الأب والأخ والابن والصديق.. ورأينا فى كلماته نور الله.. هو أخو الحيارى والمعذبين والمضطهدين.. هو فى القلوب قبل أن يكون فى مكة..».

ولم تضع كلمات العجوز الفقير فى الزحام.. بل كانت صدى يتردد فى الحارات والردهات والحجرات الصغيرة..

□□□

الفصل [٤١]

جرى عكرمة إلى سيفه، وهو يصيح: «لن نستسلم لمحمد ورجاله». وجرت خلفه أم حكيم «زوجه» وأمسكت بذراعه وقالت ضارعة: «ارحم نفسك وولدك، الرجل على حق، وقد تعرض لظلم كثير منا» دفعها عكرمة في عنف وهو يزمجر: «أيتها الملعونة، أنا لا أفكر في حق أو باطل، إن ما يغمر قلبي الآن هو حقد لا حد له، لقد قتل محمد ورجاله أبي وأقربائي، ومرغوا شرفنا في التراب والوحل، ولا معنى للحياة بعد انتصار محمد».

شهقت باكية وقالت في تحدٍّ: «بل إن انتصار محمد شرف العرب أجمعين، كلماته نور وهداية، خلقه كريم، فهو خيار من خيار..».

أشاح بوجهه قائلاً: «لا أريد أن أسمع هذا الكلام!! لقد أهدر دمي..».

- «أؤكد لك أنه سيعفو عنك».

- «كيف؟؟».

- «أنا أعرفه . . ».

- «أنا ابن أبى جهل، وقاتل الأبطال من رجاله، ومحرض بنى بكر، أنا عكرمة . . ومثلى لا ينالون العفو . . ».

وابتلع ريقه، واستطرد: «هم قتلوا أبى . . ».

- «هكذا الحرب يا عكرمة، كل من حمل سيفه فهو يعرض للموت فيها، أنت تظن أن يتجنب المسلمون أباك؟؟ وهو يشبعهم قتلاً وتسفيهًا؟؟ لم تنصع للعدل . . ».

ركلها بقدمه قائلاً: «إليك عنى، فلو اجتمع أهل الأرض لإقناعى بالتسليم والإسلام لما انصعت لهم . . ».

وأسرع إلى الشارع ممتشقًا سيفه . .

وفى بيت آخر ، كان الحويرث يتخبط في أركان البيت شاحب الوجه، مجنون النظرات ويقول: «الحرب حتى النهاية، فليناد أبو سفيان ما شاء، فلن نخضع لرأيه بعد اليوم»، وهتفت به زوجه فى ذعر: «إنك تسوق نفسك إلى هاوية أكيدة، وتضيع إلى الأبد فرصة العفو عنك».

قهقه كشيطان وقال: «إن هذا العفو الذى تتحدثين عنه، أبشع ذل . . إنه ألعن من الموت، لسوف أعيش طول حياتى مدينًا لمحمد بالفضل . . وهذا ما أكرهه . . ».

وتشجعت زوجه لأول مرة منذ أن اشتدت الأزمة وألقت فى وجهه بكلماتها تلك: «هذه سفاهة فى الرأى».

جرها من شعرها الطويل وأخذ يشبعها ركلاً ولكمًا، وهو يصيح كثور: «أيتها النجسة . . أتجرئين على قولها؟؟».

صرخت فى إصرار: «إننى أحول بينك وبين الموت . . من أجلك . . ».

- «ليس هذا يوم النساء . . لقد أسأت إلى ابنة محمد إساءة بالغة . . ».

ثم رفع وجهه الشاحب فى تحدٍّ وقال: «وأنا أكره محمدًا . . وعندما تمكننى الأقدار منه فلسوف أقتله على الفور . . ».

وتندى جبينه بعرق غزير، فأخذ يجففه وهو يقول: «لقد عاهدت الرجال على الحرب ضد محمد حتى الموت ولو كنا وحدنا . .

ولن أنكث بوعدى . . أتفهمين ما هو عهد الرجال؟؟».

نظرت إليه بغضب . . «عشرة آلاف رجل يطرقون أبواب

هتف بصوت واهن، وصدره يعلو ويهبط : «نعم الرجل محمد، آذيناه وطاردناه، ورميناه بكل نقيصة، وهو الشريف النجار، السامق الخلق، وأثرنا الدنيا فى وجهه حربًا شعواء لا هوادة فيها، وصالحنا اليهود وتجمعنا لضربه . . وكنت أنا أول المناوئين له حتى النهاية . . أتدرين كيف استقبلنى؟؟ كانوا يريدون قتلى لكن محمدًا أبى . : ابتسم لى يا امرأة . . ما رأيت على وجهه شماتة أو حقدًا . . فرح بإسلامى أكثر من فرحه بيوم بدر المشهود . . » .

أخذت هند تولول وتندب أباها وأخاها وعمها وولدها، فلم يكترث لها أبو سفيان، وبعد فترة صرخ فيها : «كفى ضجيجًا وإلا . . » .

فنظرت إليه فى دهشة وصمتت، بينما استطرد أبو سفيان فى هدوء مفاجئ : «لسوف أكلمه فى العفو عنك يا هند . . على أن تؤمنى بالله وبرسوله وبكتابه . . » وأخذت تجفف دموعها، دون أن يبدو عليها أى اهتمام ظاهرى، وإن خفق قلبها بالأمن والراحة . . ودخل محمد مكة وسط جنده من جهاتها الأربع، واستسلمت مكة إلا فى جهتها الجنوبية حيث تقدم خالد بن الوليد برجاله، ليتصدى لرفيق الكفاح وصديق العمر عكرمة بن أبى جهل، ومعه صفوان بن أمية والحويرث

مكة، بينهم محمد، وأبو سفيان يحنى رأسه لهم، والعباس يعلن إسلامه، وسادات مكة يتوارون فى بيوتهم، وأنت تريد أن تتحدى الطوفان بيديك المرتعشتين. . ».

وبصق عليها واختطف سيفه وأسرع خارجًا. .

أما هند زوجة أبى سفيان. . فقد لطمت خدودها، وشقت ثيابها وهتفت. . «أحقًا ما تقول يا أبا سفيان. . أيدخل مكة، وتدينون له بالولاء، وتؤمنون بدينه؟؟ هل أنا فى حلم أم فى يقظة؟؟ ولماذا لا تحمل سيفك لتدافع عن كرامتك وشرفك، وتلبى دعوة الدماء التى أراقها محمد من أهلى وأهلك؟؟ إنه عار الأبد وذل الحياة. . ».

أطرق أبو سفيان برهة، ثم رفع إليها وجهًا صارمًا وقال: «أبو سفيان يعرف متى يحارب ومتى يضع السيف فى الغماد. أطبقى شفتيك ولا تنطقى بكلمة أخرى وإلا ضربت عنقك».

قهقهت فى جنون. . «أيها الفارس الهمام. . ».

ثم أجهشت باكية: «الغيظ يأكل قلبى، ومحمد أهدر دمى، ما كرهت أحدًا فى حياتى كما كرهته. . إنه لخير لى أن أقتل نفسى. . ».

ووحشى وغيرهم من محفل الحاقدين والمضلين . . وما هى إلا ساعة أو بعض الساعة حتى انهارت المقاومة المنعزلة فى جنوب مكة ، وفر عكرمة وصفوان يطلبان الذهاب إلى اليمن ، وهرول وحشى صوب الطائف ، وجرى الحويرث إلى بيت لؤلؤة يرجف من الرعب . . فتحت له الباب متجهمة الوجه ، فهتف فى ضراعة : «أتيت إليك يا حصنى الأخير» . . حاولت الهرب فأخذوا علىّ الطريق من كل ناحية . . قالت فى حدة : «اخرج من بيتى . . » .

رفع إليها عينين ذليلتين وقال : «أنت الأمل الباقى . . أصبحت وحيداً ذليلاً . . إنهم ورائى . . ضاقت بى الدنيا على سعتها . . » .

صاحت به ثانية : «اخرج من بيتى . . » .

ارتمى لدى قدميها ، وأخذ يلثمها ويقول : «لسوف أعد العدة لقتل محمد غيلة . . أعطنى الفرصة حتى أحقق أمل العمر . . » .

قهقهت ساخرة وقالت : «انتهى عهد الحماقات . . لن تستطيع قتله . . لقد كتب الله له أن يحيا . . ومن أنت أيها الحشرة حتى تتحدى محمداً . . لكن قتلك أنت فيه خير كثير . . » .

وركلته بقدمها فتراجع فى دهشة وهو يقول: «أيتها الداعرة.. لسوف يقتلك أنت الأخرى».

قالت فى ثقة: «محمد لا يقتل النساء والمظلومين..».

- «لكنك تكرهينه..».

- «أصبحت الآن أحبه كما لم أحب أحدًا فى الوجود..».

رماها بنظرة حاقدة وقال: «إنه لا يرتاد الأماكن القذرة..».

- «لسوف أؤمن به، وأبدأ من جديد.. ولسوف أنفذ فيك أمر محمد ليكون ذلك بداية طيبة.. لحياة طاهرة..».

واستلت خنجرًا كان مخفيًا فى طوايا ثيابها، وهمت بالهجوم عليه لكنها سمعت صوتًا يقول: «لا تشغلى نفسك بهذا الأمر، لسوف نقوم به نيابة عنك..».

وساقوه إلى الرسول، وهو يسب ويتوعد وينثر بذائه على جانبى الطريق.. وقتل الحويرث..

واحتشد أهل مكة، وخاصة أئمة الحقد والعناد فيها أمام

الرسول ليرى رأيه فيهم، وقال الرسول: «ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟؟».

قالوا: «خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم..».

أشار بيده الكريمة قائلاً: «اذهبوا فأنتم الطلقاء..».

وتعالى الهتاف والتكبير فى أرجاء مكة.. ودلفت «أم حكيم» وسط الزحام، وقدمت إلى الرسول تعلن إسلامها وتطلب العفو لزوجها عكرمة، فوافق الرسول، فأسرعت إليه قبل أن يبحر إلى اليمن هو ورفيقه.. ثم أتى أبو سفيان تصحبه هند ليتشفع لها، فقبل شفاعته.. وتحولت الحرب المرتقبة إلى أفراح فى كل مكان..

- «لا إله إلا الله وحده.. صدق وعده.. ونصر عبده.. وأعزّ جنده.. وهزم الأحزاب وحده..».

نداء يتردد فى كل ناحية..

ويصعد بلال إلى سطح الكعبة بعد تحطيم الأصنام وينطلق صوته نديًا رقراقًا: «الله أكبر الله أكبر..».

وبعد أن أتم الله الفتح، وأقيمت الشعائر، وتوافد أهل مكة ليعلنوا إسلامهم، جلس رفاق الجهاد من الأنصار، وقال أحدهم: «أترون رسول الله ﷺ إذ فتح عليه أرضه وبلده يقيم بها؟؟».

وعلم الرسول بما قالوا، فذهب إليهم وقال: «معاذ الله..المحيا محياكم، والممات مماتكم..».

وهكذ دخل محمد مكة. . ودخل فى ركابه التاريخ، وقد فتح سجله الكبير ليسجل إلى الأبد أروع قصة خالدة. . القصة التى تمتد عبر القرون والأجيال، تقهر التحديات وتحمل نور الله إلى شتى الأرجاء. . ».

□□□

وبعد،،

أخى القارئ العزيز..

كنت وفيًا بوعدى معك إذ قدمت لك روايتى «نور الله» عن عصر النبوة فى جزأين، وواضح أن الجزء الثانى ينتهى . بفتح مكة، و على الرغم من انتهاء الرواية، إلا أن جزءاً كبيراً من سيرة الرسول بعد الفتح لم نتناوله بعد، وكنت بين أن أعد جزءاً ثالثًا لتكملة الرواية وبين أن أترك لكى أختار بعض المواقف أو الشخصيات المهمة لأفرد لها أعمالاً قصصية مستقلة، تغطى الفترة الباقية . . وقد آثرت الرأى الأخير . . بل إنى قدمت لك قصة «قاتل حمزة» كنموذج عملى لفكرتى الأخيرة . . إن فى عصر النبوة خاصة والتاريخ الإسلامى عامة مجالاً خصبًا للأقلام المؤمنة ولذوى العقيدة من الفنانين والأدباء . .

لقد أثبتت الأيام والأحداث بما لا يدع مجالاً للشك أن

الفراغ «الأيديولوجى» فى الأمة الإسلامية لن تملأه «البضائع» المستوردة، وألا نهوض لشعوبنا من نكبتها وضياعها إلا بالعودة لهذا الدين.. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.. بالإسلام.. وإلى لقاء قريب..

نجيب الكيلانى

□□□

اقرأ..

قاتل حمزة

قصة وحشى، عبد من العبيد، قتل حمزة بن عبد المطلب عم الرسول، وسيد الشهداء . وقتل مسيلمة الكذاب، وحشى الذى يقول: بحربتى هذه قتلت خير الناس بعد رسول الله؛ حمزة بن عبد المطلب، وشر الناس؛ مسيلمة الكذاب .